روايات الهلال

فقراء المثل الأعلى

د. حامد أبو أحمد



سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عزت بدوى

رئيس التحرير
محمد الشافعى

الإدارة
القاهرة ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات ص ب ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ تلغرافيا المصور ـ القاهرة ج.م.ع.
تلكس Telex 92703 hilal u n
فاكس FAX: 3625469

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا -
البحرين ١.٢ دينار -
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢ دولار.

روايات الهلال

مدير التحرير
هالة زكى

المستشار الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

تصميم محمود الشيخ

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com • بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩
العدد ٧٧٨- نوفمبر ٢٠١٣م - محرم ١٤٣٥هـ

فقراء المثل الأعلى

رواية

رقم الإيداع : 21344/٢٠١٣م

الترقيم الدولى I . S . B . N: 978-977-07-1611-3 X

د. حامد أبو أحمد

تلميذنا النجيب/ عبد الرحيم مصطفى
مع خالص المحبة والمودة
د. حامد أبو أحمد
٢٦/٢/٢٠١٠م

فقراء المثل الأعلى

فقراء المثل الأعلى

د. حامد أبو أحمد

دار الهلال

الإهداء

إلى فقراء مصر الذين مازالت
أوضاعهم تزداد سوءاً

- إن الذى يُحدث فرقا فى حياة أى إنسان ليس هو الأحداث التى مرَّ بها، ولكن ما يتذكره منها والطريقة التى يتذكرها بها.

جابرييل جارثيا ماركيز

- الأشياء ليست كما رأيناها، بل كما تذكرناها

دون رامون ماريا دل بايى - إنكلان

- الواقع أفضل منا جميعا نحن كتاب أمريكا اللاتينيـة، ومـا علينا إلا أن نقلده فى إطار مـا هو متاح لنا.

جابرييل جارثيا ماركيز

١

القسم الأول

نخل بكر

هل يمكن أن تتحول الصورة إلي كيان قائم بذاته يشغل ذهنك لفترة أو فترات طويلة،أو يصحبك في اليقظة وربما في المنام، ويرتبط بك ارتباطا حميما؟.. هذا بالفعل ما حدث معي ومع كثيرين غيري من الأطفال إزاء ذلك الوجود الهلامي الواقعي الذي كان الناس يسمونه «نخل بكر»، وهو هلامي من حيث أننا كنا لا نكاد نمسك به أو نقترب منه، وواقعي من حيث أنه كان موجودا علي الأرض ويشغل حيزا كبيراً من ذاكرة الناس: فإذا تواعدوا علي اللقاء قالوا: نلتقي عند نخل بكر، وإذا تكلموا عن مشوار أو مسعى من المساعي الحميدة قالوا: مررنا في الطريق علي نخل بكر، وإذا تحدثوا عن النخيل الباسقات ذات الطلع النضيد ضربوا مثالا لذلك بنخل بكر.

ولم يكن الناس يدركون أن نخل بكر عند الأطفال له موقع آخر وصورة أخرى: فهذا النخل الباسق الممتد في أجواز الفضاء يحمل من عناقيد الرطب ما تهفوا إليه نفوسهم، وتتطلع إليه أفئدتهم ، ويسيل له لعابهم، لكن الوصول إليها مستحيل مثل استحالة التعرف علي طائر العنقاء، لأنهم متأكدون أن ذلك الشخص المسمي بكر والمعروف بأنه صاحب النخيل لا تغفل عيناه لحظة واحدة عندما يكون النخل عامراً بالثمار، فهو يرابط تحت ليل نهار، وإذا حدث وأخذته سنة من النوم فإنه حريص أشد الحرص علي أن يكون معه شخص آخر يراقب المارة لاسيما من الأطفال، بل ربما يطاردهم حين يقتربون من ساحة النخيل أثناء عبورهم للطريق المتفرع والمؤدي إلي عدد من الحقول المجاورة.ثم إن الأطفال يدركون جيدا أن هذا الرجل المسمي بكر معروف بشراسته وحرصه الشديد وعدم تردده في ضرب أي طفل إذا سولت له نفسه الاقتراب من النخيل أو حتى التطلع نحو الثمار اليانعة التي تنوء النخلة بحملها.

ومع ذلك دهمتني ذات ليلة شقاوة الأطفال فقمت من النوم في ساعة مبكرة ومررت علي الولد مسعود طالبا منه أن يصحبني في الذهاب إلي نخل بكر. لمحت السرور في عينيه وانطبع الفرح علي محياه لكنه أراد أن يحذرني من أن المهمة قد تكون غير محمودة العواقب، لكني طمأنته، ولا أدري من أين أتت إليّ هذه الطمأنينة. كان الناس في هذا الوقت المبكر الذي يسبق طلوع الشمس يملأون الشوارع : هذا يركب حماره، وذاك يجر مواشيه، والفتيات يتوجهن في مجموعات إلى ركوب الجرارات التي تحملهن إلي أراضي "الوسية"، وهي الأراضي التي كانت حتى ذلك الوقت تابعة لكبار ملاك الأرض، وهكذا كنا وكأننا داخل خلية نحل تضم الرجال والنساء والفتيات والأطفال وحتى العجائز وكبار السن. الكل مشغولون، والكل في حالة بحث عن الرزق بعد أن أسفر الصبح عن وجهه الوضاح، ورنقت أشعة الشمس الأولي في الآفاق البعيدة، وهبت النسائم صافية عليلة تشرح النفوس وتجعل الناس يقبلون علي الحياة في حب وأمل واستشراف للرزق الحلال. أما أنا وصديقي مسعود فلم نكن في تلك السن الغضة مشغولين بشيء ،كان العبء كله يقع علي كاهل الأب والأم، فهما المسئولان عن حياتنا وعن إعالتنا. صحيح أننا نشعر بما يتكبدان من مشقة، وما يبذلان من جهد، ونحس بأن اليد قصيرة والعين بصيرة، ولكن وعينا لم يكن قد بلغ بعد حالة الإحساس بالحاجة. فهذا الإحساس لم نعرفه إلا عندما شببنا عن الطوق وتعرفنا علي حالات أخرى وأشخاص آخرين، وكان هذا في فترة متأخرة خلال التعليم الثانوي ثم تفاقمت هذه الحالة لدي دخولنا الجامعة واحتكاكنا بالحياة في المدينة، وتعرفنا علي أشخاص لم نكن نشعر أنهم في مثل حاجتنا إلي المال وضروريات الحياة.

الآن الولد مسعود وأنا نتصرف بشكل طبيعي جدا وتلقائي: نحلم أننا سوف نصل إلي نخل بكر، وأننا لن نجده مرابطا هناك، وأن تابعه الذي لا

يفارقه قد شغله شاغل ما عن الذهاب إلي المكان، وأننا سوف نجد النخيل واقفا وحده في شموخ وكبرياء ينتظر أن نقذفه بالحجارة فيسقط علينا من رطبه ما يتحلب به ريقنا، وتسعد به كل ذرة فينا، أو علي الأقل نعثر علي الرطب وقد اساقط بنفسه حول النخلة نأخذه وننظفه ونلقي به في الفم الذي لم يكف عن الحلم به والعثور عليه.

انطلقنا مسعود وأنا في طريق متربة، مليئة بالحفر والمطبات، ومررنا علي البيوت الصامتة، الغارقة في شجونها الأبدية، والمضمّخة برائحة الرطوبة الساكنة في أسفل الجدران المعمولة من الطوب اللبن. لم تكن القرى قد عرفت بعد الجدران الأسمنتية التي تبخ الصهد والحرارة. وكانت البيوت تبدو وكأنها مغلفة بنوع من القناعة والرضا وحمد الله علي ما رزقهم من نعم وما أفاض عليهم من السكينة والطمأنينة.تخطينا مساكن القرية وهبت علينا نسمات المزارع الممتدة علي اليمين وعلي اليسار، والترعة الصغيرة تمر وسط المزارع ممتلئة بالمياه المحملة بالطمي المخصب للتربة. أين نحن من هذه الترع الآن بعد أن صارت الترع والقنوات تخزن في قيعانها مياه الصرف الصحي والمخلفات وأكياس القمامة التي تنبعث منها الروائح الكريهة، وتطل منها الألوان المثيرة للاشمئزاز؟ إننا الآن نستحضر الترع القديمة مثلما استحضر الشاعر القديم من «أذرعات» بالشام بيت حبيبته في «يثرب». فقال في بيته المشهور:

تنورتها من أذرعات وأهلها
بيثرب أدني دارها بصرٌ عال

ولم نكد نترك البيوت خلفنا حتى لاح لنا من بعيد نخل بكر يشق عنان السماء، يتطلع إلينا ونتطلع إليه في حالة من الوجد الصافي، والحب الخالص، والرغبة المتوهجة في الانفراد ونيل المراد. مررنا علي الأرض التي يقولون عنها إنها أرض العمدة، والمصرف المحيط بها، ووقعت عيوننا -كالعادة -علي أجساد الحيوانات النافقة بعد أن حضر الجلاد وسلخها وأخذ

جلودها وتركها عارية للشمس والتحلل البطيء. لم يكن أحد في ذلك الوقت يفكر في أن هذا المنظر المقزز خطر علي صحة الناس، أو أن له آثاراً سلبية علي العباد والبلاد. فقد صارت عادة مقبولة ومتفق عليها أن يرمي الناس حيواناتهم النافقة، بما في ذلك الحمير، في هذا المكان الذي يقترب كثيرا من نخل بكر، حيث المنظر الجميل، والخضرة اليانعة، وملتقي الطرق الأربعة التي تفصل بينها قنطرة صغيرة صنعت بإتقان علي عكس ما يحدث في باقي القناطر.

وتتلاقي الصور، وتتداخل الأزمنة، وتنثال الذكريات. فعندما ذهبت إلي مدريد للدراسة في جامعتها كان المكان الذي نلتقي عنده في وسط المدينة عند الذهاب إلي الجامعة أو العودة منها يسمي «مفترق الطرق الأربعة. وكان يذكرني دائما بمفترق الطرق عند نخل بكر. وقد عثرنا في تلك المنطقة علي مطعم شعبي يقولون عنه «المطعم الاقتصادي»، حيث الأسعار مناسبة لمن في مثل حالتنا، فكنا نتناول فيه طعام الغداء، وننوع الطلبات وفقا للقائمة التي اعتدنا عليها، وإن كانت الأكلة المفضلة بالنسبة لمعظمنا نصف فرخة مشوية مع الأرز، والسلطة لاسيما السلطة الروسية، و طاجن الخضار، والمشروب الذي لم نتعود عليه البتة في بلادنا. ولأني كنت أفضل الفانتا بطعم البرتقال أطلق علي بعض الزملاء لقب «عاشق الفانتا» لأن الغالبية منهم كانوا يفضلون النبيذ بلونيه الفاتح أو القاني.

وصلنا إلى مفترق الطرق حيث يقف نخل بكر شامخا. ولا يظنن أحد أن نخل بكر كان يضم عددا كبيرا من النخلات، أو أنه كان يمتد في منطقة فسيحة، وإنما هو بالتحديد خمس نخلات تقع علي ناصية الأرض الزراعية المملوكة أيضا لبكر نفسه وهي نصف فدان تقريبا جعل منه ومن النخلات كيانا متفردا يتحدث عنه الكبار، ويحلم به الصغار ،ويحتل مساحة واسعة في أذهان الناس، وفي تصوراتهم، وأخيلتهم. ولكن ربما لم يكن لهذا المكان

في نفس أحد وقع أكثر رسوخا وأشد صلابة من وقعه علي نفوسنا نحن الأطفال المشتاقين إلي أكل الرطب، الحريصين علي اقتناص الفرص للوصول إلي النخل، الحالمين بلحظة لذيذة نقضم فيها البلحة كما تقضم قطعة لحم شهية طبخت ببراعة وإتقان لاسيما في الأعراس الكبيرة التي يستدعي إليها الطباخ المشهور بشبيش الذي عرفه الناس جميعا بأطباقه المميزة وأكلاته الشهية، والذي لم نجد له بعد ذلك مثيلا.

ها هو الرطب يطل علينا من أعالي النخيل، وقد بدا لنا أنه صار أقرب إلينا من حبل الوريد.سوف نقذفه بالطوب فيساقط علينا، وقد نعثر عليه مشرذما متناثرا تحت النخلات، ولكننا لم نكد نخلص إلي ما نحن فيه حتى هبت علينا عاصفة هوجاء يمكن أن تقتلع الأخضر واليابس. لقد ظهر لنا بكر بشحمه ولحمه مثل عفريت من الجن انشقت عنه الأرض فجأة، طويل القامة، مرفوع الهامة، ممسكا بعصا غليظة يطوحها ذات اليمين وذات الشمال، لكنه هادئ رزين، لا يحس بأي تهديد، ولا يدخل في روعه أن نخله يمكن أن يكون هدفا لأي سطو من جانب الآخرين. إنه وحده ملك هذا المكان، المتحكم فيه ببأسه وقوته، فمن يجرؤ علي الاقتحام؟ أو يفكر في أن يرشق النخيل بوابل من السهام؟ وما بالك إذا كانت هذه السهام مجرد حصوات منتقاة بشكل جيد يقذفها أطفال فتصل إلي سباطة البلح لكي تقتنص منها بلحة أو بلحتين.كلانا فقط مسعود وأنا كنا مؤهلين لأن تنقض علينا العاصفة فتطيح بكل الأحلام التي غزلناها حلما حلما، وتؤدي بنا إلي أن نعود القهقرى، ونترك بكراً ونخله في أمان وسلام.

لم يخبر أحد منا أهله عن الفشل الذي منينا به في هذه الساعة المبكرة من الصباح، ولم نقل لهم إن بكر يزود عن نخلاته مثلما يزود الأسد عن عرينه، وأن هذه النخلات ملك لبكر وحده،يتحكم فيها كما يشاء، ويحرسها بالليل وبالنهار تحسبا لأي مغامر ، حتى ولو كان طفلا، تسول له نفسه الاقتراب منها أو الاعتداء عليها.

سنية الجحشة

من المؤكد أن أمي هيَ التي رسَّخت في ذهني صورة سنية الجحشة بحواديتها الكثيرة وحكاياتها. ومن بين هذه الحكايات أن الصبايا كن يخترن لحظة محددة من الليل يكون فيها القمر ساطعا فيحملن جرارهن ويذهبن إلي البحر، هكذا كان يسمي، وهي الترعة الكبيرة المتفرعة من ترعة القاصد والممتدة بطول محافظة الغربية في اتجاه دسوق وكفر الشيخ. وكانت هذه الترعة المسماة «البحر» تغذي كل الترع الصغيرة، وبالتالي فإنها كانت في نظر أهل القرية أفضل الترع بالنسبة لمياه الشرب. توجه الصبايا إذن نحو البحر والجرار تزين رءوسهن وتمنحهن إحساسا بالقوة والعنفوان، وما إن اقتربن من البحر حتى وصلت إليهن أصوات لطم وعويل وصياح وغير ذلك مما يحدث في المآتم. وسمعن صوتا عاليا كأنه صوت نائحة أو صوت جنائزي يقول:-

يا اللي غاوياك القمرة

روحي لخالتك نمرة

قولي لها مخيمر بن اختك مات

لم يشك الصبايا في أن هذه جنازة عفريت يتم تشييعه علي شاطئ البحر في هذه الليلة المقمرة، وأن العفاريت يمكن أن تترك الجنازة وتتوجه نحوهن، ومن ثم أخذن يتقهقرن في خطي محسوبة جدا حتى أدركن أنهن صرن علي مسافة بعيدة نسبيا عن البحر، فتحولن بوجوههن نحو القرية وبدأن طريق العودة في خطي واسعة حتى وصلت كل منهن إلي بيتها دون أن تنجح في ملء جرتها.

هذه الحكاية جعلتني أنتبه جدا وأتحمس كثيرا عندما سمعنا أن الحكومة بعد أن أنشأت أول صهريج للمياه في القرية ومدت مواسير نقل

المياه العذبة تحت الأرض سوف تقيم في منطقتنا القريبة من الصهريج أول قاعدة خرسانية تركب فيها أربع حنفيات، وأن سنية الجحشة سوف تكون هي المشرفة علي هذه القاعدة الواقعة علي حافة الترعة الصغيرة حتى يتم تصريف فاقد المياه فيها.

انتظرنا نحن الأطفال المشغولين بكل جديد يتم استحداثه في القرية اليوم الذي سوف تقام فيه القاعدة المذكورة. وكان من عادة أهل القرية الصحو مبكرين، ولذلك توقعنا أن يشتغل العمال في وقت مبكر فصحونا مبكرين وقطعنا الطريق إلي المكان المحدد. كانت المفاجأة أن أطفالا كثيرين تجمعوا ليشاهدوا هذا الحدث، ولا أدري لماذا أثار هذا التجمع غضب سنية الجحشة، فنهرتنا قائلة: «ماذا تفعلون هنا. لماذا لا يذهب كل منكم إلي بيته»، وفي مثل هذه المواقف لا مانع من أن نتلقى بعض الشتائم، لكننا لا ننفعل، لأننا في القرية متعودون علي هذا، ومتعودون علي أن نجري في حالة ما إذا تطورت الشتائم إلي تلويح بالعصي، أو قذف بالطوب. لكن، والحق يقال، لم تصل سنية الجحشة إلي هذه الدرجة، وإنما كانت فقط تنهرنا بكلمات تقع في المابين: فلا هي كلمات هينة لينة، ولا هي شتائم قوية، ولهذا كنا نتزحزح إلي الوراء قليلا ثم نعود أدراجنا، وظل الحال كذلك إلي أن انتهي العمال من إقامة القاعدة الخرسانية التي سوف تحمل المياه العذبة المنقاة إلي أهل القرية بدلا من مياه الترع التي كان يتم تنقيتها بطرق بدائية، فتوضع في أزيار، وهذا في بيوت الطبقة المتوسطة، أو تظل في الجرار ويملأ منها بالكوز.

كانت سنية الجحشة امرأة قصيرة القامة، مدكوكة القوام، سمراء البشرة وإن لم تكن سمرة فاقعة، ترتدي جلابية طويلة، وتعصب رأسها بمنديل ملون تضع عليه طرحة سمراء طويلة كعادة نساء أهل القرية. أما لقب الجحشة فقد كان منقولا عن زوجها المسمي «عطية الجحش». وكان

عمله باليومية في أراضي الفلاحين، وبالطبع فإن دخله لم يكن يكفي إعالة أسرة كاملة، ولهذا كانت زوجه سنية الجحشة تمتهن مهنا أخرى. ومن المؤكد أن اختيارها مشرفة علي القاعدة الخرسانية لمياه الشرب الجديدة سوف يوفر لها دخلا معقولا.

كانت هذه القاعدة الخرسانية مجالا جديدا تبدي فيه الفتاة أنوثتها وجمالها وقوتها واستعدادها لمشاركة زوج المستقبل في العمل والكفاح من أجل حياة أفضل. فكل فتاة تتفنن في طريقة حمل الجرة علي رأسها، والبارعة منهن من تحملها مائلة وخاصة بعد ملئها، وهذا الميل يتم بطريقة تحفظ الماء وتمنع الجرة من السقوط. ولا شك فى أن فتيان القرية كانوا يجلسون علي النواصي ويشاهدون الفتيات اللاتي يحملن الجرار فلعل واحدة منهن تكون من نصيب أي منهم. لا أدري لماذا كنا نحن الأطفال حريصين على كلفين مشاهدة هذا المنظر؟، وربما لم نكن نحن فقط فالفنانون، كما شاهدنا لوحاتهم بعد ذلك ، كانوا حريصين علي رسم هذا المنظر الجميل.

وفي يوم من أيام الشتاء الباردة، والمطر ينزل بغزارة ويحول شوارع القرية إلي وحل تغوص معه أرجل المارة في الأرض، شاهدت سنية الجحشة متوجهة نحو دارنا، وهي تنقل خطاها المتعثرة بصعوبة بالغة، لكن من الواضح أنها كانت مصرة علي الوصول إلينا. دخلت وسألت عن الوالد الذي استقبلها بترحاب شديد مما يدل علي أنه كانت هناك صلة قرابة بعيدة وربما مودة تجعله يتعامل معها بهذه الطريقة، أو لعلها كانت عادة معروفة عنه، إذ كان الناس يقصدونه كثيرا لحل مشاكلهم أو أخذ رأيه في أمر يحزبهم. سألها:

- ما الذي أتي بك يا سنية في هذه الساعة الممطرة؟

- عطية، يبدو أنه أصابته حالة من الجنون، والتعصب الشديد لرأيه

وفرضه بالقوة، لدرجة أنه يطلب مني أن أترك القاعدة الخرسانية وأجلس بالبيت.

- وماذا فعلت معه؟

- حضر كثيرون لإثنائه عن رأيه، ولكنه شديد الإصرار، ولا يتراجع أبدا علي الرغم من أنه يعرف أننا في أمس الحاجة إلي هذا المبلغ الذي أحصل عليه من هذا العمل.

- اذهبي الآن وسوف أحضر إليكم غدا وإن شاء الله نصل معه إلي حل.

كان عطية الجحش معروفا بالشدة ونشوفية الدماغ والتمسك برأيه حتى ولو كان مخطئا، لكنه لا يعترف أبدا بخطئه، ولا يتصور أن أحداً يمكن أن يفهم أكثر منه، ولهذا كانت مهمة إثنائه عن رأي أو فكرة عششت في مخه مسألة في غاية الصعوبة. وعلي الرغم من هذا الاستمساك بالرأي فإنه كان قليل الحيلة، يكسب قوت يومه بصعوبة بالغة، ولا يقدر علي إعالة أسرة مكونة من عدد من الأفراد. أما ملامح وجهه فكانت تنم بصورة قاطعة عن طريقة تفكيره. وأذكر في هذا الشأن أني لم أره أبداً يضحك أو يبتسم. إنه يتصور أن الرجولة هي أن يكون هكذا جامد الملامح، جاد المظهر، بادي القسوة، إذا عنَّف زوجه كان تعنيفه شديدا قاسيا، وإذا نظر إلي أبنائه كانت نظرته نوعا من الإنذار الذي يمكن أن يتحول إلي عاصفة مدمرة. ومع ذلك كانت سنية الجحشة تستطيع أن تتعامل معه، وتهدئ خاطره، وتجعله في حالة راحة واسترخاء، لكنه عندما تتلبسه العاصفة يتحول إلي شخص آخر فيه شراسة، ويتمسك بالرأي، وإصرار علي أن يكون رأيه هو النافذ والمسموع حتى ولو كان فيه خسارة للأسرة الصغيرة التي يعولها.

سألت والدي: ماذا ستفعل مع سنية الجحشة غدا؟ فرد علي بأنه سوف يحاول معه إثناءه عن رأيه بشتى الطرق، ولكنه غير واثق من النجاح في

هذا، لأن الجحش عندما يضيق عليه الخناق يمكن أن يترك الجلسة والجالسين ويذهب للمبيت في مكان آخر، عند أخيه، أو عند أي شخص يمت إليه بصلة. بل إنه يمكن أن ينطق بألفاظ خارجة ويفتعل بعض الحركات التي يري أنها قد تكون في صالحه، ثم إنه ذات مرة تجرأ وأمسك بخناق شاب ذهب يصلح بين زوجته وبينه، وما ذلك إلا لأن شخصيته تنطوي علي جُبن من نوع ما، فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك مع شخص كبير في السن أو شخص يمكن أن يوجه إليه لكمة في وجهه أو شخص من علية القوم ووجهاء القرية.

المرأة الحديدية

لم أسمع بمسمي «المرأة الحديدية» إلا بعد أن كبرت، لكني ما إن عرفته حتى أطلقته علي والدتي، التي كانت -في نظري - امرأة حديدية من كل الوجوه: فعلي الرغم من أنها كانت أمية، لم تدخل مدرسة، ولم تعرف القراءة والكتابة إلا أنها كانت مثقفة ثقافة فطرية لا تتوافر الآن فيمن يجلسن صباح مساء أمام هذا الجهاز الغبى - هكذا يصفونه فى بعض دول أوروبا - المسمي التليفزيون. حكت لى أنها كانت حريصة على حضور الأمسيات الاحتفالية التي كانت تقام في القرى ويحييها منشدون شعبيون يطلقون عليهم اسم «المداحين». كانت والدتي تحفظ قصائد كثيرة وتترنم بها أمامي في الليالي التي يجمعنا فيها سمر الحكاوى والحواديت. وقد ندمت كثيرا لأني لم أسجل هذه القصائد -أو حتى الحكايات والحواديت - بعد أن كبرت، وقد ظلت تحفظها عن ظهر قلب حتى وفاتها فى سن الثانية والتسعين. وبالتالي فليس لدي إلا بعض أبيات حفظتها منها وبقيت عالقة بذاكرتي، من بينها قول المداح: ولا تاخد الرعنا ولا بنت الدنية .. فى الغلا يا حبيبي تبيع عيالها.

وقوله: ولا كل من لبس العمامة يزينها.. ولا كل من ركب الحصان خيال.

وكانت والدتي عندما تنتهي من تلاوة القصيدة تتوجه إليَّ بوجهها الذي يحمل علامات الدهشة والتعجب والانبهار قائلة: إن المداح كانت لديه شفافية عجيبة وقدرة علي التنبؤ. فقد حدث ذات ليلة أن جاء المداح في آخر السهرة وأخذ يردد بصوت حزين هذه العبارة: «وقع الولد يا ميت عباد الله» (يقصد: يا مئات العباد). وبالفعل علم الناس ليلتها أن رصاصات غادرة انطلقت من بندقية لتقتل أحد شباب القرية الواعدين.

كان القتل في قريتنا يتم بصورة اعتيادية: فاللصوص وقطاع الطريق

موجودون بكثرة، وهناك من يتم تأجيرهم للقتل مقابل مبلغ محدد وهؤلاء لديهم براعة لا مثيل لها في القنص واصطياد الضحية، حتى ولو كان ذلك من مسافة بعيدة -فالرزق يأتي من طرق شتي حتى ولو كان هناك خروج علي الدين والشرعية والقانون. وربما يكون هذا بسبب التفاوت الطبقي الرهيب والمظالم الصارخة التي عاني منها المصريون علي امتداد تاريخهم.

وليل القرية الذي كان يشهد أحداثا كثيرة علي الرغم من الظلام الدامس كان بالنسبة لي فرصة لسماع الحواديت والقصص. فوالدتي كانت تنتهي من أشغالها اليومية الشاقة مع دخول الليل، فإذا كنا في فصول الصيف والربيع والخريف تأهبنا للمبيت في «المندرة»، وهي غرفة واسعة مفروشة بالحصائر، ويمكن أن تستخدم لاستقبال الضيوف، لكن الضيوف في العادة لا يأتون بعد المغرب، وإذا كنا في الشتاء دخلنا للمبيت في «القاعة» وهي غرفة واسعة أيضا لكن بها فرنا يستخدم للخبز وللتدفئة في آن. تفرش عليه حصيرة وتنام الأسرة كلها في جو دافئ قد لا يحتاج إلي غطاء في عز فترة البرد. ندخل المندرة أو القاعة ولا ننام إلا بعد وصول الوالد من الجامع عندما ينتهي من صلاة العشاء أو ما يسمونها هنا «العتمة» بسبب الظلام المنتشر في كل أنحاء القرية. ولم تكن المصابيح في فترة الخمسينيات قد دخلت بعد، أما الكهرباء فلم تدخل إلا في منتصف السبعينيات.

كنت أنتهز الفترة ما بين المغرب والعشاء وأطلب من الوالدة أن تحكي لي حدوته، فأحيانا أختار الشاطر حسن، أو بائع الزيت، أو الخشخشبان، أو غيرها، وأحيانا أختار قصة تبدو وكأنها واقعية. وكانت والدتي تحفظ هذه الحواديت عن ظهر قلب، وتحكيها في سلاسة، واقتدار، ومعرفة بكل عناصر المتعة والتشويق. وهي تبدأ عادة بالجملة المشهورة: «صلي علي النبي»، فأرد: عليه الصلاة والسلام، تضيف: زيد النبي صلاة، فأقول: ألف صلاة عليك يا نبي. وإذا كنت الآن قد نسيت معظم هذه الحواديت فإنني مازلت

أذكر قصة «الخششبان»، وإن كنت لا أحفظها بنصها، بل أذكر مضمونها فقط وهو أن أمنا الغولة قامت إحدى فتيات القرية بقتل ابنتها العمياء، فقررت أن تنتقم لها من هذه الفتاة، ولما علمت الفتاة بنية الغولة الانتقام قررت أن تتحول إلي خششبان، أي شخص يركب له هيكل خشبي فيصيرا عجوزا يجلس في ركن ما ويمد يده لتلقي الصدقات من المارة. وكانت الغولة أثناء بحثها عن قاتلة! بنتها تمر عليه وتسأله : يا خششبان، ما فاتش عليك عروسة منقوشة بالحنّة والبهرجان؟ فيرد عليها: أعمي ما بشوف يا سيدي أطرش ما بسمع، فتتركه ثم تعاود المرور عليه مرة أخرى ، وتلقي عليه بنفس السؤال ويرد عليها بنفس الرد. وقد ظل الخششبان يتدحرج حتى وصل إلي قصر ابن السلطان، واحتال في دخوله، واختار لنفسه مكانا متميزا علي شاطئ البحيرة التي تعج بكل أصناف الطيور. وفي فترة الظهيرة واشتداد الحرارة كان الخششبان يخلع هيكله الخشبي، وينزل البحيرة للاستحمام ويري الأوز والبط جسداً بضا، رشيقا، جميل القسمات، ناصع البياض فتنطلق الحناجر بالزعيق وإبداء الإعجاب قائلة إن هذا الجسد الجميل لا يصلح إلا لابن السلطان، فيرد الخششبان : اخرسي، ضربة في دماغك ودماغ ابن السلطان، ثم يأتي إلي الوزة أو البطة فينحرها ثم يشويها ويأكلها. وذات يوم نظر ابن السلطان من شرفة القصر فوقع بصره علي هذا المنظر الجميل فقرر أن يستدعي الخششبان، فذهب إليه بهيكله الخشبي، لكن ابن السلطان لم تنطل عليه هذه الحيلة وأمر الخششبان أن يخلع هذا الهيكل المصنوع، فظهرت الفتاة في قمة جمالها ورشاقتها وبهائها. فقرر ابن السلطان أن يتزوجها، لكنها اشتكت إليه من أنها مهددة من جانب الغولة، وهنا أمر ابن السلطان بالبحث عن الغولة في كل مكان، وعندما أحضرت إليه أمر بضرب عنقها. وتختم الوالدة الحدوتة بقولها: «وهكذا عاش الاثنان في تبات ونبات وخلفوا أولاد وبنات».

لم تكن كل الليالي حكايات وحواديت، وإنما كانت هناك ليال تدهمني فيها الحمى لسبب لا يعرفه أحد، حيث أن العرض علي الطبيب لم يكن عادة معروفة لدي أهل القرية، فقد كانوا يكتفون بالقول «الشفاء من الله»، وكانت والدتي في مثل هذه الحالة تستقدم صديقي الولد مسعود وتطلب منه أن يذهب إلي محل البقال ويشتري زجاجة كوكا كولا واحدة، يضعونها أمامي، بينما تبدأ الوالدة في ممارسة طقوسها المتبعة، والتي تبدأ بقياس الرأس بواسطة مفتاح الدار، وكان مفتاحا كبيرا، ومنديل كبير أو طرحة سوداء تعقدها بحيث تدخل في الرأس وتضع المفتاح في وسطها وتظل تشدها حتى تعرف مقدار الانفتاح في الرأس بسبب الحمى أو البرد، ثم تضيق الخناق علي الرأس من كل الجوانب حتى تعيد الرأس إلي سابق حجمها الطبيعي، وأثناء ذلك يعلو صوتها وكأنها تخاطب نفسها : «يا باى علي عينهم «أي» وقانا الله من شر عيونهم»، ثم تبدأ في تلاوة النشيد الذي تحفظه جيداً لمثل هذه الملمات، ونصه ما يلي : «حنة وبنّة وقرصين جلة/ يمنع عنك عن خلق الله/ يا هادي كل هدية/ يا شافي كل شفية/ يا مانع عنك الألطاف الخفية/ يكفيك شر فاطمة بنت صفية/ وهي راكبة علي المحمل/ تنبح نباح الكلاب/ تعوى عواء الذئاب/ فيما قلت يا عين انباس انباس/ ما فيك منافع للناس/ حنة و بنة وقرصين جلة/ يمنع عنك عن خلق الله». بعد ذلك تطلب الوالدة من الولد مسعود أن يملأ كوبا بالماء إلي منتصفه، ويضع فيه قليلا من الملح، وبعد ذوبان الملح ترش الماء علي رأسي وجسدي وهي تتمتم : يكفيك شر إل شافوك ونضروك ولا صلوش علي النبي. ألف صلاة عليك يا نبي. ثم تطلب مني أن أنام، وسوف أنهض من النوم وقد أزال الله عني هذا المرض. أما الوالد فإنه بعد حضوره من الجامع يضع يده علي رأسي وكأنه يقيس الحرارة ويقول لي إن المسألة بسيطة، وما علي إلا أن أنام وأستغرق في النوم. وبالفعل كنت أصحو في

اليوم التالي سليما معافى فأذهب إلي الكتّاب أولا إلي أن يحين موعد المدرسة فأتوجه إليها في خفة ونشاط وكأني لم أكن بالأمس مريضا طريح الفراش.

ولم تكن المرأة الحديدية بارعة في مجال معالجة المرض فقط، وإنما كانت تتميز بالجرأة الشديدة والمغامرة التي قد تكون عصية علي الرجال بمن فيهم والدي نفسه. فذات ليلة وجدتها تصحو في منتصف الليل تقريبا أي بعد حوالي أربع ساعات من بداية النوم، وكنا في فصل الشتاء. وقد حدث أنها أثناء النهار وجدت الترعة فائضة بالمياه ففتحت الأرض كي تسقي بالراحة، أي بدون الطمبور أو الساقية، ويبدو أنها بعد أن نامت لعب الفأر في عبها فخافت أن يزيد تدفق المياه فيؤدي إلي غرق أراضي الجيران التي لم تكن تحتاج إلي سقي. فصحت ليلا وأرادت أن تطمئن، ولما أحسست بها صحوت أنا أيضا من نومي وطلبت منها أن أذهب معها. ركبنا الحمار وسرنا في طريقنا، والليل شديد الظلمة لأنه لم يكن من الليالي القمرية، والأراضي مزروعة بالذرة وهو نبات طويل يزيد الظلمة إظلاما. خرجنا من المنطقة السكنية ودخلنا في الطريق الضيق المؤدي إلي حقول الذرة. أحسست بالخوف الشديد، وكنت أنظر إلي الوالدة فأجدها تمضي غير عابئة بشيء حتى وصلنا تقريبا إلي منتصف الطريق بين بيتنا وأرضنا في منطقة تتشعب فيها الطرق الضيقة، ونبات الذرة علي كل الجوانب يصفر صفيرا متقطعا لكن فيه حدة تتقاطع مع الصمت الرهيب وظلام الليل المخيم علي كل الأجواء. وفجأة وجدنا الحمار يتقهقر بشدة وكأنه رأي شيئا مرعبا. قالت أمي: هذا مكان تكثر فيه العفاريت، وأضافت: كان جدي الحاج سعد يقول هذا ويحذرنا من المرور ليلا في هذا المكان. ومع أنها كانت تقول ذلك إلا أني لم أجدها خائفة، أو مرعوبة، بل إنها كانت مصرة علي الوصول إلي الأرض لتطمئن عليها وتسد الفتحة إن رأت أن الأرض قد ارتوت. كانت

تصر علي التقدم إلي الأمام، والحمار يصر علي التراجع إلي الخلف. ولما رأت الوالدة أن تقدم الحمار صار مستحيلا قررت العودة فعدنا وسط الظلام الدامس. وبما أني لم ألاحظ عليها أي إحساس بالخوف فقد تشجعت أنا أيضا، ورجعنا إلي دارنا وكأننا كنا في نزهة ليلية ووجدنا والدي وأخي يغطان في نوم عميق. كان والدي عنده شغله الذي يأخذ منه يومه كاملا، ثم يعود إلي البيت بعد صلاة المغرب والعشاء في المسجد، ثم ينام فورا كي يصحو مبكرا ليصلي الفجر في المسجد. وكانت له هو الآخر صولات وجولات في هذا المجال. فقد يصل إلي المسجد قبل موعد الفجر بفترة طويلة فيجلس وحده، وكما كان يحكي فإنه كان يتعرض لمضايقات كثيرة من جانب العفاريت التي كانت تفتعل الضجة والضجيج في دورة المياه وفي صحن المسجد حتى تخيف هذا الجالس وحده وتلقي الرعب في قلبه، لكنه لم يكن يخاف. كان يري أنه يمكن أن ينتصر علي العفاريت بقراءة القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، وكان يظل علي هذا الحال حتى يصل إلي المسجد شخص آخر فتختفي العفاريت ولا تعاود الظهور مرة أخرى إلا في الليلة التالية عندما يصل والدي كعادته في ساعة الناس فيها كلهم نيام.

المدرسة المشتركة

بعد أن أقامت ثورة يوليه ١٩٥٢ الوحدات المجمعة في القرى أصبح لدينا مدرستان ابتدائيتان: مدرسة الوحدة المجمعة في أطراف القرية والمدرسة القديمة أو المشتركة الموجودة من قبل، وكان مقرها فيلا قديمة أو دواراً يقع في وسط القرية يبدو أن أصحابه أو ورثته أجروه للحكومة كي يكون مدرسة ابتدائية. اختار لي والدي هذه المدرسة المشتركة. وفي بداية أحد الأعوام الدراسية اتفق والدي مع والد الولد مسعود الذي كان معي في نفس الفصل أن نتوجه إلي طنطا ذات صباح لشراء الملابس والأدوات المدرسية. المسافة بين قريتنا وطنطا حوالي عشرة كيلو مترات، وكانت العادة الشائعة أن نذهب إلي المدينة علي ظهور الحمير. أعد والدي حمارنا لهذه المهمة بوضع البردعة النظيفة المحفوظة لمثل هذه المشاوير، وفعل كذلك والد مسعود. صحونا في وقت مبكر وتوجهنا نحن الأربعة إلي المدينة. وبالطبع أخذنا الطريق الذي يوصف بأنه «خرَّامي»، بتشديد الراء، أي مختصر، فمررنا بعزبة الخضري ثم عزبة صالح، ثم العزبة القريبة من قرية سبرباي حيث ننتقل منها مباشرة إلي الطريق الزراعي المسفلت، ونصير قريبين من قرية قحافة، وهي مدخلنا إلي مدينة طنطا. نخترق قرية قحافة حتى نصل إلي بداية شارع سعيد، ونفاجأ بأننا انتقلنا إلي عالم أخر شديد النظافة، يختلف اختلافا جوهريا عن عالم القرية. فالعمائر علي الجانبين مرصوصة بشكل هندسي منظم، تطل من شرفاتها أصص الزرع، والأرصفة نظيفة ومرتبة ترتيبا هندسيا، تزيدها بهجة وجمالا أشجار الأكاسيا المزروعة علي الجانبين، تطل منها زهورها الصفراء الكثيفة. والناس يمضون علي الأرصفة في أعداد قليلة، والسيارات تسير في وسط الطريق وكأنها في نزهة ترفيهية لقلة أعدادها ولخلو الطريق من المطبات والعثرات والزحام

الذي نعاني منه في هذه الأيام. أما أكياس القمامة فلا وجود لها. وعلي الرغم من وجود الحناطير والعربات التي تجرها الخيول، والحمير التي يركبها أمثالنا القادمون من الريف فإنك لا تحس أن هناك خللا أو تعثرا أو معاناة. فالكل ماضون في طريقهم في انسجام ووئام وهدوء واطمئنان.

وصلنا إلي وكالة شارع السباعي التي تركنا فيها الحمارين، وقال والدي لصاحب الوكالة: خد بالك من الحمارين حتى لا يحدث لهما مثلما حدث المرة السابقة. ومعروف أن الحمير كانت تترك في الوكالة بدون أكل، وبالتالي كان لابد أن تنشغل بالصراع فيما بينها، وقد يؤدي هذا الصراع إلي إصابة الحمار بجروح تحتاج إلي عدة أيام كي تلتئم، ومن هنا تكون العودة، في بعض الأحيان، صعبة.لم تكن الوكالة تبعد كثيرا عن منطقة السيد البدوي، وهي المنطقة التجارية بامتياز. ذهبنا إليها واشترينا الملابس المدرسية والأدوات المطلوبة، وقال والدي: يمكننا الآن أن نتناول طعام الغداء في مطعم أبو نواية المتخصص في تقديم وجبات الفول والطعمية. وبعد الغداء عدنا أدراجنا إلي القرية. كان أكثر ما أعجبني وشد انتباهي في هذه الرحلة ما حدث ونحن نشتري الحذاءين. فقد وجدت البائع، في سوق الكانتو وهو سوق الأحذية القديمة، يعامل والدي وكذلك والد مسعود باحترام شديد، فقد طلب لهما الشاي من القهوة المجاورة،وطلب لكل منا زجاجة بيبسي ، وأرانا أصنافا من الأحذية اخترت منها زوجين أعجباني كثيرا لدرجة أني عندما عدنا إلي بيتنا وضعت الحذاء في مكان عال بالقرب من النافذة، وكنت من وقت لآخر أفتح العلبة الموضوع بها وأنظر إليه وأتأمله وكأني حائز علي كنز ثمين.

كنت أنتظر بفارغ الصبر أن يطلع صباح اليوم الدراسي الأول، وربما كانت هناك أسباب كثيرة تجعلني أشتاق لهذا اليوم، من بينها ارتداء البزة الجديدة الأنيقة المكونة من قميص وبنطلون رماديين، إضافة إلي الحذاء

الجديد والشراب، هذا التغيير يجعلني أتأمل نفسي في المرآة التي لم تكن معلقة في الحائط، بل هي مرآة متوسطة الحجم تضعها الوالدة في مكان مرتفع أو تعلقها في مسمار وبجوارها مشط صغير نسوى به شعرنا .وهناك سبب آخر أهم وهو أن المدرسة مشتركة، وأنا شخصيا، علي الرغم من صغر سني، كنت متعلقا بالبنات، أحلم بهن في اليقظة وفي المنام، وأتمنى لو أن إحداهن وثقت علاقتها بي، أو حلمت بي علي النحو الذي كان يحدث معي، ويا حبذا لو كانت إحدى بنتي أستاذنا الذي يدرس لنا مادة اللغة العربية، والذي وجدني ذات يوم أتيه صلفا علي باقي الزملاء فأراد أن يضع أنفي في التراب، فقال لي متحديا: اقرأ هذه الجملة، وكتبها علي السبورة، وهي: «فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم» فتعثرت في قراءة الكلمة الأولي، وهنا تأكد له أنه قضي تماما علي نزعة الغرور التي بدأت تظهر عندي.

كان هناك سبب آخر يجعلني أتوق إلي المدرسة توقا ،وهو أن الولد جلال المعروف بشقاوته وعفرتته كان ينتهز أي فرصة يغيب فيها أستاذ الحصة، وكانت هذه الغيبة تمتد لساعة أو أكثر، فينهض وينطلق من مقعده نحو السبورة قائلا: «هيا بنا نقيم التمثيلية». وكانت هذه التمثيلية العجيبة تقوم علي أن يتجمع الصبيان في المنطقة الواقعة بين السبورة والصف الأول من المقاعد، ويفك كل منهم بنطاله، وينزل سرواله، ويمسك بعضوه الذكري النائم وكأنه يمسك سيفا علي النحو الذي يحدث في الموالد، ويدور الصبيان بين المقاعد يقودهم الولد جلال الذي يفعل مثلما يفعل الشيخ محمود الدق. وفي هذه اللحظة يخفي البنات عيونهن براحات أيديهن أو يختفين خلف المقاعد، ولا أدري لماذا كنت أثناء ذلك أسترق النظر إلي البنت المسماة «علوم» فأجدها تنظر بنصف عين، وكأنها تود ألا يفوتها هذا المنظر العجيب.وكان الولد جلال أثناء التمثيلية يحتاط لنا ولنفسه فيأمر أحدنا بأن يقف في الشباك يراقب الطريق، فإذا رأي أحد المدرسين قادما نحونا أخبرنا فورا

حتى يعود كل منا إلي مكانه كأن لم يحدث شيء علي الإطلاق. ومن العجيب أن البنات لم يخبرن أحداً بما يحدث أثناء غياب المدرس أو المدرِّسة، بل لم يتفوهن بكلمة. فهل كانت البنات أيضا ينتظرن هذه اللحظة؟ أغلب الظن أن الأمر كان كذلك، وإلا لتعطلت هذه التمثيلية التي استمرت طوال المرحلة الابتدائية. ولعلنا نحن الصبيان لم نخبر أحداً بها حتى لا يقوم بإبلاغ الناظر أو أحد المدرسين ويوقف هذه التمثيلية التي كنا نطلق عليها أيضا مسمي «مسرحية». أما الولد جلال فقد ظلت صورته منطبعة في ذهني إلي الآن ، ولا أظن أني سوف أنساه، فالصور المطبوعة في الذهن لا تضيع أبدا حتى ولو وسِّدَ صاحبها في التراب، أو تغيرت الأزمان بتعاقب الليل والنهار.

وفي أحد الأيام ونحن في الفصل نتلقى درسا في الحساب جاءني استدعاء من الناظر. لم يخطر في ذهني أن الناظر يستدعيني من أجل التمثيلية، فأنا أعرف أن لنا أعواما نؤدي هذه التمثيلية ولم يُستدع أي واحد منا قلت في نفسي ربما يريد أن يكافئني لأن ترتيبي دائما الأول علي الفصل، وتوقعت أن أحصل منه علي جائزة محترمة، أو لعله يريد أن يكافئني علي شيء آخر وهو أني كنت أول من تعلم عزف النشيد الوطني الذي دربونا عليه في هذا الصباح. نزلت الدرج المؤدي من فصلنا إلي أرض الملعب، ووصلت إلي الدرج الآخر في المبني الأساسي الذي يوجد به مكتب الناظر. وصلت إلي المكتب وكانت المفاجأة أني وجدت والدي بصحبة الناظر. لم أعرف من قبل أن بينهما صلة. وإن كنت قد عرفت فيما بعد أن الصلة بينهما وثيقة منذ فترة طويلة. فوالدي يعمل كاتبا في ماكينة الطحين الواقعة في مدخل القرية، والناظر يسكن في طنطا ويركب إليها من الموقف الكائن هناك، وقد تعود أن يمر علي والدي عند الذهاب أو العودة، ويطلب منه أن يحضر له بعض الطلبات مثل البط والأوز والفراخ البلدي، ولا مانع من البتاو وهو خبز رقيق معمول بالسمن البلدي، والفطير وغير ذلك مما يجود

به أهل القرية. وكان والدي يقدم إلي الناظر هذه الخدمات -وبعضها مدفوع -من أجل أن يهتم بي ويوصي بي مدرسيه في المدرسة.

كان الناظر، واسمه الأستاذ عزب، طويل القامة، غزير الشعر، أشقر البشرة، وكان فيه شبه كبير من والدي الذي كان هو الأخر طويل القامة، تميل شقرته إلي الاحمرار لدرجة أنه لم يكن في بلدنا إلا اثنان فقط بهذا اللون ثانيهما الرجل المسمي إسماعيل الأحمر، هكذا لشدة حمرته تركوا لقبه الأصلي ولقبوه بالأحمر.

خاطبني الناظر عزب قائلا: أبوك مهتم بك جدا فحاول أن تكون دائما عند حسن ظنه. ولا أدري لماذا جعلتني كلمة الناظر عزب أنسي المكان الذي أقف فيه أمام اثنين لهما علي تأثير لا يمكن الانفلات منه، وأغوص في ذاكرتي متمثلا كلمات أبي: «لقد وضعت كل أملي فيك، فكن أهلا لذلك». كان أبي واحداً من أوائل أبناء القرية الذين حفظوا القرآن الكريم ثم التحقوا بالأزهر، لكنه قضي سنة واحدة في المعهد الأحمدي بطنطا ثم ترك الدراسة وعاد إلي القرية. ووفقا لروايته بنفسه فإنه اتخذ هذا الموقف بسبب خوفه من الفئران، ويبدو أن الشقة أو الحجرة التي سكنوا فيها في طنطا كانت مليئة بالفئران، وكان هو مصابا بما يمكن أن نسميه «فوبيا الفئران». لم أصدق هذا التبرير أبدا، وإن كنت قد اختزنته في الذاكرة وتصرفت في مرات كثيرة علي أساسه. ومن ذلك أني ذات يوم ذهبت بصحبة أخي الأصغر سمعان والولد مسعود إلي أرضنا في حقل «الدواخل» فوجدت أعداداً كبيرة من الفئران تختفي في كوم السباخ الموجود علي رأس الأرض، وتنطلق منه نحو أعواد الذرة فتقطعها من الأسفل أو من المنتصف، ولو استمر الحال كذلك فسوف تقضي تماما علي محصول الذرة. قررت في الحال أن أقضي علي هذه الفئران فوضعت خطة جهنمية نتعاون فيها نحن الثلاثة، مسعود وأنا وأخي سمعان ونقضي قضاء تاما علي الفئران. وقد

نجحت الخطة نجاحا باهرا لأننا كنا نحفر في الكوم فإذا خرج الفأر أوسعناه ضربا حتى يموت.

وفي ختام هذا الفصل أود أن أصارح القارئ بشيء لم أستطع كتمانه في نفسي، وهو أني على الرغم من تفوقي الدراسي كنت مهموما بأمر شغلني على مدي عام دراسي كامل. فقد حدث أن استقبلت المدرسة مدرس علوم اسمه عاصم ومدرسة تربية رياضية اسمها عايدة. وكنت أري الاثنين أثناء طابور الصباح الذي يستمر لما يقرب من ثلث الساعة يتبادلان الإشارات الخفية باليد، وأخري عبر ملامح الوجه التي تتغير وتتبدل وكأنهما في حالة إرسال واستقبال. وقد بلغت مني الشقاوة حدا أني فكرت ذات مرة أن أفاجئ كلا منهما في حالة تلبس. فهل كنت مغتاظا من أنهما يستطيعان تبادل الإشارات والابتسامات والتلميحات وأنا لا أستطيع؟ وهل قام تلميذ آخر أو تلميذة باكتشاف هذا المشهد مثلما اكتشفته؟ أم أنني لطول تفكيري في هذه الأشياء كنت حريصا علي أن أتحول إلي مخبر يتلصص علي أمثال عاصم وعايدة؟. ولاشك فى أني بعد أن كبرت حاولت أن أقلد هذين العاشقين، لكن يبدو أني لم أكن مؤهلا لذلك. فقد كان مؤهلي الأكبر أساسه الملاحظة والتسجيل والتصنيف، أما الفعل فقد ظل بعيدا عن إمكانياتي مثل ابتعاد الكواكب عن بعضها البعض.

السيدة الجعرمة

عرفت السيدة الجعرمة (بضم الجيم والراء) لأول مرة وأنا ذاهب إلي بيت أبو الغيط. قطعت الطريق من بيتنا، الذي يقع في شارع واسع، وأمامه منطقة خلاء، حتى وصلت إلي مدخل الحارة الضيقة التي يقيم فيها أبو الغيط وزوجته. كانت الحارة تقع خلف شارعنا مباشرة، ودار أبو الغيط تقابل الشباك الخلفي لدارنا. وكان يمكن أن أطل علي أبو الغيط من هذا الشباك، بل وأتحدث معه ولكني كنت دائما أفضل الذهاب إليه. كان أبو الغيط، الذي لم يرزق بالولد، قد اشتراني من أبي وأمي عقب ولادتي بقرش صاغ واحد. وقبل والدي الصفقة لأن أبو الغيط كان رجلا مبروكا، بل كانوا يقولون عنه إنه ولي من أولياء الله الصالحين، ولأنه تعهد بأن يربيني ويرعاني. وبعد أن تفتح وعيي ارتبطت به ارتباطا قويا وكأنه كان والدي الأصلي.

وصلت إلي مدخل الحارة فوجدت الظلام يطل من داخلها وكأننا في عز الليل، مع أننا في وسط النهار، فقد كانت الحارة ضيقة جدا، وأسطح بيوتها مملوءة بأعواد شجر القطن الجافة المتجمعة بعد الحصاد وقش الأرز، وكلاهما كان يستخدم وقودا في البيوت لاسيما في الأفران، إضافة إلي الجاز الذي يستخدم في الوابورات واللمبات من فئة خمسة أو عشرة شمعة. وكانت الحارة تضم خمسة بيوت فقط لخمس أسر، وهم في القرية يفضلون استخدام كلمة "الدار" بدلا من البيت، إحداها أسرة أبو الغيط، وبجواره السيدة الجعرمة التي قيل إنها بنت خالته، وكانت تسكن وحدها، وتقضي معظم نهارها في الجلوس أمام الدار أو تنتقل لتجلس عند مدخل الحارة.

في ذلك اليوم كانت السيدة الجعرمة جالسة أمام دارها، ورأتني أتقدم نحو دار أبو الغيط التي تقع بعدها، فكشرت عن أنيابها وأشارت نحوي

بيدها اليمني قائلة: "قرَّب"، وهي كلمة تعني في عرفنا نحن أهل القرية أنها مستاءة من ارتباطي بأبو الغيط، وكأنها تريد أن تقول ماذا ستأخذ من أبو الغيط ؟ فليس لديه إلا الفقر!. أبلغت أمي بما قالته السيدة الجعرمة فاغتاظت منها جدا ونصحتني بأن أعود أدراجي عندما أراها جالسة أمام دارها. قلت لها: ولكنها تجلس أيضا أمام الحارة !! فردت: إنها أمام الحارة تكون مشغولة بالناس وبالمارة وبالتالي لن تنتبه إليك.

كانت دار أبو الغيط لا تزيد مساحتها على ثلاثين مترا مربعا، مكونة من مدخل صغير وحجرة نوم وبيت راحة، هكذا يسمون دورة المياه. وجدت أبو الغيط وزوجته يتناولان الطعام في المدخل فأكلت معهما، ثم انطلقت معه في مهمته اليومية التي يكسب من خلالها قوت يومه. فهو يقدم للناس بعض الخدمات في مقابل قروش زهيدة تدفع له، وهو لا يقول لأحد إن الأجر قليل أو إنه يستحق أكثر من ذلك، وإنما يقبل أي شيء بنفس راضية حتى ولو كان مجرد كسرات من الخبز أو قرطاس من المخبوزات والقراقيش وغير ذلك. كان أبو الغيط من تلك الشخصيات التي تهيم في ملكوت الله، يلهج لسانه بالذكر، وتمتلئ نفسه بالرضا والقناعة وحب الناس والتفاني في خدمتهم. وكثيرا ما كنت أسمعه يقول: مدد يا سيد يا بدوي -مدد يا دسوقي -وكان لسانه ينطق كثيرا بكلمة تشير إلي ولي غير مشهور مدفون في منطقة البراري بكفر الشيخ اسمه أبو بكر. وقد قال الناس بعد موت أبو الغيط إنه ترك مدفنه في قريتنا وطار إلي أبي بكر يدفن بجواره.

كان أبو الغيط قوى البنيان، متوسط القامة، يميل إلي البدانة، كبير البطن، قمحي اللون، مفلفل الشعر، وكان لا يمل من السير في الطرقات وإلقاء السلام علي الجالسين علي النواصي، أو دخول البيوت وتوزيع بركاته علي من فيها من رجال وصبيان ونساء. أما في شهر رمضان فإنه كان يقوم بمهمة المسحراتي، ولديه طبلة كبيرة يركنها عادة في أحد الأركان

الضيقة في داره. أما زوجته هنية فكانت علي العكس منه تدل سحنتها علي الفقر المدقع الذي تعيش فيه. وأنا حقيقة إلي الآن لا أدري لماذا لم يكن الفقر يرتسم علي وجه أبو الغيط؟ فهل كانت لديه مناعة ضد الفقر؟ أم أنه كان يعيش في عالم يختلف عن عوالم البشر العاديين؟. فكما قالوا عنه دائما إنه كان يعيش في عالم آخر. فهل هذا العالم الآخر يمنح الشخص إحساسا بالرضا والقناعة لا يتوافر لدي الآخرين؟.

وإذا كان أبو الغيط كذلك فإن السيدة الجعرمة ابنة خالته كانت تختلف عنه اختلافا بيّنا وكبيراً. وقد بحثت بعد أن كبرت عن لقب «الجعرمة» فلم أعثر له علي أثر. وكل ما وجدته قريبا من ذلك: " جعر جعْراً، أي يبست طبيعته فهو مجعار. وتجعَّر أي شد الجعار علي وسطه، والجاعرة أي الدبر، وجعار اسم للضبع، وأم جعار كنيتها، والجعار (بكسر الجيم) حبل يشد به النازل البئر وسطه. والجعْر (بسكون العين) كل ذي مخلب من السباع.

وعلي أية حال فإن أهل القرية لم يعطوا هذا اللقب للسيدة الجعرمة إلا أنها كانت ذات مخلب. ولعل هذا هو أصدق وصف لها، فإنك كنت تنظر إليها فينتابك إحساس قوى وواضح بهذا الوصف، لاسيما إذا قمت بتركيب الصورة كلها أو رسمتها علي النحو الذي يظهر أمام عينيك. فهي قصيرة القامة، دقيقة البنية، مقطبة الوجه، لها أنف دقيق، وعينان ينمان عن طبع فيه شراسة، وإن كان الفقر يخفي كثيرا منه. ترتدي جلابية سمراء، وتعصب رأسها بمنديل أسود فوقه طرحة سمراء. ولا أدري هل كنا نحن الأطفال نحس بأن طبع السيدة الجعرمة ينطوي علي بعض الشراسة؟ لكن الذي أعلمه جيدا هو أننا بعد أن شببنا قليلا عن الطوق كنا عندما نجد السيدة الجعرمة جالسة عند مدخل الحارة نقوم بتجميع أنفسنا بسرعة ونقف في مكان خلف حائط يبتعد عنها بمسافة مائة متر تقريبا ونبدأ بقذفها بالطوب أو الحصى الخفيف لكي نثير انتباهها ثم ننطلق جميعا في صوت

عال جدا نتأكد أنها تسمعه، قائلين:

السيدة لابسة الفستان وأبو الغيط زين العرسان

ونظل نقول ذلك حتى نراها تقوم من مكانها منتفضة تبحث عن الطوب والحصى وتقذفنا به. ثم تتقدم أكثر وأكثر نحونا غير هيابة ولا وجلة وتزداد غيظا عندما ترانا نعاود الصوت ونضحك، فيشتد قذفها لدرجة أننا نخشى علي أنفسنا أن يصاب أحد منا بسوء، فنترك المكان ضاحكين مستمتعين، ثم نعاود الكرة إذا وجدناها جلست مرة أخرى أمام مدخل الحارة. وكانت تفعل ذلك من باب العناد والحرص علي أن تصيب بعضنا أو علي الأقل واحداً منا، لكنها في بعض الأحيان كانت تؤثر السلامة وتمضي إلي داخل الحارة.

وفي يوم من الأيام سمعنا ضجة قوية وصراخا في حارة السيدة الجعرمة. تطلعت بنفسي لأري ماذا حدث، فوجدت السيدة الجعرمة تتعارك مع إحدى جاراتها. كانت الجارة أقوي منها، ولهذا كانت تكيل لها اللكمات وتضربها بقوة، و السيدة الجعرمة تجأر وتتهته وتشتم لدرجة أن الشتائم كانت تختلط بالرذاذ الخارج من فمها. وأشهد أن السيدة الجعرمة في ذلك اليوم تلقت علقة لم تر مثلها في حياتها. وقد هددت بأنها سوف تشتكي جارتها للعمدة. وبالفعل لبست حلتها وتلفعت بطرحتها وسارت في طريقها نحو دوار العمدة الذي يقع في أول القرية من ناحية الطريق الزراعي. كان الجو يومها ماطراً والأرض موحلة، والطريق صعب للغاية، لكن هذا لم يثن السيدة الجعرمة عن الذهاب. وعلي الرغم من أن بعض الجيران حاولوا أن يطيبوا خاطرها ويعتذروا لها، وجاءوا بالمرأة الأخرى لتعتذر لها إلا أنها أصرت علي الشكوى ، وخلعت نعليها لكي يكون المشي في الوحل أسهل. وصلت السيدة الجعرمة إلي دوار العمدة واشتكت إليه المرأة التي ضربتها، فأرسل العمدة أحد الخفراء لاستدعائها، وعندما حضرت أصدر العمدة حكمه بأن تقوم المرأتان بإزالة الوحل من الطريق في المسافة الواقعة بين

الطريق الزراعي ودواره، وهي مسافة تزيد علي مائتي متر. وعلي الرغم من أن زوج الجارة حاول تخفيف هذا الحكم القاسي إلا أن العمدة كان شديد الإصرار علي تنفيذه.

كنت أتأمل هذا المشهد من بعيد، فلاحظت أن المرأتين بعد صدور هذا الحكم الغريب، حدث بينهما نوع من التقارب. فبعد المعركة التي احتدمت بينهما أراهما الآن تحاولان التعاون فيما بينهما. انطلقتا إلي أول الطريق وبدأ العمل الشاق بإزاحة الوحل وركنه علي الجوانب حتى يمكن للمارة أن يعبروا الطريق بسهولة ويسر. وما إن انتهيتا من إزاحة الوحل وتمهيد الطريق، وهما تستعدان لإبلاغ العمدة بإنجاز المهمة، حتى وجدتا سيارة تركن أمام الدوار، ونزل منها ابن العمدة وخطيبته، وكانا قادمين من قرية قريبة منا تقع علي الطريق الزراعي مباشرة.

وعادت السيدة الجعرمة إلي دارها بعد يوم شاق وصعب، وقد قررت ألا تذهب إلي العمدة أبدا حتى لو هجم عليها شخص يريد قتلها.

لم أعرف بعد ذلك شيئا عن السيدة الجعرمة، ولعلها ماتت وشيعت إلي مثواها الأخير في صمت شديد، فلم يكن لها صلة أو ارتباط بأحد. وقد ماتت دون أن تعرف أن شخصا مثلي سوف تظل صورتها حية في ذهني، لم تفارقني في أي لحظة حتى وأنا أدرس أو أعمل فيما وراء البحار. وإذا كانت قد تركت الدنيا في صمت فإن ما حدث مع ابن خالتها أبو الغيط كان عكس ذلك تماما. فقد جاءني ذات يوم وأنا في المدرسة المشتركة من أخبرني أن أبو الغيط قد توفي، فتركت المدرسة فورا وتوجهت إلي داره فوجدتهم قد خرجوا بنعشه إلي الساحة الواسعة القريبة من حارته، والقرية كلها تقريبا مجتمعة في هذه الساحة، والأعلام الخضراء ترفرف،والبّطاحة التي كانت تستدعي في الموالد تمرق بين الناس، يحملها خادم مقام سيدي إبراهيم الطيار بالقرية المجاورة لقريتنا، وهذه البطاحة تتطوح ذات اليمين وذات

الشمال، وحاملها يبدو وكأنه مغيب، لكنها لا تصيب أحدا ،والناس يقولون إنها هي التي تقود حاملها.

انطلق موكب الجنازة، والناس تصرخ وتهلل وتكبر، وبعض النسوة يطلقن الزغاريد، وهذا لا يحدث أبدا في الجنازات العادية. ويصل الموكب إلي المقابر لكن النعش يرتد مرة أخرى ليبدأ رحلة جديدة من الطواف في شوارع القرية، وظل الحال هكذا من بداية النهار حتى آذان المغرب و أبو الغيط مُصرّ علي عدم دخول القبر. ووفي إحدى المرات تقدم رجل كبير في حالة غيظ واستنكار، وخاطب حاملي النعش قائلا: «هيا تقدموا إلي المقابر وبلاش مرقعة». فقالوا له تعال معنا وافعل ما تراه صحيحا .وفعلا حمل النعش معهم من الأمام، وحاول التقدم نحو المقبرة، واستخدم كل قوته من أجل أن يثبت أنه علي حق، وأن الآخرين مائعون مزيفون يريدون أن يظهروا كرامات أبو الغيط ويدللوا علي أنه أحد أولياء الله الصالحين. ولكن هذا الرجل، علي الرغم من إصراره وحماسه، فوجئ باستدارة النعش إلي الخلف ليبدأ رحلة جديدة في الشوارع والطرقات. وهكذا أثبت أبو الغيط أنه ولي من أولياء الله، لكنه بعد أذان المغرب قرر أن يدخل مقبرته وأن يوسد التراب ويريح القرية من هذا العناء الذي استمر لمدة يوم كامل. وهو في الحقيقة لم يكن عناء، بل كانت احتفالية لم تشهد القرية مثيلا لها علي الإطلاق.

وقد علمت فيما بعد أن أبو الغيط غادر مقبرته وطار ليستقر في مكان قريب من ضريح أبي بكر الذي كان يتغني به. وقال الناس أيضا إن أبو الغيط بني له ضريح هناك صار هو الآخر مزاراً.

حلاوة زمان يا ملبن

في المنطقة الخلاء الواقعة أمام بيتنا كنا نتجمع في أيام الأعياد والأجازات وأوقات الفراغ نلعب الكرة الشراب، وهي كرة كنا نصنعها علي أيدينا، أو لعبة الحجلة، أو الاستغماية أو غير ذلك. وفي كثير من الأحيان كان اللعب يتم بصورة سلسة، فيها وفاق وحب وتناغم، وأحيانا تستعر الخلافات لسبب أو لآخر، مثل عدم الرضا عن الهدف الذي دخل في المرمي، أو لجوء أحد اللاعبين إلي الغش والخداع. وربما يثور الخلاف لمجرد الخلاف. وفي هذه الحالة تنقسم الجماعة إلي معسكرين متخاصمين، يتزعمهما اثنان من أقوي الموجودين شخصية، وهما في العادة ولد اسمه السيد السماوي وأنا. والسماوي ليس لقبه الحقيقي ولكننا لقبناه بذلك لأن بصره كان يتوجه لأعلي، وربما لأنه كان أكبر سنا وفيه بعض الشموخ والتعالي، علي الرغم من أنه كان بليدا في المدرسة، إلا أنه في ساحة اللعب هو الأقوى، والأشد تأثيراً. وكنت عندما يدب الخلاف أتوجه إلي المجموعة فرداً فرداً قائلا: أنت معي أم مع السيد؟. وفي أغلب الأحوال كانت الأغلبية تنحاز إلي السيد فأضطر أنا إلي الانزواء أو الابتعاد قليلا، وأظل أرمق بغيظ شديد الأولاد وهم يلعبون مع السيِّد. ولابد أن أستثني هنا الولد مسعود لأنه كان ينحاز إليّ باستمرار حتى ولو بقينا وحدنا نحن الاثنين.

وذات يوم بينما نحن علي هذه الحال سمعنا صوت شخشخة آتية من بعيد فعرفنا أن بائع حلاوة زمان يا ملبن قد وصل. فهذه هي شخشخته وهذا هو الصوت الذي يصدر عنه. اقترب منا البائع بقامته الفارعة وعصاه الطويلة التي تعلوها شخشيخة مغطاة بكوز تتدلي منه قطعة حلوي طويلة حمراء اللون مصنوعة من السكر والعسل الأسود، أي أنها نوع من العسلية لكنها تختلف عنها في أن العسلية تكون في العادة جامدة مجففة، أما هذه

الحلوى فمعمولة بحيث تكون لينة قابلة للمط، فكان البائع يمطها بطريقة تثير لعاب الأطفال ويقطع منها قطعة صغيرة يعطيها للمشتري. التففنا حوله فطلب منا كالعادة أن نمضي للبحث عن الشراميط والعظم، وهذا هو الثمن الذي يقبله ليبيع لنا قطعا من الحلوى. لم نكن نناقشه في طريقة الدفع لأننا لا نمتلك النقود التي ندفعها له. ولهذا كان البحث عن الشراميط والعظم بالنسبة لنا أسهل كثيرا. و الشراميط هي -في لغة قريتنا - قطع القماش القديمة الملقاة في الشوارع والحارات.

انطلق كل منا بمفرده في شوارع القرية يجمع كل ما يقابله، ولأننا كنا كثيرين وبائع حلاوة زمان يا ملبن يأتي علي فترات متقاربة فإننا كنا نقضي فترة طويلة في البحث واللف في الشوارع، وخلفنا سوط يلهب أجسادنا وهو أننا كنا نخشى أن نعود إلي البائع فنجد حلاوة زمان قد انتهت. ولاشك فى أني إلي هذه اللحظة لا أعرف لماذا كان البائع يسميها حلاوة زمان؟ فنحن نعرف أنها ملبن لأنها تمط مثلما يمط الملبن، ونحن نعرف أنها عسلية من نوع خاص، ولكننا لا نعرف لماذا هي حلاوة زمان، أي حلاوة الأيام الماضية. وكان البائع وهو يعلن عن بضاعته ينطق الجملة بصوت منغم، عال، ثم يتبعه بتحريك الشخشيخة فيكون لذلك وقع خاص في الأسماع والأفهام خاصة لدي هؤلاء الأطفال المتشوقين لتذوق حلاوة زمان.

قلت للولد مسعود بعد أن قطعنا مشواراً في البحث قريبين من بعضنا البعض: لماذا لا نقسم البلد نصفين، فتأخذ أنت النصف الذي يبدأ من منطقة المصاطب حتى المساكن المطلة علي البحر، وآخذ أنا هذه المنطقة من مدخل القرية إلي المصاطب. وافقني علي ذلك وتوجه هو نحو المصاطب . وقد حكي لي بعد ذلك أنه مر علي «القريني» صانع أبو الرياح، وهي لعبة تصنع من الورق تخصص فيها السيد «القريني» وهذا لقبه. وكان يجلس أمام دكانه فإذا مررت عليه وقلت له : «السلام عليكم»، رد عليك مهما كنت

بصوت منغم واضح قوي، وهو لا يمل من ذلك حتى لو مررت عليه مائة مرة وألقيت عليه السلام. وقد أعجبت الولد مسعود هذه اللعبة فمر علي القريني أكثر من عشر مرات ذهابا وعودة، وفي كل مرة يستمتع برده العجيب علي التحية. بعد ذلك انطلق في البحث عن الشيئين المطلوبين ولم يشغله شيء عن هذا.

أما أنا فقد توجهت نحو الشارع المؤدي إلي الجامع الكبير، وفوجئت عند إحدى النواصي بأصوات مزعجة صادرة عن عدد من النسوة. توقفت أسأل ما الذي جرى؟ وعلمت أن معركة طاحنة تدور داخل أسرة الطوانسة وبالتحديد بين امرأتين هما زكية الندابة وزوجة أخيها زهرة. والحق أن هاتين المرأتين لم يكن لهما من اسميهما أي نصيب. فزكية الندابة كانت شرسة، عفية، سليطة اللسان، سقيمة الفهم، إذا قررت أن تفعل شيئا فعلته رغم أنف الجميع. أما زهرة فكانت هي الأخرى عنيفة، قوية، متسلطة، صعبة المراس. ويبدو أن الرجال في هذه الأسرة، وهم إخوة متزوجون ولهم أخوات، كانوا لا يقدرون علي أن تكون كلمتهم مسموعة عند النسوة، ولهذا كانت المعارك بينهن تشتد في كثير من الأحيان، وكنا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الفرجة عليها. وفي هذا اليوم استطاعت زكية أن تقضم جزءا من أذن زهرة. بعدها هدأت المعركة فوجدتني أترك المكان لإكمال المهمة.

سرت في الشارع فقابلت أولادا كثيرين يبحثون مثلي عن الشراميط والعظم بعضهم من شلتنا، وبعضهم من شلل أخرى. وفي مدخل الشارع رأيت بصارة الأعمي يمارس هوايته المفضلة في الحديث بصوت عال، وإعطاء التعليمات لهذا الشخص أو ذاك حتى من المارة، لدرجة أني كنت دائما أشك في أنه أعمي. وقد عرفته من قبل عندما حضر إلي بيتنا لعمل «خاتمة». والخاتمة مصطلح يطلق علي الجلسة الخاصة التي تقام في البيوت من بعد صلاة العصر إلي صلاة المغرب ويقرأ فيها القرآن علي أرواح

الموتى. في يوم الخاتمة حضر بصارة إلي البيت بعد صلاة العصر مباشرة تسبقه عصاه ويقوده ابنه واسمه زغلول، وحضر معهما شخصان آخران من حفظة القرآن الكريم هما الشيخ علوان والشيخ منصور. وبالطبع كان الوالد رابعهم وهو أيضا من حفظة القرآن. بدأت الخاتمة بتوزيع الأجزاء علي القراء، ومعروف أنهم لن يستطيعوا قراءة المصحف كاملا في هذا الوقت الضيق، لكن لابد أن تتم الأمور هكذا. وبدأ الجميع القراءة فكان أعلاهم صوتا الشيخ بصارة. وبعد أذان المغرب أحضرت الوالدة الأكل المكون من الأرز المعمر، والفتة، واللحوم المعمولة بطرق تثير الشهية، لاسيما وأنها في الأساس لحوم طازجة مذبوحة في نفس اليوم، إضافة إلي الشوربة التي يسمونها في قريتنا «المرق»، والسلطة. وضعت اللحوم أمام الشيخ بصارة فوجدناه عند توزيع الأنصبة ويسمونها «المنابات» يخص نفسه وابنه بأكثر من نصف الكمية. بعد ذلك قال والدي: إذا حدث واستدعينا الشيخ بصارة في خاتمة فلن أتركه أبدا يقوم بتوزيع المنابات.

وبينما كنت منهمكا في البحث عن الشراميط والعظم قابلتني خالتي نعيمة وسألتني: ماذا تفعل هنا يا ولد يا حماد؟ لم أقل لها إنني أريد أن أشتري حلاوة زمان يا ملبن، وإنما كذبت عليها قائلا: أبحث عن شيء ضاع مني هنا. ولما كنت معروفا لدي أقربائي بأني لا أكذب صدقت كلامي، وأخذت تبحث معي دون أن تسألني ما هو هذا الشيء تحديدا. ربما تصورت أنه قلم أو أستيكة أو أي شيء من الأدوات المدرسية، لكن الذي أنا متأكد منه أنه لم يخطر علي بالها إطلاقا أني أبحث عن نقود أو شيء من هذا القبيل. وقد تركتني وذهبت عندما لم تعثر علي شيء. ولعلي لو صدقتها القول لساعدتني في البحث عن الشراميط والعظم، ولكني لا أدري لماذا ترددت في أن أخبرها بذلك؟. فهل كان أهلنا لا يعلمون بأن هذا الرجل الذي يبيع حلاوة زمان يا ملبن يقايض عليها بالشراميط والعظم؟ وهب أنهم علموا

بذلك فهل كانوا سيحتجون؟ فوفقا لما كنت أعرفه أعتقد أن هذا الأمر لم يكن يعنيهم في شيء، كما لم يكن يعنيهم في شيء أن نقضي نهارنا كله نستحم في مياه الترع، وكانت هذه المياه نظيفة إلي حد ما وجارية عند امتلاء الترعة بالماء، لكن في غير هذا الوقت كانت المياه شحيحة وراكدة. ومع ذلك كنا ننزل في هذه الترع في الحالتين.

ولما أيقنت بعد تجوال في الشوارع والحارات لأكثر من ساعتين أني لن أحصل علي كمية تجعلني أفوز بقطعة كبيرة من حلاوة زمان يا ملبن قررت العودة والذهاب إلي حيث يقف البائع. وقابلني في الطريق الولد مسعود الذي استطاع أن يحصل علي كمية أكبر. أعطانا البائع مقابل ما يحمله كل منا، لكن الولد مسعود كان كعادته كريما معي فاقتسمنا الحلوى بيننا بالتساوي. وتجمع الأولاد مرة أخري في الساحة الخلاء ليواصلوا لعبهم حتى حان موعد الغداء فتفرقنا جميعا كل إلي بيته.

الكُتَّاب

في الصيف السابق علي دخولي المدرسة المشتركة قرر والدى أن يلحقنى بالكُتَّاب لكى أجمع بين الاثنين، أحفظ القرآن من جهة وأتلقى العلوم الحديثة من جهة أخرى. استدعانى من بيت أبو الغيط، وكنت نائما هناك، وقال لى: هيا بنا نذهب إلى كتاب السيد أبو خطيب. كان فى بلدنا كتابان، هذا الذى يديره السيد أبو خطيب، وآخر تابع للشيخ زكى مخلوف. كنت أود لو ألحقنى والدى بكتاب الشيخ مخلوف لأن الأولاد يشكرون في ابنته فاطمة التى تتولى التعليم في البدايات وتقوم بتحفيظ الحروف الهجائية بطريقة مبتكرة، ولكن والدى فضل الكتاب الآخر، ربما لقرابة كانت تربطه بالسيد أبو خطيب أو لسبب آخر يتعلق بالجودة والاهتمام.

خرجنا من البيت فى ساعة مبكرة، وشمس الصباح ترسل أشعتها الصيفية فى المنطقة الخلاء التى يطل عليها بيتنا، والناس والدواب والأنعام فى حالة حركة تبدو منسجمة ومتلائمة مع حركة الطبيعة فى هذا الجو المعتدل الذى يسبق فترة توهج الشمس وانعكاس أشعتها الحارقة على أسطح البيوت. وكان من عادة والدى أن يلقى السلام على كل من يقابله أو يرد عليه بصوت جهورى فيه مودة وألفة وصادر عن نفس لا تحمل أى ضغينة لأحد. بل إنه كان يبالغ أحيانا فى هذا الجانب فيداعب الأطفال، ويتباسط معهم أو يحملهم على يديه ويهدهدهم لاسيما إذا كانوا معروفين لديه أو من أسر قريبة منا.

قال والدي: هلم بنا نبتعد عن منطقة السوق حتى لا يعوق حركتنا فأخذنا الشارع الموازى والتففنا حول السوق حتى وصلنا إلى الشارع المؤدى إلى منطقة المصاطب. كانت هذه المنطقة تحمل هذا الاسم لأنها كانت ملتقى أربع طرق ضيقة، وعلى الرغم من هذا الضيق فإنها كانت مملوءة

بالمصاطب التي أقامها أصحاب البيوت للجلوس عليها خاصة أثناء الفصول التي تحتاج إلي الجلوس في مكان غير مسقوف، حيث أن درجة الحرارة داخل البيوت في ذلك الوقت تكون عالية جدا. وكانت منطقة المصاطب تشتمل علي وجوه أخرى بالنسبة لنا نحن الأطفال، ففيها السيد القريني صانع أبو الرياح الذي وهبه الله قدرة وصبرا لا مثيل له في الرد علي كل من يمر عليه ويلقي عليه السلام والتحية، وفيها محل ابنه قطب السمكري الذي يتفنن في صنع فوانيس رمضان، ويقوم بإصلاح وابورات الجاز وغير ذلك. ثم إنها - كما يقول الناس -منطقة مسكونة. ففي الليالي التي تخلو فيها من المارة لاسيما في فصل الشتاء، تصول العفاريت وتجول في جوانبها. وقد حكي لنا الولد أحمد أنه مر ذات ليلة من منطقة المصاطب فوجدها مسدودة تماما. تصور أن أمراً جديدا قد حدث أو أن أحد سكان المنطقة قرر أن يسدها حتى لا يمر منها أحد، ولكنه اكتشف بعد لحظات أن الجدار ليس إلا مجموعة من الجان تشابكت أيديهم، ففكر ثم فكر واهتدى إلي أن هذا الحصار لن يفكه إلا قراءة القرآن، فأخذ يقرأ بعض السور القصيرة التي يحفظها، وهنا وجد الجدار ينفك ويتلاشي ، فعبر الشارع في أمان وسلام. وحكي الولد أحمد أيضا حكاية أخرى وهي أنه كان قادما من منطقة المصاطب في ليلة مظلمة فوجد عددا كبيرا من الأرانب تقفز وتسد الطريق، وبخبرته السابقة عرف كيف يتخلص منها وواصل طريقه. وكنت دائما أسأل الولد أحمد: ألم تحس بالخوف وأنت في هذا الموقف؟ فيرد: ولماذا أخاف؟. ولا أدري هل كان الولد أحمد شجاعا حقا أم أنه كان يخترع هذه الحكايات؟

وصلنا إلي مقر الكتاب فوجدته مبني طينيا من دور واحد مكون من مدخل في الوسط يقع بين حجرتين، حجرة إلي اليمين وأخرى إلي الشمال. حجرة اليمين يجلس فيها الشيخ السيد أبو خطيب، وحجرة الشمال خاصة

بالشيخ حمود الكفراوي الكفيف، أما المدخل فيقف فيه الابن الأكبر للشيخ السيد أبو خطيب ويعرف باسم العريف أنس. دخل والدي مباشرة وأنا خلفه إلي حجرة اليمين فوجدنا الشيخ السيد جالسا وأمامه طفل يقرأ أو يسمّع لأن القراءة هنا يطلق عليها مسمي " التسميع " ، والحجرة مليئة بالأطفال مثل المدخل والحجرة الأخرى، بل إن المصاطب المواجهة للمبني هي الأخرى ممتلئة عن آخرها، وكل طفل مشغول في الحفظ حتى يأتي دوره ليقوم بالتسميع في المكان المخصص له.

حاول الشيخ السيد أن يقوم ليسلم علي والدي ويرحب به، ولكن خصيته الممتدة أمامه منعته من ذلك، وكان الناس يطلقون علي الخصية المتضخمة اسم " القليطة"، ولذلك كانت كنية الشيخ السيد أبو خطيب المشهورة لدي أهل القرية هي " أبو قليطة". سلم الشيخ السيد علي والدي جالسا واستمر في عمله المكون من أمرين: الاستماع للطفل الذي يقرأ ما أمر بحفظه، وأثناء القراءة يتم تصحيح الأخطاء، وجدل ضفائر الخوص التي يستخدمها بعد الانتهاء منها في صناعة القفف والمقاطف، والحق أن الشيخ كان بارعا جدا في هذه الصنعة التي تمضي متوازية تماما مع مهنة تحفيظ القرآن الكريم. طلب الشيخ السيد من والدي أن يجلس قليلا ليشرب معه الشاي، وعندما انتهيا من ذلك أوصاه والدي بي خيرا ، وشدد الشيخ السيد علي فكرة المداومة والمواظبة لأنه بدون ذلك لن نصل إلي النتيجة المرجوة، ثم اقترح علي والدي أن ألتزم بالجدول المحدد علي مرحلتين: مرحلة صباحية تبدأ من بعد صلاة الفجر وتنتهي قبل موعد المدرسة بنصف ساعة تقريبا ، ومرحلة مسائية بعد الخروج من المدرسة.

وهكذا سارت حياتي في فترة الحفظ التي استمرت لعدة سنوات. فكنت أصحو من النوم قبيل الفجر فأتوضأ وأصلي وأتناول الطعام المتاح، ثم أنطلق نحو الكتاب فأمر عبر منطقة السوق، ثم منطقة المصاطب حتى أصل

إلي بيت الشيخ المقابل لمبني الكتاب. وكانت هذه الفترة الصباحية تتم في حجرة نوم الشيخ، وبالتحديد فوق الفرن الذي يملأ ثلاثة أرباع الحجرة، ومعروف أن عدد الجفاظ في هذه الفترة كان قليلا لأن الغالبية كانوا يفضلون فترة واحدة فقط وهي الفترة المسائية، ولكني - في الحقيقة - أحسست أن هذا الوقت المبكر من النهار كان مفيدا جدا في الحفظ وفي الاستذكار، ولهذا اتخذته مبدأ حياة مازلت أحافظ عليه إلي الآن. كان المنغص الوحيد لي في هذه الفترة الصباحية هو أنني كنت أحس أن كل براغيث الحجرة التي تجمعت طوال الليل قد عملت حسابها لتوزيع نفسها علينا جميعا، لكننا والحمد لله كنا متعودين عليها لاسيما في فترة حصار الغلال التي كانت تكثر فيها بصورة لا مثيل لها. وكنا دائما نحس بالعجز أمام غزواتها التي لا تنقطع، لأنك إذا استطعت القضاء عليها في بيتك فمن المؤكد أنها سوف تصل إليك مرة أخرى من خلال دخولك بيوت الآخرين لاسيما هذه الحجرة العجيبة التي ينام فيها الشيخ السيد أبو خطيب والممتلئة بالكثير من الأغطية الصوفية التي يبدو أنها تتفنن في استجلاب البراغيث.

في فترة المساء، وبعد الخروج من المدرسة، أقطع الطريق نحو الكتاب، وعندما أصل إلي هناك أجد الأولاد جالسين علي المصاطب المواجهة، بعضهم مشغول بالحفظ، ولا يكاد يلتفت إلي أحد، وبعضهم ينخرطون في حالة صخب وضجيج يندرج ضمن الصخب العام المتولد من طريقة الحفظ بصوت عال، وبعضهم تلوح علي محياهم مخايل الشقاوة والعفرتة، مثل الولد إسماعيل الذي لا يري حشرة تمر أو ضفدعة إلا وجرى وراءها وأمسكها، بل إنه ذات يوم رأي ثعبانا صغيرا يدخل في شق بأحد الجدران فظل يحاول سحبه من ذيله حتى سحبه وأمسك به. كل هذا والشيوخ داخل الكتاب لا يدرون بما يجري في الخارج لأن كلا منهم منهمك في التحفيظ

ومحاولة الانتهاء ممن هم في داخل الكتاب حتى ندخل نحن المنتظرين علي المصاطب ويجلسوا هم مكاننا. بل إن الولد إسماعيل قد عرف بالشيطنة في مجال آخر وهو اختراع آيات موازية لبعض النصوص القرآنية، ومن العجيب أنه يأتي بها منغمة مسجوعة بنفس طريقة الصياغة في الآية.

وكنت دائما أتجنب أن أبدأ بالتسميع علي العريف أنس لأن رد فعله تجاه أي خطأ يمكن أن تقع فيه هو أن يبدو و كأنه يكظم غيظه، ويصر علي أسنانه، ويكور أحد أصابعه بحيث يصبح مثل المطرقة، بل قد تتجمع الأصابع كلها في مطرقة واحدة ينزل بها علي رأسك، ولا تستطيع لها دفعا. إضافة إلي أنه كان طويل القامة ويفضل الوقوف، وبالتالي فإنه كان يهيمن علي الرأس هيمنة كاملة، ثم إنه غير ضليع في حفظ القرآن، وبدا لنا جميعا وكأن والده شغلَه معه لمجرد المساعدة أو إيجاد شغله له لا يحسنها بالكامل. ولهذا كنت دائما أفضل أن يكون تعاملي مع الشيخ الكبير مباشرة بدلا من المرور أولا علي العريف أنس. ولا شك فى أن والدي عرف عنى هذه الرغبة فأبلغ بها الشيخ السيد، ومن هنا كان تعاملي معه وحده بعيدا عن العريف وعن الشيخ الآخر الذي كان معروفا كذلك ببعض عاداته المنفرة، لاسيما وأنه أعمي، فقد يوجه إليك لكمة قوية تصيب أي مكان في رأسك أو جسدك، ولا تستطيع أن تعترض أو تتململ، لأن حفظ القرآن الكريم، في رأيه، يتطلب ذلك.

أما الشيخ السيد أبو خطيب فكان معروفا بهدوئه، وابتسامته التي تملأ مساحة وجهه العريضة التي بدأت تنتشر فيها التجاعيد، ورأسه الذي اشتعل شيبا، ويداه ورجلاه اللتان تتحركان بشكل متواصل بسبب الشغلانة الأخرى ، صناعة المقاطف. وكان الجلوس ديدنه لأنه عند الحركة لابد أن يستجمع كل قوته حتى يستطيع حمل هذا الكيان الغريب الذي يثقل ما بين فخذيه. ومن العجيب أنه لم يكن يأنف من الإشارة إليه دائما، وكأنه بدلا من

أن يستثقله ويحس بالنفور منه يعمل علي تدليله وتطويعه وتهذيبه. بل إنه كان في بعض الأحيان يسخر منه بطريقة تثير الضحك ولا تثير الإشفاق. وأذكر أنني عندما كبرت وقرأت رواية «خريف البطريرك» لجابرييل جارثيا ماركيز توقفت كثيرا عند الفقرة التالية التي يخاطب فيها الجنرال (البطريرك) القاصد الرسولي قائلا: "إذا كان الله قادراً بالصورة التي تتحدث عنها فقل له إذن أن يخلصني من هذه الدويبة التي تطن في أذني، ثم يفك بنطاله ويريه فتق خصيتيه العجيب ويقول له: «اطلب منه أن يزيل انتفاخ هذا المخلوق العجيب». وكان القاصد الرسولي يمضي محاولا إقناعه بأن كل ما هو حق يأتي من الروح القدس.

وكان والدي بالتبني أبو الغيط يتابعني في كل مكان أذهب إليه، وهذا أمر كان يجعلني أحس ببعض التميز. فعندما يقترب من موقع الكتاب ينادي بصوت عال: يا ولد يا حماد، فأخرج إليه إذا كنت في الداخل أو أتوجه إليه مباشرة إذا كنت في الخارج، فأجده يخرج من سفطه (المخلاة) الكعك والقراقيش والبسكويت ويعطيها لي ثم يمضي. وإذا كانت الكمية كبيرة وزعت علي الآخرين ممن يجلسون إلي جواري، وكانت هذه الأكلات بالنسبة لنا من الأشياء المميزة التي لا تصنع في كل وقت. وطعامنا في العادة ونحن في المدرسة أو في الكتاب كان مكونا من قطع خبز نضع فيها الجبنة القريش ونصب عليها بعض الماء حتى نستطيع أن نكورها ونحملها في السيالة وهي جيب الجلابية، ولم يكن يعنينا في شيء أن تكون السيالة مبللة بالماء أو غير مبللة، لأن هذه الأمور بالنسبة لنا تدخل ضمن الترف الذي لا نعرفه من الأساس.

وعندما ختمت نصف المصحف، أي حفظت من سورة «قل أعوذ برب الناس» إلي آخر سورة «مريم» طلب الشيخ السيد أبو خطيب أن أحضر له المقابل المعروف من الحبوب، وهو عادة كيلة من القمح أو الأرز أو الذرة،

ويعض الناس تزيد علي ذلك بعض الأشياء مثل كمية قليلة من السكر وشراب الورد لزوم ما يسمونه الشربات. وكل هذا يعد زيادة علي ما نقدمه أسبوعيا طوال فترة الحفظ وهو رغيف من الخبز تدخل به وتضعه في سحارة موضوعة لهذا الغرض، والمسئول عنها هو العريف أنس. لم تكن النقود في ذلك الوقت مطلوبة للدفع لأننا لم نعرفها علي هذا النحو إلا عندما دخلنا في المرحلة الإعدادية وبدأ القليلون جدا يأخذون دروسا خصوصية في بعض المواد.

احتفلنا في الكتاب، علي طريقتنا المقتصدة بالطبع، بحفظ نصف المصحف، ثم احتفلنا في البيت بنفس هذه المناسبة، وذلك بعمل خاتمة حضرها كل مشايخ الكتاب، إضافة إلي أبو الغيط الذي كان غاية في السعادة والانبساط لدرجة أنه أحضر معه الطبلة والرق، وحول المناسبة إلي حفل سعيد توزع فيه أكواب الشربات. وانتهز والدي هذه اللحظة كي يقدم الشكر للشيخ السيد أبو خطيب باعتبار أنه وحده هو الذي قام بإنجاز هذا العمل الذي سوف تكون له أبعاد مهمة في حياة هذا الصبي المتفوق في دراسته سواء في المدرسة أو في الكتاب.

وبالطبع كان لابد أن تمر فترة أخرى طويلة حتى يتم ختم المصحف بالكامل وهذا ما حدث، ولكن أبو الغيط عندئذ لم يكن موجودا، فقد انتقل إلي الرفيق الأعلى، وبذلك فقد الاحتفال البهجة التي كانت عند ختم النصف الأول من القرآن ، لكن صورة أبو الغيط ظلت كيانا قائما بذاته في ذاكرتي فتي وشابا وكهلا وإلي ما شاء الله. كما أن صور الشيخ السيد أبو خطيب، والعريف أنس، والشيخ حمود الكفراوي ما زالت منطبعة في الذاكرة ولا أعتقد أنها سوف تزول في أي وقت من الأوقات.

الشيخ محمود الدق

ارتبطت صورة الشيخ محمود الدُق في ذهني بمولد النبي الذي كنا ننتظره من العام إلي العام في الثاني عشر من شهر ربيع الأول. وقد كان هذا اليوم بالنسبة لنا في غاية الأهمية. فهو أولا يعتبر «موسما»، وكلمة الموسم في القرية تعني اليوم الذي تذبح فيه اللحوم. والليلة السابقة هي الليلة التي يطوف فيها الجزارون والتجار بالمواشي التي سيذبحونها في الغد في شوارع القرية وحواريها لتعريف الناس بأنهم يجهزون لهذا اليوم أفضل ما لديهم من ذبائح. ولما كان التاجر الملقب "لهلوبة" هو أبرع من يعلن عن ذبيحته فقد كنا ننتظر مروره علي ناصية الشارع لنسمعه وهو يقول: «صلوا علي النبي يا جدعان .. يا حلاوتك يا واد يا أصيل .. بص بعينك وصلي علي النبي». وعلي الرغم من أن لهلوبة كان قصير القامة، نحيفا، دقيق العظام، إلا أن الله منحه صوتا قويا مغردا، وكأنه قد ركب في حنجرته مكبر صوت من نوع خاص. وكان كثيرون غيره يطوفون ويرفعون أصواتهم بالنداء للإعلان ولفت الأنظار لدرجة أنك كنت تجد القرية ابتداء من بعد صلاة العصر إلي ساعة متقدمة من الليل وكأنها قد تحولت إلي ساحات للإعلان أو شاشات مكبرة متحركة يتفاعل معها الناس علي أرض الواقع فتصير جزءا لا يتجزأ من شئون حياتهم، إضافة إلي أن ذلك يمنحهم أنواعا من المتعة في المشاهدة، والمتابعة، والمفاضلة، والرغبة في المشاركة. وكل هذا يصنع سيمفونية بشرية شديدة الانسجام والترابط والتلاحم تنداح في مجموعة من الأحلام المتنوعة وفقا لأوضاع كل فرد عجوزا كان أو كهلا أو شابا أو طفلا.

في صبيحة الموسم، والذي هو يوم أجازة من الكتاب والمدرسة، مررت علي الولد مسعود فوجدته مازال يتناول طعام الإفطار المكون من الخبز

الرقيق المسمي «البتاو»، وقليل من القشدة واللبن الرايب والجبنة القريش والجبنة الحادقة. وكان هذا هو الطعام المفضل الذي يتوافر في الوجبات الثلاث، لأنه رصيد موجود في البيت طوال الوقت. صممت والدته علي أن آكل معه، فتربعت إلي جانبه علي الحصير وأمام الطبلية وأكلت معه، وربما كانت هذه فرصة بالنسبة لي لأن والدتي، في ذلك اليوم، انشغلت بالذهاب إلي الحقل. انتهينا من طعام الإفطار ومررنا علي زملاء آخرين: حسن وأحمد وعلي والسيد وغيرهم وتوجهنا إلي الساحة التي تنحر فيها الذبائح وهي قريبة من السوق، أي قريبة من بيتنا. وقد اختير هذا المكان تحديدا للذبح لأنه واسع جدا، ولأن الناس متعودة عليه وتتجمع فيه كل أسبوع، إضافة إلي أن القرية في ذلك الوقت لم تكن قد توسعت عشوائيا كما هو حالها الآن. ومن ثم كان هذا المكان هو الوسط الذي لا تبتعد الأطراف عنه كثيرا، والذي تهوى إليه النفوس والأفئدة.

وما إن أطلت نسمات الصباح المنعشة حتى تواصل حضور الجزارين يجرون خلفهم ذبائحهم وينادون عليها مثلما كانوا ينادون بالأمس ،وكأننا أصبحنا في مهرجان تتواصل فعالياته. وقفنا نتأمل الذبائح وهي تذبح ثم تسلخ ثم تقطع إلي أجزاء يتم تعليقها علي قوائم خشبية علي شكل هرم معدة لذلك، أو تنقل إلي مكان آخر أمام بيت الجزار أو قريبا منه. وبدأ الزبائن يتوافدون والجزارون ينهمكون أكثر وأكثر في عملهم الذي اعتادوا أن يخرجوا منه بحصيلة جيدة، ولهذا فإنهم كانوا من أكثر الناس انتظاراً للمواسم، كما كنا نحن الأطفال نعتبر هذا اليوم يوم عيد ومسرات وفرفشة لاسيما عندما تبدأ الأفران في العمل وتخرج منها الأبخرة المحملة بالروائح النفاذة، روائح الشوى والطبخ والمأكولات التي لا تظهر إلا في هذا الوقت مثل الكسكسى والمسرودة وهو نوع من الكسكسى يصنع بطريقة مختلفة. كانت القرية جميعها تبدو وكأن كل البيوت قد تحولت إلي مطاعم مثل

مطاعم الحاتي، وكنا نحن ننتظر لحظة غروب الشمس، وهي اللحظة التي يجتمع فيها كل أفراد الأسرة عندما تصف الموائد، وتخرج المشويات من الفرن وكذلك الأطباق الأخرى بروائحها النفاذة. يجلس الجميع حول الطبلية، ويبدأ الأب أو الأم، وفقا لاختيار كل أسرة والوضع الذي اعتادت في توزيع المنابات. ويوضع الكسكسى أو المسرودة في طبق كبير، وكذلك الشوربة والطبيخ المطهو في الفرن، بحيث يتمكن كل فرد أن يضع في طبقه كل ما يريد أكله. ولا أدرى لماذا كنت أتصور القرية في تلك اللحظة وكأنها أمست مطعما واحداً؟ فهل كانت القرية كذلك فعلا؟ وهل كانت هذه الروح الوحدوية تتغلغل في نفوسنا نحن الأطفال وتصنع منا كيانا واحدا متآلفا ومختلفا عن الكيان المتشرذم المضطرب الذي نعيش فيه الآن؟. لاشك في أن الوضع كان كذلك.

أما الفترة التي كنا ننتظرها في هذا اليوم علي أحر من الجمر فهي لحظة خروج الموكب الاحتفالي بمولد النبي. كان هذا الموكب ينطلق من الجامع الكبير بعد صلاة العصر .انطلقنا جميعا، الولد مسعود وأنا وباقي الشلة، إلي المسجد. دخل بعضنا دورات المياه التي كانت في ذلك الوقت بدائية جدا لأن المياه العذبة التي دخلت القري بعد ثورة يوليه ١٩٥٢ اقتصرت علي عدد من القواعد الأسمنتية المزودة بحنفيات تسد حاجة الفلاحين من مياه الشرب. أما المساجد وبعض البيوت فقد تم تزويدها بطلمبات تسحب المياه من آبار ارتوازية، ولهذا كان عامل المسجد أو من يساعده يملأون الخزانات الموضوعة فوق السقف بين كل فترة وأخرى. توضأنا في الميضأة المعدة لذلك، وأقيمت الصلاة فصلينا صلاة العصر. وبعد انتهاء الصلاة رأينا الشيخ محمود الملقب بالدق يتقدم لقيادة الموكب فيما يعرف بطابور السيوف، وهو طابور يتكون من عشرين أو خمسة وعشرين شخصا يتقدمهم محمود الدق، يحملون سيوفا صدئة من طول

حفظها، ويطوحون بها في الهواء أو يخترعون ألعابا أخرى. والحق أن المخترع الحقيقي هو ذلك المايسترو الملقب بالدق، والذي كان يتمتع بمهارة عالية في استخدام هذه السيوف، بل إنه كان في أحيان كثيرة يوقف الموكب، ويطلب من كل حامل سيف أن يضع السيف علي رأسه ويمسكه بكلتا يديه، ويقوم هو، أي محمود الدق، بالمرور فوق رءوسهم جميعا، وكانت لديه قدرة فائقة علي أن يحفظ توازنه وهو يمشي فوق السيوف الموضوعة علي الرءوس. وكان الناس في هذه اللحظة يهللون ويكبرون ويصرخون فرحا وابتهاجا بما يفعله محمود الدق، هذا الرجل متوسط القامة، المنحني قليلا علي نحو يشعرك بأنه بدون أدني شك فنان موهوب، أما لونه فيميل إلي السواد مما يشي بأنه من أصل سوداني أو نوبي أو علي الأقل من أهل الصعيد.

ولم يكن الموكب يقتصر فقط علي لعبة السيوف، بل كانت هناك أشياء أخرى أهمها «النقرزان» الذي يستأجر من خارج القرية. ولا أدري هل كان يأتي من طنطا أم من قرية أخري؟ المهم أننا كنا نستمتع أشد الاستمتاع ونحن نري النقرزان المكون من طبلتين كبيرتين مركبا علي قاعدة مخصوصة فوق جمل، وخلفه رجل يرتدي زيا خاصا وفي كل يد عصا متوسطة تنتهي ببكرة صغيرة يضرب بها علي طبلة، وينوع في الضربات بالتبادل بين اليمين والشمال لإحداث نغمات تختلف كل الاختلاف عن نغمات الطبلة العادية. ولأن صوت النقرزان كان عاليا فإننا كنا نسمعه من بعيد ونعرف قبل بدء الموكب أن النقرزان قد وصل.

ومن الأشياء التي كنا نحنّ إليها وننتظرها في شوق البطاحة، وهي تأتي من ضريح أو مقام سيدي إبراهيم الطيار الموجود في قرية مجاورة لقريتنا. انتظرنا أن تأتي البطاحة لتدخل ضمن الموكب لكنها لم تصل. وكان بعضنا ينتظرونها علي الطريق الزراعي حيث يأتي الشيخ الذي يحملها ماشيا،

ويتركها تقوده. ومع أنها عبارة عن عصا طويلة، حوالي خمسة أمتار، مركب عليها أقمشة سميكة خاصة بالضريح، وتتطوح شمالا ويمينا، إلا أنني لم أجد أي شخص يخاف من أنها يمكن أن تصيبه أو تحدث به أية أضرار، حتى عندما تتطوح داخل الموكب المزدحم بالناس. ولما تأكدنا أن البطاحة لن تحضر وجدنا مسعد الحمَّار بائع القصب يُحضر عصا طويلة ويلف عليها تلفيعتين صوفيتين من القماش السميك الذي يوضع علي الرقبة أيام البرد. ويبدو أنه كان قد جهز نفسه لذلك، لأننا وجدناه ينخرط في الدور مباشرة، فحمل بطاحته، ويربش عينيه مدعيا أنه لا يري شيئا، وأخذت بطاحة مسعد تتطوح ذات اليمين وذات الشمال. والحق أني كنت خائفا من أن ينسي مسعد نفسه، ويتوهم أنه يحمل بطاحة بحق، ويقفل عينيه تماما فيصيب أي شخص يمشي في الموكب. ولهذا حذرت الولد مسعود قائلا: «حاول أن تبتعد عن بطاحة مسعد الحمار».

ظل الموكب يطوف بالشوارع الرئيسية بالقرية التي تشكل ما يمكن أن يسمي الطريق الدائري، وكان يتوقف كثيرا عند المنعطفات، بينما الزغاريد تنطلق عالية مدوية تشق أجواز الفضاء، والناس ينضمون إلي الموكب تباعا، من شيوخ ونساء وشباب من الجنسين، وأطفال. ولم تكن قد ظهرت بعد في القرى التيارات المتشددة التي تحرم الاختلاط بين النساء والرجال، وتفرض النقاب علي المرأة حتى ولو كانت في مرحلة الصبي. كان الرجال والنساء والأطفال من كل الأعمار كيانا واحدا يشترك في كل فعاليات الموكب. الرجال يلعبون بالسيوف يقودهم المحترف الفنان محمود الدق، وتنطلق من بينهم صيحات التشجيع والاستحسان ، والنساء يزغردن، والأطفال والصبية من الجنسين يجرون ويتقافزون في حركات تنسجم وتأتلف مع موسيقي النقرزان، وتمايلات البطاحة المصطنعة، ودقات السيوف. وقد توقف الموكب حوالي ربع ساعة، وهي فترة طويلة نسبياً، عند الساحة المقابلة

لضريح الشهداء، وهي ساحة واسعة يقع في وسطها الضريح المذكور الذي يضم رفات عدد كبير من الشهداء يقال إنهم سقطوا إبان الفتح الإسلامي لهذه المنطقة. وعلي الطرف الآخر تظهر مقابر القرية، والتي توصف بالجديدة بعد أن دخلت المقابر القديمة التي لا تبعد عنها كثيرا في الحيز العمراني. ونظرا للامتدادات المتواصلة في المساكن لم يعد الناس يهتمون كثيرا بنقل المقابر خارج العمران لدرجة أنها حاليا صارت جزءا من داخل القرية، تطل عليها شرفات المساكن، ويلعب إلي جوارها الأطفال، ويشاهدون الجنازات يوميا بل ربما يشتركون فيها، أما في أيامنا فقد كان مجرد المرور من أمام المقابر يجعلني لا أستطيع النوم طوال الليل، حتى أني كنت أحاول جاهداً طرد صورة المقابر من ذهني ومخيلتي وأحاول أن أستحضر بدلا منها صورا أخرى حياتية وحضرية، لكني كنت أفشل في ذلك على مدى ليلة كاملة، وأحس أن المقابر بقضها وقضيضها قد أصرت علي أن تحرمنى من النوم وتحل هي مكانه. ولم أكن أجرؤ علي أن أخبر أحداً من النائمين إلى جواري بذلك، وهم يغطون في نوم عميق، لأني كنت أخشي أن يسوء ظنه بي وبعقلي.

ترك الموكب ساحة الشهداء ليدخل في شوارع ضيقة. كل هذا ومحمود الدق يمارس ألعابه البهلوانية بالسيف والرجال من حوله. وقد حاولت أن أقوم بعمل إحصائي لهذه الألعاب فوجدته مرة يرفع السيف لأعلي ويتطوح به إلي اليمين وإلي الشمال، ومرة ينزل به إلي أسفل بطنه ويقوم بنصف استدارة. وكنت أدقق النظر في هذه اللعبة حتى أستطيع إجادتها عندما نؤدي التمثيلية الشبيهة بها في المدرسة بقيادة الولد جلال. ومرة يضع محمود الدق السيف علي منخاره ويقوم بهزات متواصلة فيتحول الطابور من خلفه إلي شيء يشبه عش الدبابير.ولا تنتهي اختراعات محمود الدق (بتشديد الدال وضمها) عند هذا الحد، بل إنه ينجح في إدخال لعب أخري

بالسيف، لأن الوقت الطويل المتاح له من بعد صلاة العصر إلي صلاة المغرب يمنحه فرصة كبيرة في التجويد والاختراع والإتيان بأشياء جديدة تلفت الأنظار، وتمنح السعادة والنشوة لعدد كبير من أبناء القرية وبناتها الذين يصرون علي الانخراط في الموكب من أوله إلي آخره.

ولم يكن موكب مولد النبي هو الوحيد الذي يشهده عدد كبير من الناس، بل كانت هناك مواكب أخرى علي مدار العام، من أهمها ليالي الدخلة للموسرين من أبناء القرية. فقد كانت العادة أن يُحضر هؤلاء فرقة موسيقية من البندر تضم حوالي اثني عشر شخصا يحمل كل منهم آلة موسيقية كالطبلة والزمارة والأرغول والدف وغيرها، ويرتدون زيا مخصوصا مكونا من بدلة كاكي وشارات معينة علي الكتف وكاب أو طربوش علي الرأس. ينزلون القرية ويعلنون عن أنفسهم بموسيقاهم العالية التي لا تصل إلي مرحلة الصخب والضجيج كما هو حادث هذه الأيام في الفنادق الكبري، ويتوجهون إلي بيت العريس أو العروس، وفي هذه الأثناء يتم تحميل عفش الزوجية البسيط علي العربات الكارو والجمال، ويزود الهودج الموضوع علي سنام أحد الجمال بكل ما يلزم العروس، أما العريس فيركب حصانا. وعندما تطورت الأوضاع صار الناس يحضرون سيارة أجرة يركب فيها العروسان. وبعد أن يتناول أفراد الفرقة الموسيقية طعام الغداء، وهو غداء مخصوص بالطبع، تنطلق الفرقة وخلفها الموكب في شوارع القرية. وتكون هذه فرصة ثمينة لنا، إذ نقضي الفترة من العصر إلي المغرب نسمع الموسيقي، ونسير في شوارع القرية، متآلفين، منتعشين، مسرورين. فهي بالنسبة لنا فترة لعب، وترويح، ومشاركة في حدث مهم لابد أن يشهده الناس جميعا في القرية، منهم من يشترك في الموكب، ومنهم من يشاهده أثناء المرور عليهم، والنساء علي النواصي ترش الملح علي الجميع. وفي بعض النواصي يتوقف الموكب لأن هناك من يريد أن ينقط الفرقة الموسيقية

إكراما للعروسين. كانت النقطة عبارة عن قروش قليلة لكنها كانت كافية لنشر البهجة في الفرقة الموسيقية وفي الناس جميعا. وفي هذه الحالة تقدم الفرقة نغمة خاصة معروف أنها نغمة التحية لهؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم وتكلفوا نفقة التنقيط.

وعلي الرغم من أن زفاف الأفراح كانت له إيجابياته الكثيرة التي لا تخفي علي أحد، إلا أنني كنت أفضل موكب المولد النبوي الذي يجتمع فيه محمود الدق، و النقرزان، والسيوف، والبطاحة، حتى ولو كانت بطاحة مسعد الحمَّار المصطنعة، إضافة إلي الأكلات اللذيذة المشهية التي كنا نتناولها عقب الانتهاء من الموكب، عندما نعود إلي البيت ونجد الأم قد انتهت من تحمير اللحوم، والمأكولات في الفرن، بطشاتها العجيبة التي لا مثيل لها في الأفران الصناعية لأيامنا الحالية.

شربات العيد

صحوت يوم العيد مبكرا، تقريبا في نفس الموعد الذي أذهب فيه إلي الكتاب، لكن يوم العيد بالذات يكون مختلفا، لأننا في العادة ننتظره بشوق كبير، سواء كان عيد الفطر أو عيد الأضحى. ولم يكن هناك فرق بين الاثنين في نظرنا، لأن كليهما بالنسبة لنا كان "موسما" تذبح فيه الذبائح صبيحة اليوم المسمي «يوم الوقفة» التي كانت تنسحب أيضا في عرف أهل القرية علي عيد الفطر فهي وقفة وموسم في آن، وإن كنا قد عرفنا فيما بعد أن «الوقفة» لا تطلق إلا علي وقفة عرفات، وأن عيد الفطر ليس له وقفة لأن المسألة مرتبطة برؤية هلال شوال يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان، وبالتالي فإن تسمية اليوم السابق علي يوم عيد الفطر بالوقفة كان ينطوي علي خطأ. لكن ما كنا نراه في تلك الأيام هو أن الناس تتجهز للوقفة، فالجزارون - كالعادة - يعلنون عن ذبائحهم بالطواف بها في شوارع القرية، والناس يستعدون لشراء اللحوم أو الذبح في البيوت، فمن يريد أن يوفر نفقة اللحم يعمل حسابه لتوفير ذبيحة بيتية تليق بالموسم، مثل تزغيط دكر بط، أو تجهيز عدد من الديوك البلدي، أو غير ذلك.

مر يوم الوقفة كما تمر كل المواسم ، حيث تتحول القرية كلها في فترة العصارى إلي مطعم كبير موحد تتصاعد منه الأبخرة، وتجتمع الأسرة كلها بعد صلاة المغرب لتناول الوجبات الشهية، ثم ينام الجميع بعد صلاة العشاء مباشرة لكي يصحوا مبكرين. وهكذا صحوت فوجدت الوالدة قد صحت قبلي ووضعت حلة كبيرة مليئة بالماء علي الكانون الذي تشتعل نيرانه الصاعدة من خشب معد لهذه اللحظة. وما إن يبدأ الماء في الغليان حتى تأخذ منه مقداراً تضيفه إلي ماء بارد حتى يصير الماء فاترا وصالحا للاستحمام. ثم تحضر الأم الطشت النحاس الكبير وتطلب منا واحداً واحداً

أن نجلس في الطشت وتصب قدرا بسيطا من الماء لزوم استخدام الصابون الذي كانت تصنعه بنفسها في البيت، ثم ترش كمية كبيرة من الماء. وهكذا ننتهي من عملية الاستحمام التي كانت مفروضة صباح العيد. هذا ما كان يحدث معنا نحن الأولاد، ولم نكن نري الأب أو الأم لحظة الاستحمام، فقد كنا مشغولين بأنفسنا أو لعلهما كانا يسحبان الطشت إلي مكان مقفول حتى لا نراهما.

انتهيت من الاستحمام ولبست ملابس العيد الجديدة. والحق أن بعضها لم يكن جديدا. فالجلابية جديدة. وكذلك الشراب، لكن الحذاء تم شراؤه من سوق الكانتو في البندر، ولأنه معد بصورة جيدة وملمع فإنه كان يبدو جديدا. مررت علي الو لد مسعود وأخي الأصغر هو الآخر أخذ طريقه نحو أصحابه. وجدت مسعود مستعدا فانطلقنا نحو المسجد الكبير. جلسنا في أحد الأماكن في الصفوف الأخيرة، وعندما أعلن المؤذن: «الصلاة جامعة»، أمَّنا إمام المسجد لصلاة العيد، فبدأ بالتكبير، في الركعة الأولي سبعا، وفي الثانية خمسا. وبعد انتهاء الصلاة صعد المنبر وبدأ خطبة العيد، وبما أننا كنا في عيد الفطر فقد ركز علي إخراج زكاة الفطر، وحث الناس علي المحبة والمودة والتراحم والتكافل قي يوم العيد.

بعد الصلاة وسماع الخطبة انطلقنا في الشارع الضيق المؤدي إلي مقابر القرية. ولا أدري لماذا كان الناس حريصين علي أن يبدءوا يوم العيد بالذهاب إلي المقابر وقراءة الفاتحة للأموات. ولأن ساحة العيد قريبة من المقابر فقد مررنا عليها في الذهاب، ثم عدنا إليها بعد قراءة الفاتحة فوجدناها بدأت تمتلئ بالقادمين من كل أنحاء القرية. وكان البائعون قد أخذوا أماكنهم منذ الصباح الباكر. توجهنا مباشرة إلي الركن الذي يقف فيه حلمي العجرمي وسعاد يبيعان الشربات المختلف الألوان، فمنه الأحمر، ومنه الأصفر ،ومنه النبيذي، يوضع في برطمان زجاجي أبيض كبير، مرفوع

علي طاولة عالية، وتتعدد البرطمانات بتعدد الألوان. كان ثمة شيء خفي يشدنا إلي هذا الركن بالذات، مع أننا لم نكن نشتري شرباتا، فقد كانت أمي تحذرني من شراء الشربات لأنه معمول بطريقة سيئة وقد تؤدي إلي وجع البطن، لكني لم أكن أقدر علي عدم مشاهدة هذا الركن الذي يقف فيه حلمي العجرمي وسعاد. كان العجرمي ينادي علي شرباته قائلا: «بتاعي أحسن من بتاع سعاد». وكانت سعاد تقف صامتة ولا تتكلم كثيرا، ويبدو أنها كانت متأكدة أن العجرمي مهما قال أو فعل فإن شرباتها هي الأخرى سوف يباع ولن يبقي منه شيء، وأن العجرمي علي الرغم من خفة دمه، وصياحه المتواصل، وكلامه الذي يجذب الكثيرين، لن يسبقها في البيع، ولن يذهب إلي بيته قبلها. فهي بسحنتها الجادة، وجسمها الأبيض الممتلئ، وجمال وجهها الذي لم يؤثر فيه مر الأيام والليالي قادرة علي جذب الزبائن، وما أكثرهم ممن يفضلون أن يتعاملوا معها ولا يتعاملوا مع حلمي العجرمي. وكانت سعاد في الأيام العادية تبيع الخضار والفواكه، وبالطبع فإن لها هي الأخرى زبائن كثيرين. أما العجرمي فكانت مهنته الأساسية عربجيا عنده عربة كارو وحصان يستخدمها في نقل البضائع والأفراد من القرية إلي البندر والعكس، لكنه في يوم العيد كان ينقلب إلي شخص آخر، لدرجة أنه بالنسبة لنا كان يتحول إلي نوع من الفرجة التي تظل تذكرنا بيومي العيد علي مدار العام.

وبعد أن شبعنا من مشاهدة حلمي العجرمي وسعاد مررنا مرور الكرام علي الباعة الآخرين، وهم كثر. فمنهم من يبيع الحلوى بأصنافها المختلفة، وإن كانت كلها من الأصناف الرخيصة التي يقدر عليها أمثالنا من سكان الريف، ومنهم من يبيع اللعب مثل البالونات والزمامير وغير ذلك. وكان القريني يتخذ لنفسه ركنا خاصا يبيع فيه «أبو الرياح»، ولا شك فى أنه كان مشغولا جدا، فلم يكن ينفع معه أن نمر عليه في يوم العيد ونقوم له بصوت

عال: «السلام عليكم». ثم قال لي الولد مسعود: هيا نذهب إلي ساحة المراجيح. توجهنا إلي هناك. وكان لدينا في القرية في ذلك الوقت مرجيحتان: واحدة يقيمها نوار وزوجته نبيهة من قوائم خشبية عالية يمسكها من أعلي عرق خشب قوي يتدلي منه حبلان غليظان يوضع في أسفلهما قاعدة خشبية تستخدم مرجيحة، أما المرجيحة الأخرى فكانت حديثة مصنوعة من الحديد. وكانت هذه المرجيحة تلفت أنظارنا وتشدنا إليها لسبب واحد هو أن أحد شباب القرية واسمه مصطفي الجبالي كان يركب هذه المرجيحة الحديدية ويصعد لأعلي من ناحية ثم يهبط من الناحية الأخرى بطريقة تدل علي المهارة والقدرة علي الوقوف لحظة ورأسه لتحت ورجلاه معلقتان في الأعلى. كنا نتوقف لفترة طويلة أمام هذه المرجيحة وإن كنا لا نجرؤ علي الاقتراب منها خوفا من أن تصيبنا بسوء، أو نركبها لأن ما نملكه من نقود لا يكفي، وبالتالي كنا ننتقل إلي المرجيحة الأخرى لأنها أرخص وأكثر سهولة. وكان الولد مسعود أكثر جراة مني في ركوب هذه المرجيحة التي يحرص نوار وزوجته علي أن يكونا قريبين منها حتى لا يصاب أحد بسوء.

وحان الوقت لكي نترك ساحة العيد والمراجيح ونمر علي الأقارب ونأخذ العيدية، وإن كنا نعرف تمام المعرفة أن هذه العيدية تخرج من بعضهم بخلع الضرس. ولهذا كنا نختار من نمر عليهم. بدأنا بخالتي وجيهة، وكانت تسكن في حارة متفرعة من منطقة المصاطب. ذهبنا إليها ووجدنا الباب مفتوحا مثل كل الأبواب تقريبا في يوم العيد. كان زوجها الحاج حمودة الكفيف يجلس علي المصطبة الموجودة في مدخل الدار علي اليمين. سلمنا عليه ونحن نعرف أن لسانه لا يتورع عن الشتائم، وتوقعنا أن يشتمنا لكننا لم نلق بالا لهذا التوجس لأننا نعرف أن خالتي وجيهة مبسوطة اليد، وأن عيديتها أكبر من أي عيدية أخرى. لم نسلم بالطبع من لسان الحاج حمودة،

الذي نهض من علي المصطبة وتوجه نحو الداخل بقامته القصيرة، وجسمه المدكوك، وطاقيته الصوفية البيضاء، وعصاه التي يكشف بها الطريق. قال الحاج حمودة موجها كلامه إليَّ : «أين أبوك؟ أم أنه يلعب السيجة في يوم العيد أيضا؟». كان أبي مشهورا بأنه ثالث ثلاثة أو خامس خمسة في البلد يتميزون بالمهارة والحرفنة في لعبة «السيجة»، وهي لعبة تشبه، علي نحو ما، الشطرنج، يخطط لها في التراب، وتستخدم في اللعب حصوات كبيرة تسمي "الكلاب"، ولهذا كان من الأفضل أن يجلس اللاعبون علي كوم من الردم موضوع أمام أحد البيوت. وفي العادة يكون صاحب البيت من اللاعبين المهرة، ولهذا كان المقر الرئيسي للعبة السيجة أمام بيت مصطفي السردينة. هكذا كان يلقب، مع أنه لا يشبه السردين في شيء ، لأنه كان طويل القامة، ضخم الجسد، عالي الصوت، لهذا كان عند هزيمته يملأ الشارع كله ضجة وضجيجا. كان معظم لاعبي السيجة المهرة من الموسرين، أو من ذوي البنين الذين يكفونهم مشقة العمل في الحقل أو في البيت. أما والدي فلم يكن يملك هذا الامتياز لأنني وأخي الأصغر ثم أختي فيما بعد جئناه علي كبر، وبالتالي كان مطالبا بأن يكد ويكدح في البيت وفي الحقل، لكنه - والحق يقال - ضرب الدنيا طناشا وقضي وقتا طويلا في هذه اللعبة التي تحتاج إلي وقت. ولهذا أحسست بالسخرية الواضحة في كلمة الحاج حمودة، الذي كان معروفا بأنه غني وصاحب أطيان يعمل فيها الأجراء وأنفار اليومية.

استقبلتنا خالتي وجيهة - كعادتها - بترحاب شديد ومنحت كلا منا عيدية، مع أن المألوف والمتبع في القرية هو أن تمنح العيدية للقريب فقط.انتقلنا بعد ذلك إلي أقارب آخرين من الجهتين، لكن كل أقارب الولد مسعود التزموا التزاما صارما بالعرف والمألوف، ولهذا لم أخرج منهم بمليم واحد.

وبما أن الأفراح تكثر في أيام الأعياد، فقد منَّ الله علينا بفرح قضينا

في زفته فترة العصرية كاملة. وعلمنا أثناء ذلك أن قافلة قادمة إلي القرية لتقديم مسرحية وطنية بعد صلاة المغرب في ساحة الوحدة المجمعة. وكانت الثورة قد دأبت علي إرسال هذه القوافل إلي القرى لتوعية الناس، وتنمية الحس الوطني لديهم، وتعريفهم بالزعماء والأبطال الذين أفنوا حياتهم في خدمة المجتمع، كما أن ذلك كان جزءا من حالة التعبئة العامة التي أراد الرئيس جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة نشرها في كل أنحاء البلاد.

ذهبنا بعد انتهاء الزفاف إلي الوحدة المجمعة، وشاهدنا العمال وقد قاربوا أن ينتهوا من تجهيز المسرح، ووضع مكبرات الصوت. كانت هذه الأعمال تزيدنا غبطة وسرورا، وتملأ نفوسنا بطموحات وآمال عريضة.

وبدأ العرض المسرحي عن حياة الزعيم مصطفي كامل، وقد قدم الناس من كل مكان، حتى من القرى المجاورة ، لمشاهدة هذا العرض الذي قدمته الفرقة المسرحية بطريقة بارعة حسب حكمي عليه في ذلك الوقت. وقد جعلني هذا العرض الشيق أتقمص شخصية الزعيم مصطفي كامل، هذا الشاب الذي مات في سن مبكرة، لكنه دافع عن قضية الاستقلال بطريقة بارعة ومبتكرة، لاسيما خلال الفترة التي تجول فيها في العواصم الأوروبية لفضح سياسة الانجليز في مصر بعد مذبحة دنشواي المشهورة.

ولم يبق لنا بعد هذا اليوم الحافل الذي قضيناه كله خارج البيت، نأكل كعكة من هنا وقرقوشة من هناك، وتمرة عند هذا القريب أو ذلك، أقول لم يبق لنا إلا أن نعود إلي البيت. تناولت الطعام ، وكان يعتبر غداء وعشاء في آن، وهو عبارة عن طبيخ يسمونه «الدَّمعة»، وهي قطع لحم صغيرة مطبوخة في صلصة مع قليل من الخضراوات والبطاطس. ثم توجهت إلي القاعة، ووضعت رأسي علي المخدة، والأشياء التي شاهدتها طوال اليوم، تمر بذهني وكأنها شريط سينمائي يمتد أمامي، ولا ينتهي إلا ليبدأ من جديد.

سفر الخروج

عندما اصطحبني أبي إلي المدرسة في أول يوم ذهبت إليها فيه أوصاني قائلا: «اسمع يا ولد يا حماد، أنا مصمم علي أن تتعلم ، وأن تحصل علي شهادة. ولن تنقذ من الفقر إلا إذا تعلمت. لا أريد أن تكون مثلي». كان أبي قد صحا من نومه مبكرا، وصلي الفجر في الجامع القريب من بيتنا، وعندما عاد وجدنا جميعا متأهبين لاستقبال اليوم الجديد. تناولنا إفطارنا المعتاد: الخبز الناشف المصنوع في فرن البيت والمحفوظ في مشنَّة خاصة (بتشديد النون وفتحها) هكذا كانوا يسمونها، وجبنة قريش، ولبن رايب مضاف إليه قطعة من القشدة لتحسين طعمه، وجبنة حادقة. ولحسن الحظ كان عندنا في ذلك اليوم عسل أسود.فرغنا من الطعام وشرب أبي الشاي الذي كان يفضله ثقيلا، ثم ارتدي جلابية الخروج والطاقية الصوف البيضاء، والبلغة (بضم الباء)، وكان هذا هو الاسم الذي يطلق علي الحذاء المفتوح من خلف، وكان يعتز به كثيرا ويلبسه في المناسبات لأنه فصَّله عند صانع أحذية مشهور في القرية، ولهذا كان يقول عنه دائما : إنها بُلغة عمولة.

خرجنا إلي الشارع، وأخذ أبي -كعادته -يوزع السلام علي كل من يقابله من المارة أو الجالسين والجالسات أمام البيوت، وهؤلاء يردون «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اتفضل». وكانت كلمة اتفضل هذه لازمة لابد منها. ولا أدري كيف نتفضل؟ هل نترك أشغالنا ونجلس معهم أو معهن؟ أم أننا مدعون لتناول الإفطار والشاي مرة أخري ؟. لكنها علي أي حال عادة مازالت موجودة إلي الآن. وكان القريني عندما يرد علينا السلام لابد أن يلحق برده هذه اللازمة ، لكنه كان يتميز عن الآخرين بأنه يقولها بصوت عال جدا وحروف ممتدة مفخَّمة. ولا ندري هل كان سيترك صنع أبو الرياح ويقدم لنا الشاي أم ماذا؟

كنت أمشي مع أبي وأنا أختال بملابسي الجديدة: البنطلون القصير، والقميص ذي اللون الرمادي المتفق مع لون البنطلون، والحذاء الجديد، والشنطة القماش التي فصلتها لي أمي عند محفوظة بنت خالتي، ووضعت لي فيها القلم الرصاص المبري، والأستيكة، والدفتر أو الكراسة التي اشترتها من دكان علي اليماني. مررنا علي دكان الحاج غريب زاهر فوجدناه جالسا علي المصطبة أمام الدكان. سلم عليه أبي، ومضي في طريقه، ولكن الحاج غريب استوقفه قائلا: إلي أين أنت ذاهب مع ابنك يا حاج منصور؟ فرد عليه: أصطحبه في أول يوم إلي المدرسة. فرد بلهجة فيها سخرية: هل تريده أن يفشل مثلما فشلت أنت؟ ثم أضاف: يا حاج منصور، أنت رجل فقير ومحترم، وهذا هو ابنك الأكبر، دعه يساعدك في الحقل وانس حكاية التعليم هذه. ولكن أبي رد عليه بما يفيد أنه مصمم علي تعليمي حتى ولو اختصر من نفقاته أكثر مما اختصر. وفي هذا إشارة إلي عادة كانت معروفة عن أبي، ولم يكن يخفيها أمام الناس. فقد كان يشتري الدخان الفرْط (بتسكين الراء) وورقه الرقيق جدا، ويلف السيجارة ثم يقسمها نصفين توفيرا للنفقة. وبناء علي ذلك فإن الحاج غريب لم يكن متجنيا عليه في نصحه له بأن يوفر علي نفسه أيضا نفقاتي التي سوف أحتاجها عندما أدخل في التعليم، وأن المنفعة القريبة أفضل من المنفعة البعيدة. فعلي الأقل عندما أساعده في الحقل ابتداء من هذه السن الغضّة يمكن أن يزيد دخله، وبدلا من أن يقسم السيجارة نصفين يمكن أن يشربها كاملة. بل إنه يمكن أن يستبدل بالفرط دخان العلب الجاهز مثل العلبة كليوباترا أو غير ذلك. وبالطبع كان الحج غريب يعرف هذه الموضوعات جيدا لأنه صاحب دكان.

ترك أبي الحاج غريب ملوحا له، وكانت تلويحته هذه تعني أشياء كثيرة،

من بينها أنه غير موافق علي رأيه، وأن فشله هو -أي أبي- في التعليم لا يعني أن أفشل أنا أيضا، وأنه مصمم علي تعليمي مهما كلفه ذلك من ضغط وتوفير للنفقات، وأنه عزم عزما أكيدا علي نيته الخالصة في أن يهبني للتعليم. ولما كان من عادة والدي منذ صغري وبعد أن تفتح وعيي قليلا أن يشرح لي كل شيء فقد قال لي ونحن ماضون في الطريق: تعرف يا ولد يا حماد .. الحاج غريب هذا رجل غني وميسور، عنده أطيان كثيرة يؤجرها ويعيش من ريعها، والدكان أيضا يجلب له بعض الرزق، وهو متزوج من أجمل امرأة في العالم، ولم ينجب منها إلا بنتا واحدة. وهذا الكلام الذي قاله أبي جعلني بعد ذلك أدقق في النظر إلي الست زهيرة زوج الحاج غريب فوجدتها فعلا فائقة الجمال، بشرة بيضاء ناصعة، وقوام فارع مستقيم،ووجه حسن جميل القسمات، وابتسامة هادئة تنم عن اطمئنان وثقة بالنفس، وملابس أنيقة نظيفة وشفافة. ولا شك فى أن هذه المرأة الجميلة كانت علي دراية بالصلة الوثيقة التي كانت تربط بين أبي وبين زوجها ،لأنها عندما تراني أمر من أمام الدكان أو أشتري شيئا من عندهم تداعبني وتلاطفني وربما تعطيني شيئا من الحلوى .

وعندما اقترب أبي من مبني فخم يقع علي يسارنا شرح لي أن صاحب هذا المبني الذي يختلف عن معظم المباني الطينية في القرية كان زميله في الدراسة، وهو الآن شيخ في الأزهر يسكن في البندر ويرتدي الزى الأزهري اسمه الشيخ سيد النجار، وهو يسكن في هذا المبني الحجري أثناء الأجازات فقط،وقد تغير حاله بعد التعليم من النقيض إلي النقيض، فقد كان فقيرا جدا أثناء فترة الدراسة، لكنه الآن من الأثرياء، ومن الشيوخ الذين ينظر الناس إليهم باحترام شديد. وهو عندما يكون في القرية يخطب في الجامع، ويسمع الأهالي كلامه، ويحترمونه، ويبجلونه. ثم أضاف أبي: لهذا

أريدك أن تتعلم، وأن تجتهد في التعليم، فلعلك تصير مثل الشيخ سيد النجار.

فهل كنت يا أبي تقرأ الغيب؟ أم أنك صممت على أن ينجح بنوك في شيء فشلت فيه؟ أم أن الأقدار هي التي تصنع المصائر وتوجه الناس نحو ما هو مكتوب لهم؟. لكن الشيء المؤكد هو أنك كنت تصر، وكان إصرارك يزيدني حماسا، ورغبة في التفوق وتحقيق ما لم تستطع أن تحققه أنت. لقد عزمت بيني وبين نفسي منذ أول يوم دخلت فيه الفصل الدراسي أن أكون الأول دائما. وهذا ما فعلته طوال فترة الدراسة في المدرسة المشتركة. وفي الكُتّاب أيضا كنت أسابق الجميع وأسبقهم، وحتى في التعليم الإعدادي والثانوي والجامعي حرصت كل الحرص علي أن أظل في الموقع الأول. ولعلها تعليماتك المتواصلة التي لم تكف في أي يوم من الأيام عن نقلها إلي، وترسيخها في ذهني. لقد كنت أحس بك عندما تقابل أي شخص تعرف عنه أنه في التعليم الثانوي أو الجامعي فتطلب منه أن يختبرني في الحساب أو العربي أو التاريخ أو الجغرافيا، أو أي مادة أخري ، وتنبهه في البداية إلي أنني، وأنا الطفل المبتدئ، أتمتع بسرعة البديهة، وأنني يمكن أن أجيب عن سؤاله بسرعة دون أن أفكر وتأتي الإجابة سليمة. ولما كان هذا يحدث فعلا، وأجيب بسرعة إجابة صحيحة تقول له: ألم أقل لك إن لديه سرعة بديهة. وكان الشخص يؤمن علي كلامك لأن الواقع أكد له صحة ما تقول. بل إنك كنت تحكي لهؤلاء حكاية تدعم كلامك فتقول لهم: لقد حدث ذات مرة وأنا راكب قطار الدلتا أن قام هذا الولد حماد بنزع القلم من جيب محصل التذاكر، فنظر هذا إليَّ -يقصد نفسه - قائلا: ابنك هذا سوف يكون وكيل نيابة. كانت هذه الحكايات التي لا تمل من ذكرها، والأفعال التي لا تمل من تكرارها تمنحك الكثير من الأمل، والكثير من السرور والسعادة، وكأنك

كنت تستعيض بها عن الواقع المتأزم الذي تعيش فيه، أو كأنك تكفر بها عن الفشل الذي منيت به في بداية حياتك.

وصلنا إلي المدرسة المشتركة فوجدنا المدرسين والمدرسات والناظر يستعدون لطابور الصباح. كان ناظر المدرسة في ذلك الوقت هو الشيخ عبد الستار زاهر، وكان هو الآخر من زملاء أبي في التعليم، ربْعة، ممتلئ الجسم، تبدو عليه مخايل النعمة فهو من أسرة معظمها من الموسرين، وعنده أطيان كثيرة، وقد ظل محافظا علي ارتداء الزى الأزهري العمة والقفطان والجبة أو الكاكولا، هكذا كانوا يسمونها،ولا أدري إلي الآن من أين أخذوا هذا المسمي الثاني؟ كان الناظر والمدرسون في تلك الفترة حريصين كل الحرص علي الانضباط، ولذلك كانت المواعيد تحدد بالدقيقة فيما يتعلق بطابور الصباح، ودخول الفصول وغير ذلك، وإن كان الانضباط بصورته الكاملة غير معروف في بلادنا. رحب الناظر بأبي ترحيبا قويا، لاسيما أنه من خاصة أصدقائه، وأوصاه أبي أن يأخذ باله مني. وكان الناظر يعرف عن أبي حرصه الشديد عليَّ، واهتمامه بي بطريقة تفوق الوصف، لأني أولا ابنه البكر، ولأنه ثانيا لم يرني إلا بعد أن فقد الأمل في الخلف، لأن زوجته الأولي كانت عاقراً، ومع ذلك صبر عليها عشرين عاما كاملة، ولم يطلقها إلا بعد أن حدثت مشكلة تتعلق بميراثها. فقد ورثت من أبيها نصف فدان، تركته لإخوتها يزرعونه بدون مقابل. ويبدو أنها كانت خائفة من أن ينتقل ميراثها لزوجها وهي لا تنجب فيستولي عليه، أو أنها تضن بهذا الميراث علي رجل لا يربطها به إلا عقد زواج. وفي العادة لا يعترف أي شخص بأن سبب عدم الإنجاب يعود إليه. ولكن الشيخ حسين زاهر زميل أبي وصديقه الحميم والمقيم في البندر، كان متأكدا أن لديه القدرة علي الإنجاب وأن العاقر هي زوجه، هكذا كان يقول له. وقد أراد الشيخ حسين أن يختبر هذه

الفكرة فرسم خطة تقوم علي ما يلي: قال لأبي اطلب منها أن تتسلم ميراثها من إخوتها، فإن رفضت فإن لك الحق أن تطلقها وتتزوج غيرها، والنساء كثيرات، وهذا ما حدث، فقد رفضت بإصرار شديد أن تقوم بهذه الخطوة، فطلقها أبي وتزوج من أمي التي كانت قد استكملت عدتها بعد طلاقها من زوجها الأول. وولدت أنا بعد عام تقريبا من الزواج، فكانت فرحة أبي لا مثيل لها، وكأنه أول من أنجب في هذه القرية. وقال له الشيخ حسين: ألم أقل لك إنك تملك القدرة علي الإنجاب وإن تقصيرك في حق نفسك كان ضربا من الخطيئة؟!. ومن العجيب أن الشيخ حسين نفسه عاش حياته كلها بدون إنجاب، ولا أدري هل نفَّذ علي نفسه النصيحة التي أسداها لأبي، أم انه كان متأكدا من أنه هو شخصيا ليس لديه القدرة علي الإنجاب؟. وقد عرفته بصورة أوثق عندما استدعيت إلي منطقة التجنيد في الاسكندرية وعمري تسعة عشر عاما، وأعطاني أبي عنوان الشيخ حسين كي أبيت عنده،وليلتها قال لي: هل تعرف يا حماد أني كنت السبب في مجيئك إلي الحياة؟ فقلت له: بالطبع عرفت يا مولانا كل تفاصيل القصة، ولهذا فإني أعتبرك دائما والدي الروحي.

بعد انتهاء طابور الصباح أدخلونا الفصول، وكان كل أستاذ أو أستاذة يقف أمام تلاميذه وتلميذاته ويدخل بهم في الفصل. وقد كان مدرسنا في هذه السنة الأولى فى المدرسة المشتركة زميلا آخر من زملاء أبي اسمه الشيخ عبد القادر زيان، كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، سريع الانفعال وكانت أسرته مشهورة بذلك، ولكنه مثل كل المدرسين والمدرسات في ذلك الوقت كان ملما بالأصول التربوية، فضلا عن المعرفة الجيدة بمادته وبالمواد الأخرى، والالتزام والحرص علي الصالح العام. وقد تعودت منه أن يخاطبني بلقب الأسرة. وهكذا كنت دائما أحس أن أساتذتي من زملاء أبي،

وأني قريب منهم، ولعلهم كانوا يريدون أن يقدموا لأبي خدمة نابعة من زمالته القديمة لهم، واستمرار علاقته الطيبة بهم، وربما تكون هذه مجرد ظنون من ناحيتي، لأن المدرسة في ذلك الوقت كانت تحرص علي الصالح العام أكثر من حرصها علي أي شيء آخر، وبالتالي كنا جميعا متساوين في الحقوق والواجبات، ولعل كل التلاميذ كانوا يحسون مثلي أنهم مناط الاهتمام والرعاية والرغبة في تربية جيل جديد صالح لخدمة المجتمع.

حقن الطرطير

لم تكن حقن الطرطير بالنسبة لنا مجرد حقن تُشك بها أجسادنا الغضة من أجل القضاء على البلهارسيا، ولكنها تحولت إلي عالم متكامل الحلقات نعيش فينا ونعيش فيها، لدرجة أنني إلي الآن مازلت أراها كامنة في الذاكرة، وكأنها شخصية تشبه الشخصيات الأخرى مثل حلمي العجرمي، والقريني، ومسعد الحمّار وغيرهم. فحقن الطرطير صارت في نظرنا عالما قائما بذاته، يندرج ضمن عوالم أخرى كالوحدة المجمعة، والممرضة الجميلة القادمة من البندر، والممرض الأنيق، والطبيب، وسكن هؤلاء داخل الوحدة المجمعة في مساكن خصصت لهم. وجميعهم، وكذلك أحولهم المعيشية، وهيئاتهم كانت جديدة علينا. وكان تصرفنا إزاءهم يختلف عن كل ما عهدناه في أيامنا السابقة.

فأهل قريتنا قبل إنشاء الوحدة المجمعة لم يكونوا يهتمون بشخص يقال عنه إنه الطبيب. وكانت أحوالهم الصحية تعالج إما بالرقية، أو استدعاء الحلاق الذي يطلقون عليه لقب " المزين"، بتشديد الياء.وكان بالقرية عدد من المزينين يستحق واحد منهم فقط أن يحمل لقب الطبيب. ولا أدري لماذا كان الأمر يقتصر علي واحد؟ ولهذا كنت تراه مشغولا دائما، إما في الحلاقة التي هي مهنته الأساسية، وإما في معالجة الأمراض، وهي المهنة الإضافية التي اكتسبها من مخالطته لأطباء البندر، أو لاصطحابه لبعض الحالات الحرجة المتأخرة التي يعلن عجزه عن معالجتها، وبالتالي يضطر أهل المريض للنزول علي رأيه، وإن كانوا يطلبون منه أن يذهب معهم إلي طبيب البندر،وكان يعرف عددا من الأطباء في كل تخصص، وكان هؤلاء يعاملونه وكأنه واحد منهم. ولم يكن باقي المزينين يملكون هذه الإمكانية، لكنهم كانوا مطلوبين داخل القرية، وخصوصا من زبائنهم الذين يتعاقدون معهم علي

"ميسانية" للحلاقة، هكذا كانوا يسمونها، والميسانية هي أن يدفع له في موسم الحصاد، في مقابل الحلاقة كيلة من الذرة أو من القمح. أما متابعة الأمراض فكان يدفع لها قروشا قليلة جدا، وربما تحسب علي أنها داخلة ضمن الميسانية.

وكانت طهارة الصبيان تدخل أيضا ضمن عمل الحلاق، علي عكس البنات اللاتي كانت القابلة هي التي تتولي هذه العملية. ومن سوء حظ العبد لله أن الحلاق الذي ارتبطنا به كان غشيما، بل كان في قمة الغشم، فقد استدعاه أبي ليطاهرني، فحضر بشنطته القديمة التي يطل الصدأ من جوانبها، أما جلدها فقد استحال من طول الاستعمال إلي لون باهت ممسوح، وعندما فتحها ظهر التراب وقد تحول بفعل الرطوبة إلي كائن لزج يحتضن الموس وماكينة الحلاقة و المشط والفوطة، وهي أشياء يبدو أنها لم تتغير منذ زمن طويل. طلب أن يحضروا له «السبرتو» والقطن الطبي وبعض ما يلزم للطهارة فأحضروا له كل هذا، وانتهي الحلاق من عمليته في دقائق معدودة، وهو لا يدري أن أدواته البالية وقلة مهارته، وعدم خبرته قد لوثت الجرح وأورثتني حالة من المرض استمر علاجها لشهور طويلة.

وكان من الممكن أن يذهبوا بي إلي طبيب فور ظهور الالتهابات، ولكنهم لم يفكروا في هذا إطلاقا، بل استسلموا لنصيحة الحلاق الغشيم بأنه سوف يواصل متابعة الجرح الملتهب، ويغيِّر عليه يوميا باستخدام الميركوكروم وكان أيامها هو الدواء الذي يستخدم في معالجة الجروح، وهو عبارة عن سائل أحمر يوضع علي الجرح، وقد يزاد عليه رباط من قطن وشاش. ولكن الجرح بعد أيام طويلة لم يلتئم، وتفاقمت الحالة، ومع ذلك لم يفكروا في الذهاب إلي طبيب، بل استمعوا لآراء الناصحين، ومن بينهم الحلاق الغشيم بأن الحالة ليست حالة جرح عادي يمكن شفاؤه بالأدوات الطبية المتاحة وإنما هي حالة تحتاج إلى العرض علي شخص ممن يقال عنهم إنهم

أصحاب معرفة، أي يقرأون الكتب، ويتعاملون مع الأسياد من الجن والعفاريت، ويكتبون الأحجبة. وقد أشار هؤلاء علي والدي بشخص يسكن في قرية قريبة من محلة منوف فحملني الوالد والوالدة وتوجها بي إليه، وكانا يتبادلان الركوب علي الحمار إلي أن وصلنا إليه فوجدناه جالسا في قاعة من قاعات داره، والمرضي من أمثالي مع أسرهم جالسين في باحة أمام الدار، والجميع ينتظرون دورهم. وعندما دخلنا إليه نظر في الجرح، وتمعن فيه كثيرا ثم قال لأبي" إن هذا الجرح أصبح في غاية الخطورة ويمكن أن يقضي علي حياة الطفل"، فقال له أبي: لهذا أتينا إليك فما العمل؟ فرد بأن أي علاج بالرقية أو باستخدام الوسائل الأخرى لن يأتي بأي نتيجة. وبالتالي لم يعد يصلح إلا علاج واحد هي الكي بالنار، فهو العلاج الوحيد الناجح في مثل هذه الحالة الخطيرة. وهذا العلاج ليس موجوداً عندي، وإنما عند الشيخ علوان في قرية بريك الحجر القريبة من قريتكم.

وهكذا عدنا من هذا المشوار الطويل لنتأهب، في يوم تال، لمشوار آخر أقصر نسبيا. وفي الصباح توجه ركبنا نحو قرية بريك الحجر، والشمس تنشر أشعتها الأولي فوق رءوس الأشجار، وفي المزارع والحقول، والناس من كل الأعمار ينتشرون في الطرق متوجهين إلي أعمالهم. وأبي كعادته يلقي سلامه وتحياته علي كل من يقابله. ولو أنني كنت كبيرا في تلك اللحظة لقلت له: «لماذا تنشغل بهذه الأشياء الهامشية، بينما كان من الأجدى والأهم أن تفكر فيما يصلح شأني، ولا تتركني ليد هذا الحلاق الغبي تعبث بي وتجعلني أصل إلي هذه الحالة المتدهورة التي يمكن أن أفقد فيها حياتي». وصلنا إلي دار الشيخ علوان فوجدناه أيضا يجلس في قاعة لكنها كانت واسعة نسبيا، والناس ينتظرون أدوارهم من أجل الكي بالنار في الباحة المقابلة. وجاء دورنا فدخلنا وبدأ الكي بالنار. والحق أني لم أدر بشيء، ولا أعرف حتى هذه اللحظة ماذا حدث. كانت النتائج أهم من كل ما حدث،

وهي علامات حرق تفترش مساحات في البطن وفوق العضو الذكري وتختلف المساحة وفقا للمكان، فمساحات البطن أكبر وتشبه الدوائر والمساحات الأخرى أصغر. ومازلت إلي الآن أنظر لهذه الدوائر وأقول لها لقد كنت السبب في شفائي من ذلك الالتهاب القاتل الذي أوشك أن يقضي علي حياتي في سنوات الطفولة البريئة التي كنت خلالها مستسلما لما يفعل بي الآخرون.

لكل هذا كان افتتاح الوحدة المجمعة بالنسبة لنا حدثا مهما، خصوصا أنها كانت تشتمل علي وحدة صحية. صحيح أنها كانت تخلو تقريبا من الدواء، وكل من يذهب إليها يقدمون له شرابا واحداً يسمونه «الحديد» وبعض الأقراص إن وجدت، لكنها علي الرغم من كل شيء فتحت في حياتنا بابا جديدا، فيمكن أن تذهب إليها بدون استشارة الأهل، وتقطع تذكرة مجانا، وتدخل للطبيب يكشف عليك ويعطيك دواء. وبما أن معظمنا كان يعاني من البلهاريسيا، فقد أصبح الطريق إلي الوحدة المجمعة، لاسيما في فترة الأجازة الصيفية، شوطا يوميا، نقطعه ذرافات ووحدانا. يكتب لنا الطبيب حقن الطرطير لمدة محددة، فنرتب مع بعضنا البعض وبما أن الولد مسعود هو أقرب الأصدقاء إليّ، فإنني أذهب إليه قبل الموعد بنصف ساعة تقريبا، فأجده جاهزاً. نقطع الطريق إلي الوحدة المجمعة وكنا قد بدأنا نلتزم بالعادة المتبعة، وهي أنك لا تمر علي أحد إلا وألقيت عليه السلام، فيرد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اتفضلوا. فنقول له: عشت، أي منحك الله طول العيش. وهذه العادة كان بعض الزملاء الأكبر مّنا سنّا يبالغون فيها. أذكر أن الولد المسمي «الدسوقي» كان ذات يوم يحمل السباخ من بيتهم إلي الحقل في «غبيط»، هكذا يسمي، يوضع علي الحمار. وكان من عادة الحاج حامد الشامي أن يجلس علي مصطبة أمام بيته في الصباح وبالتالي فإن الولد الدسوقي يمر عليه في الذهاب والإياب، أي والحمار

محملا بالسـ اخ أو محملا به نفسه. وقد زودها الولد الدسوقي كثيرا فهو يلقي السلام ذاهبا آيبا علي الحاج حامد، والحاج حامد يضطر أن يرد عليه، وربما قال له اتفضل في أول مرة.وتحمل الحاج حامد ذلك مرتين وثلاثاً وخمساً، ولكنه في المرة السادسة قرر أن يحضر عصا طويلة، وجاء الولد الدسوقي فقال: السلام عليكم، فجري وراءه الحاج حامد بالعصا وهو يقول له: انتظر يا بن الكلب. ولما رأي الولد الدسوقي العصا، والغضب يطل من عيني الحاج حامد ترك الحمار وانطلق هاربا. ويبدو أنه قرر يومها أن يكتفي بالنقلات الست التي ذهب بها إلي الحقل، لأنه خاف أن يمر علي الحاج حامد فيجد غضبه مازال في حالة احتدام، وربما لأنه لم يجد حلا لمشكلة كيف يمر علي أحد و لا يلقي عليه السلام.

وصلنا إلي الوحدة المجمعة قبل موعد أخذ الحقن، فقطعنا الملعب الرياضي الواسع الذي أقيم من أجل أن يكون بالقرية فريق رياضي، إضافة إلي أنه كان يعتبر حوشا للمدرسة الابتدائية، ثم مررنا علي الفصول التي كانت مغلقة، إلي أن صرنا أمام الوحدة الصحية. كان هناك طابور طويل من الصبية والفتيان ينتظرون أدوارهم لدخول الحجرة المخصصة لاحقن. وكان الطبيب في حجرة الكشف يكشف علي المرضي ويعطيهم الوصفة الدوائية التي يذهبون بها إلي الصيدلية لصرفها. لم تكن القرية قد تخرج فيها أطباء بعد لأن هذه مرحلة جاءت بعد ذلك في منتصف السبعينيات، ومن ثم كان لابد أن يأتي الطبيب من البندر، ولذلك كانت هيئته مختلفة، فهو يرتدي حلة أنيقة، أو قميصا وبنطلونا نظيفين مكويين، وفوقهما بالطو أبيض شفاف، ينسجم تماما مع وجه رائق صاف،وشعر أسود لامع، وذقن محلوق بعناية وإتقان، وشارب كثيف، ونظارة طبية يبدو من شكلها أنها غالية الثمن. ومن المؤكد أن الطبيب لم يكن يتعامل مع حلاق علي شاكلة حلاقنا الغشيم المسمي زكي، ولم يكن يجلس القرفصاء أمام الحلاق الذي يطلب منه

أن يدير وجهه علي النحو الذي كان يفعله زكي معنا. وعلي الرغم من هذه الطلعة الجميلة للطبيب فإنني لم أكن أنظر إليه طويلا، وإنما يتركز نظري علي الممرضة الجالسة أمامه لتساعده. كانت امرأة رشيقة الجسم، جميلة الوجه، يميل لونها إلي الاحمرار، مع عينين جذابتين، وشعر ترسله علي كتفيها. وقد انسدلت جونلتها علي ساقيها، وبدت ألوان بلوزتها لامعة مصقولة. كانت مختلفة تماما عن نساء قريتنا لاسيما وأن المتعلمات في ذلك الوقت كن في بداية الطريق، أي في سن الطفولة. أما الممرضة التي كانت تعطينا حقن الطرطير فلم تكن علي درجة من الجمال تجعلنا نحملق فيها، إذ كانت بدانتها الظاهرة تقضي علي العنصر الجمالي فيها.

جاء دورنا لأخذ الحقنة، وكانت حقنة واحدة تستخدم للجميع، ولا يتغير فيها إلا السائل المسمي «طرطير». دخل الولد مسعود أولا وأخذ الحقنة، ثم دخلت أنا، ولأنها كانت تؤخذ قبل الإفطار فقد جهز كل واحد نفسه بقليل من الخبز أو البتاو والجبنة القريش. ثم انطلقنا عائدين إلي بيتينا نجر أرجلنا جرا، لأن حقنة الطرطير كانت تجعلنا نصاب بحالة هبوط، ولهذا كانوا ينصحوننا بشرب كوب من اللبن عند العودة إلي المنزل. وبما أني في كثير من الأحيان لا أجد الوالدة في البيت لأنها ربما تكون قد ذهبت إلي الحقل أو لأي شأن آخر، فإني كنت بمجرد الوصول إلي البيت أتوجه مباشرة إلي خزانة اللبن فأجد الطواجن مرصوصة، بعضها حديث وبعضها أصبح رائبا وتكونت فوقه طبقة من القشدة. وهنا آخذ كوبا من اللبن الذي مازال حليبا، وأقشط طاجنا كاملا، وبهذا أحس أني تجاوزت حالة الهبوط التي تسببت فيها حقنة الطرطير.

٢

القسم الثانى

الانتقال

عندما أتممت الصف الخامس من المدرسة الابتدائية قال لي والدي إن صديقه الشيخ حسين زاهر -وهو رجل يثق في حكمته وحسن تفكيره- حدثه أنه من الأفضل أن أترك المدرسة وألتحق بالمعهد الديني الأزهري في طنطا. ولا أدري لماذا راقت لي هذه الفكرة؟ هل لأني سوف أترك القرية وأنتقل للدراسة في البندر؟ أم أني سوف أسبق زملائي بسنة كاملة؟ مع أني لم أفكر أن الأزهر في ذلك الوقت كان يزيد علي التعليم العام بثلاث سنوات لأن مرحلتيه كانتا تتكونان من أربع سنوات إعدادي وخمس سنوات ثانوي. ومن المؤكد أني لم أكن أدرك ذلك الفارق الواسع في عدد السنوات. فكل ما كان يهمني هو أن أسبق زملائي بعام كامل، وأن أصبح من سكان البندر عل الأقل طوال العام الدراسي، وأن أثير حسد الرفاق علي هذه النقلة التي كانت في نظري كبيرة ومهمة. ومن المؤكد أن الزميلات من البنات سوف يخامرهن إحساس فياض تجاهي، أنا الذي كنت الأول في فصلي، وربما علي المدرسة كلها طوال السنوات الخمس التي قضيتها في المدرسة المشتركة.

وخلال الفترة التي سبقت تقديم أوراقي للالتحاق بالمعهد الديني، وأثناء الاستعداد لامتحانات القبول هاجمتني الأحلام بقوة، سواء في اليقظة أم في المنام. فمرة أحلم بأن البنت سناء هذه العصفورة الجميلة الأمورة قررت أن تأتي معي لتلتحق بالمعهد الديني لأنها لا تريد أن أفارقها، مع أني كنت أعرف أن المعهد الديني ليس فيه اختلاط بين الجنسين. ومرة أخرى أري البنت أنوار الذكية اللعوب الدلوعة تصحبني في رحلة الذهاب إلي البندر، بل وتركب خلفي علي الحمار حتى نصل إلي وكالة السباعي، ونتركه هناك، ثم نذهب إلي المعهد الديني سيرا علي الأقدام، نقطع شوارع البندر، ونمر علي

باعة الفواكه في باحات مسجد السيد البدوي، ونمتع أعيننا بالنظر إلي المحلات ومعروضاتها من الأقمشة، والأواني، والنحاس، والحمص السوداني، وحلاوة المولد وغير ذلك مما تعج به المنطقة المحيطة بالمسجد، والشارع المؤدي إلي المعهد الديني المسمي «شارع السكة الجديدة». وكان هذا الشارع مملوءا بمطاعم الكباب والكوفتة والأسماك من كل الأحجام والأنواع، وغير ذلك. وفي بعض الأحلام كنت أكتفي بلقاء البنت أماني، ابنة مدرس اللغة العربية، علي شاطئ الترعة القريبة من بيتنا أو حتى علي شاطئ المصرف الذي يمر بقريتنا. فلم يكن المهم هو المكان، بل المهم هو هذا اللقاء العاطفي الحميم الذي تعلن فيه الحبيبة أماني أنها حزينة جدا علي أني سوف أتركهم، وأنها سوف تظل متمسكة بى للأبد. فهل كنت أحب كل هؤلاء البنات؟ أم أني كنت في هذه السن البريئة أستشرف مرحلة شعرية سوف تصبح فيها كل نساء العالم صورة رمزية لامرأة واحدة، كما نجد عند الشاعر الأسباني بدرو ساليناس (من جيل ١٩٢٧)، أو عند الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في ديوانه "بستان عائشة"؟ بل إن هذه الفكرة صارت قاسما مشتركا عند معظم الشعراء.

اجتزت امتحانات القبول بنجاح. وعندما أزف موعد بداية العام الدراسي أعد الوالد نفسه للذهاب إلي البندر وشراء ما يلزم للحضور. وكعادته في مثل هذه المشاوير اتفق مع ابن أخته الحاج محمود النشار، وهو معروف بشطارته في الشراء، أن يأتي معنا. هلت أنوار الفجر القرمزية فصحا أبي من نومه وأدي الصلاة في المسجد في الوقت الذي تأهبت فيه للرحلة. لبست الجلباب النظيف، وسرحت شعري الذي لم يكن يعتدل أبدا بسبب الخبطات التي كان يتركها فيه الحلاق الغشيم، لكنه علي أية حال ليس منعكشا ولا مقلفلا لأن المشط الذي خصصته لي الوالدة كان فعالا ويستطيع أن يداوي كل الخبطات. أحضرنا الركوبة من حظيرة المواشي وزيناها بالبردعة المعدة

السفر وانطلقنا نحو دار الحج محمود. كان الجو في ذلك الوقت الخريفي منعشا، والشمس ترسل أشعتها الحمراء اللطيفة في كل الأنحاء، والنسيم العليل يداعب ذوائب الأشجار في خفة ومرونة، فيصدر عنها ما يشبه الموسيقي الهادئة الحالمة، التي تتلاقي مع الخطوات الموقعة لأرجل الناس، والدواب، والأنعام. والجميع متوجهون نحو أعمالهم أو شئونهم الخاصة.

وصلنا إلي دار الحاج محمود فوجدناه مستعدا بركوبته المطهمة، وطاقيته البيضاء الناصعة، وجلبابه المائل للصفرة، ويبدو أنه كان يفضل هذا اللون الهادئ ، لأنها لم تكن صفرة فاقعة، بل كانت صفرة بلون السمن، وكنت أسمع كثيرا عن الحاج محمود -وهو بالطبع ابن عمتي وإن كان عمره يقترب من عمر والدي -أنه شغوف بالسمن، ويعتقد أنه مهم جدا للصحة. ويبدو أن هذه النظرية عند ذلك الجيل كانت صحيحة، بمثل ما كانت شائعة. فأمي كانت تحكي لي أنها في صباها كانت تأكل السمن، وأن هذا هو السبب في أنها ظلت بصحتها حتى تعدت التسعين من عمرها. كان الحاج محمود أيضا عندما يسلق بيضا يحمِّره في طبق من السمن، ويلتهمه بشهية. ولهذا كنت تري وجهه محمراً مثل جزرة، أما بنيته الجسدية فإنها تنم عن صحة قوية ، جسد ممتلئ متماسك، وعضلات مفتولة، وقامة فارعة، ومع سعة وجه، وعظم أنف، وكبر منخرين ، وبروز وجنتين. ولا شك فى أن الحاج محمود ظل يتمتع بصحة جيدة طوال حياته، ولهذا عندما هاجمه المرض قبل وفاته بسنتين تقريبا كنت كلما زرته أجده يبكي بحرقة وكأنه يتحسر علي أيام شبابه التي مضت إلي غير رجعة. فقد كانت حياته حركة مستمرة لا تهدأ أبدا، فكيف يأتي يوم يقعده فيه المرض أو يمنعه من الحركة واللف والدوران ومناكفة أصحاب المحلات في البندر؟

ركب الحاج محمود حماره، وانطلقنا نقطع الطريق من قريتنا إلي البندر. مررنا كالعادة علي عزبة الخضري، ثم عزبة صالح، ثم عزبة الأوقاف القريبة

من قرية سبرباي ، ثم قطعنا شوارع قحافة حتى وصلنا إلي أول شارع سعيد. ووصلنا إلي شارع السباعي وتركنا الحمارين في الوكالة. توجهنا بعد ذلك إلي منطقة جامع السيد البدوي، بعد أن عبرنا سوق الكانتو ثم حلقة السمك التي تكاد تقتصر علي بيع السردين والملحات وكان بها بائع سردين معروف للناس جميعا لأنه كان يتميز عن الجميع بعمته الحمراء. ومن الواضح أن هذا التميز كان يجذب إليه الزبائن. فإذا أردت أن تشتري سردينا أو فسيخا قالوا لك اذهب إلي «أبو عمة حمراء»، وإذا أردت أن تأخذ موعداً قالوا لك: «عند محل أبو عمة حمراء.. الخ». ولم يكن وجهتنا في ذلك اليوم سوق الكانتو، ولا حلقة السمك، ولا جامع السيد البدوي، بل كان هدفنا الأساسي شراء الزى المطلوب للحضور في الأزهر: عمة وكاكولا (ولا أدري لماذا كانت تسمي هكذا؟) أو جبة، وقبقاب، وشنطة. وكان من الممكن أن نشتري القبقاب أولا من شارع الخان قريبا من المسجد، ولكننا تركناه للآخر، ولهذا توجهنا مباشرة إلي المنطقة التي تباع فيها العمم والكواكيل وهي قريبة من محطة السكة الحديد والمعهد الديني الثانوي.

دخلنا أحد المحلات فقابلنا صاحبه بترحاب شديد، لاسيما الحاج محمود الذي كان معروفا لدي جميع التجار. لم يكن المحل واسعا، لكنه كان يتسع لعدد كبير من الكواكيل من كل الأحجام والألوان معلقة علي شماعات. اخترنا كاكولا بنية اللون، معقولة الثمن تناسب حجمي الصغير، وعمة حمراء لف عليها البائع شالا أبيض، ناصع البياض، وقلوظها بطريقة تثير العجب والانتباه. وعند التفاوض علي الثمن هدد الحاج محمود البائع - كعادته -بأنه ليس مضطرا للشراء من عنده، ويمكن أن يجد أسعاراً أخرى أقل من هذا السعر بكثير عند باعة آخرين. ولأن البائع كان يعرف جيدا أن الحاج محمود خبير في الشراء وأنه يعني ما يقول تنازل كثيرا في السعر. دفع والدي المبلغ واقترح البائع أن يلبسني بنفسه العمة والكاكولا لكي نقوم

بجولة في الشوارع نجرب فيها الزى الجديد، ثم إنها فرصة مهمة كي يراني الوالد والحاج محمود وأنا أرفل في هذا اللباس القشيب الذي سوف يؤهلني لأكون أحد علماء الأزهر.

وضع البائع العمة الملفوظة علي رأسي، وألبسني الكاكولا علي الجلابية الريفية التي حضرت بها قائلا لي: ألف مبروك. انطلقنا في الشوارع مفضلين المرور من تحت النفق المؤدي إلي سيجر وهي قرية قريبة جدا من طنطا. ولم يكن أبي يتصور أن العمة يمكن أن تطير تحت النفق، بمعني أن تخطف خطفا. فقد طاردنا عدد من الشباب الأشقياء يركبون دراجات وهم يرفعون أصواتهم بالعبارة التالية التي تشبه بيتين من الشعر والتي تقول:

شـــد العمة شـــد   تحـت الـعـمـة قـرد

شد العمة يا أستاذ   تحت العمة باجور الجاز

وتجرأ أحدهم فمد يده يريد خطف العمة، ولكن الحاج محمود رفع عصاه في تلك اللحظة وضربه ضربة قوية علي يده، مما جعل الآخرين ينفجرون في الضحك. ولا أدري هل كانوا يضحكون علي صاحبهم الذي أخذ ضربة قوية أم كانوا يضحكون علي منظري؟ فقد كنت صغير الحجم، قصير القامة، دقيق الرأس، أرتدي زيا لا يتناسب أبدا مع منظري.فهو لبس لا يليق إلا بكبار السن من الكهول والشيوخ، أو علي الأقل من الشباب طوال القامة أقوياء الجسم. أما أنا فكنت أتعثر في هذا اللبس، ولكن ما كان يدور في أعماقي عكس ذلك تماما. فهناك حالة من التيه والفخار، وربما العظمة، انتابتني، لكن نشيد الصبية ومحاولتهم خطف العمة جعلني أخرج تماما من هذه الحالة. بل إن محاولة الخروج لازمتني طوال دراستي في المعهدين الإعدادي والثانوي، فكنت لا أرتدي العمامة والكاكولا إلا بعد الدخول من بوابة المعهد. ومن المؤكد أن هذه لم تكن حالتي وحدي،فمعظم الطلاب كانوا كذلك. ولأن الحيلة تفتق الوسيلة فقد ظهرت أمام بوابات المعهد

محلات كانت مهمتها تلقي العمم والكواكيل من الطلاب عند خروجهم من المعهد وتقديمها لهم عند الدخول. كنا نكوِّر العمامة ونضعها في جيب الكاكولا، وبعضنا كان يرميها من بعيد للعامل الواقف أمام المحل فيتلقفها بحب وترحاب لأنهما كانا مصدر رزقه.

قال الحاج محمود ابن عمتي بعد أن فرغنا من مهمتنا الكبرى: لم يبق لنا إلا شراء القبقاب. ذهبنا مباشرة إلي شارع الخان وتوقفنا أمام محل القباقيب. كانت القباقيب المعمولة من الخشب أشكالا وأنواعا ، وتختلف أثمانها وفقا للنوع والشكل. فمنها القبقاب العادي رخيص الثمن، ومنها القبقاب الملون أو المحمل ببعض الزينة، ومنها القبقاب العالي والآخر المنخفض. اختار أبي قبقابا عاديا ثمنه قرشان فقط، وكان البائع مصمما علي ثلاثة قروش، لكن الحاج محمود هدده بأنه سوف يذهب إلي غيره. فرحت فرحا غامرا بهذا القبقاب الذي مثَّل بالنسبة لي امتيازاً من نوع آخر. ذلك أن الولد مسعود لن يكون لديه هذا العام مثل هذا القبقاب، وكذلك الزملاء الآخرون في المدرسة المشتركة. فقد حق لي أن أفخر بأني صرت واحداً من البندر، ألبس القبقاب وأطرقع به في الشوارع، ومن باب التطبيق الفوري لهذه الحالة الجديدة خلعت الحذاء الرخيص الذي اشتريناه منذ شهور من سوق الكانتو، ولبست القبقاب ومشيت مع والدي والحاج محمود أطرقع وأنظر إلي الناس وكأني أتوقع منهم أن يشاركوني فرحتي الغامرة.

شقة حفيظة

مع بداية العام الدراسي كانت الشقة في طنطا جاهزة، إذ كان يسكن فيها منذ سنوات أخي الأكبر، وهو أخ لأم، كانت أمي تقول عنه دائما إنه «فضلة الكبة»، ولا أدري إلي الآن ما هي الكبة (بضم الكاف)؟ ولكني كنت أفهم أنه الوحيد الذي بقي لها من زواجها الأول. كان طالبا في السنة الثانية بالمعهد الديني الثانوي. وكانت حفيظة عمته، وهذه الشقة تابعة لها ورثتها عن زوجها الذي كان يعمل علي عربة كارو، هكذا كانت تسمي، وهي العربة التي يجرها حصان أو بغل أو حمار. ولا أعرف هل كانت الشقة ملكا لها أو كانت مؤجرة؟ فكل ما أعرفه أنها كانت تؤجرها لأخي أثناء فترة الدراسة بثلاثين قرشا في الشهر، ثم زاد المبلغ إلي خمسين قرشا عندما حضرت لأشاركه السكن فيها. وقد شاركنا في السكن فتي من عزبة مجاورة لعزبة أخي جاء للدراسة في التعليم الإعدادي. وكان أبوه من أغنياء المنطقة، لكنه ربما فضل أن يكون معنا لصلة قرابة كانت تربطهم بوالد أخي، الذي كان هو الآخر من أصحاب الأطيان، لكنه كان شديد التقتير فيما يتصل بابنه الذي طلق والدته وتزوج بأخرى.

ولا شك فى أن شقة حفيظة هذه كيان لو أنك عشت فيه لا يمكن أن تنساه طول حياتك. فهي شقة تبدو وكأنها معلقة في الجو، ولهذا فإني مازلت إلي الآن كلما تذكرتها -سواء في صحو أو في منام -أحس بقشعريرة طالما أحسست بها طوال فترة سكني فيها. فهي تقع في الدور الثالث في بيت مكون من أربعة أدوار، مبني من الخشب، هكذا يبدو في الظاهر، وهذا ما أذكره إلي الآن، لأني لم أتحقق في أي لحظة أن هناك هيكلا خرسانيا يختفي تحت الخشب، وأنه يحمي هذه الأدوار الأربعة من السقوط. صحيح أن كل دور منها عبارة عن حجرة واحدة متوسطة ملحق بها دورة مياه صغيرة، ومساحة صغيرة أخرى ربما تصلح مطبخا، أي أن

المساحة الكلية للشقة لا تزيد علي عشرين مترا مربعا، لكنها في النهاية تعتبر شقة تؤجر بمبلغ لا بأس به في الشهر الواحد، والبيت له باب وسلم كله أيضا من الخشب، والشقة كلها عبارة عن خشب في خشب: الحوائط والشبابيك والسقف. ويمكنك أن تفتح الشباك وتنظر إلي المارة،والسيارات الملاكي، وسيارات الأجرة، والنقل، وعربات الكارو وغيرها في هذا الشارع الواسع، والذي يمثل امتداداً لشارع الخان، أي هذه المنطقة التجارية في طنطا التي تشمل باحات مسجد السيد البدوي، وحلقة السمك وشارع النحاس، وهو شارع تجهيز العرائس، وأسواق الحمص، والملابس وغير ذلك. أي أن الشقة واقعة في منطقة شديدة الحيوية، ومن ثم فإنه يمكنك أن تنسي تماما أنك معلق في الهواء وتستمتع بالحركة النشيطة في هذه المنطقة الحيوية، التي كانت مملوءة كذلك بالباعة الجائلين، وباعة الحلاوة و العرقسوس وسواهم.

وكان كل دور، أو بالأحرى كل شقة، تتحمل سكن أسرة كاملة مكونة من أب وأم وأبناء. فالشقة التي تحتنا يسكنها موظف يعمل محضرا في المحكمة، و الشقة الرابعة يسكنها مدرس لغة عربية، والشقة التى فى الدور الأرضي تسكنها أرملة، وكل هؤلاء مع أولادهم. ولا أدري هل كان بعض أبنائهم مثلي يتخيلون أن الشقة يمكن أن تطير بهم في أي لحظة؟.

لم يشتر والدي أي أشياء لتجهيز الشقة، لأنها كانت جاهزة تماما في عُرفه وفي عُرف الجميع. ففيها سرير متوسط يتسع لنومنا نحن الثلاثة، ودورة المياه موجودة، ووابور الجاز الذي يمكن أن نطبخ عليه موجود، إضافة إلي عدد قليل من الحلل والأطباق، وأكواب الشاي والبراد، أي أن الشقة كانت معدة كما ينبغي ، بما في ذلك البطانية واللحاف لزوم فصل الشتاء. والقبقاب اشتريناه منذ فترة، والجلابيب موجودة، وكذلك العمة والكاكولا، والشنطة، والحذاء.

وهكذا بدأت أتعود علي حياة جديدة مختلفة عن الحياة في القرية. فبدلا من البراح الذي كنت أعيش فيه في بيت واسع أعيش الآن في شقة ضيقة تبدو معلقة بين السماء والأرض. وبدلا من الفرن الواسع أو المندرة الأوسع عليَّ الآن أن أنحشر بين اثنين علي سرير ضيق. وكان من عادة أخي أن يأخذنا لنذاكر دروسنا في جامع السيد البدوي أو جامع سيدي مرزوق، ونعود إلي الشقة بعد صلاة العشاء مباشرة، فنتناول ما هو متاح من الطعام، ونتأهب للنوم حتى نصحو قبل الفجر فنلحق الصلاة الأولي في المسجد. وكانت لأخي عادات غريبة، من بينها أنه كان في أغلب الليالي يعالج عينيه بالششم، وهو مسحوق أبيض كان منتشرا جدا في تلك الأيام تضعه في عينيك لمعالجة أي آلام فلا تستطيع فتحهما إلا في الصباح، أي بعد مرور ساعات طوال. كان أخي يضع الششم ثم يستلقي علي السرير بجوار الحائط ويبدأ في نومه العميق. وكنت أنا وعبد الرسول نتأخر في النوم لبعض الوقت. ولسوء الحظ فإن السرير لم يكن محكما، وبالتالي كانت الملة (بضم الميم) أي ألواح الخشب معرضة للسقوط عند صعود أي شخص، ولهذا كنا عندما نصعد للنوم نحبس أنفاسنا، ونتحرك بحذر شديد جدا لأننا نعلم أنه لو صحا من نومه والششم في عينيه لن تفوت الليلة علي خير. وبالفعل فإن الملة في أغلب الأحيان كانت تقع، وتحدث صوتا، ويؤدي وقوعها إلي خلخلة السرير، فيقوم من نومه مفزوعا، يرغي ويزبد، ويعيد ألواح الخشب إلي أماكنها وهو يقول: «داهية في العيال وخلفها (بفتح الخاء واللام)»، ويظل يكرر هذه العبارة وهو يفتح عينيه بصعوبة بالغة حتى يستطيع تبين مواقع الألواح. أما نحن فإننا نظل في حالة رهبة وسكون وانتظار إلي أن ينتهي من إصلاح السرير ويعود إلي نومه، وهنا نصعد مرة أخري وقد لفَّنا الخوف والوجل، وينحشر كل منا في مكانه، أنا في الوسط

وعبد الرسول علي الطرف. وكانت لعبد الرسول ابتسامة ذات دلالة قوية، تصدر عنه عندما تسقط الألواح فأحس كأنه يقول لي: ليلتنا غبرة!!

هل يمكن لكيان جمادى أن يندمج مع كيان إنساني ويذوب فيه؟ هذا ما حدث بيني وبين شقة حفيظة لاسيما خلال العام الأول من رحلتي إلي البندر. لقد صارت هذه الشقة كيانا يسكن فيَّ وأسكن فيه. أنام علي وقع نهنهات أخي حول العيال وخلفها، وأصحو مبكرا كل يوم لصلاة الفجر واستذكار الدروس في المسجد، وأذهب إلي المعهد الديني فأستمع إلي دروس صعبة في النحو والصرف والفقه والجغرافيا و التاريخ و الحساب وغيرها من المواد و لا أكاد أفهم شيئا، ثم أعود إلي الشقة حيث نتناول ما هو موجود لدينا من طعام لنتوجه بعد ذلك إلي المسجد، ثم نعود بعد صلاة العشاء. حلقة مستديرة باعدت بيني وبين الحياة الهنية الصاخبة في المدرسة المشتركة، والحياة الأسرية الأليفة في البيت، وحياة اللهو و اللعب مع الولد مسعود وأصدقاء الطفولة. الآن يا شقة حفيظة ليس لي إلا أنت، أنام مع الخشب، وأصحو مع الخشب، وأصعد سلما من الخشب، وأستلقي عند النوم علي سرير معرض للسقوط، و أتلقي الأوامر من أخي الذي يفتقر إلي حاسة التعامل اللطيف مع الأطفال. ثم إنني مطالب بتوليع وابور الجاز، وتسخين الطعام، وعمل الشاي، أي خدمة نفسي. ومع أن الولد عبد الرسول كان يساعدني في ذلك وأساعده إلا أن كلينا كان من النوع الذي يوصف بأنه «لخمة» أي ليس مؤهلا لمثل هذه الأعمال، ولهذا كان أخي يسلقنا بلسانه الحاد عندما يرانا ملخومين في تجهيز أي شيء ويردد عبارته المألوفة: «داهية في العيال وخلفتها».

وقد ازداد اندماجنا أكثر يا شقة حفيظة خلال أسبوع كامل عندما تم استدعاء أخي للذهاب إلي العزبة، وأخذ الولد عبد الرسول أجازة وذهب إلي عزبتهم. لم يفكر أخي أنه من المستحيل أن يتركني وحدي وأنا لم أتجاوز

بعد الأحد عشر عاما، بل أعد شنطته القديمة علي عجل قائلا لي: هذا هو مفتاح الشقة، وهذه هي القرص التي نأكل منها، وعليك أن تواظب علي الحضور والمذاكرة حتى أعود. وكنا نحضر معنا من القرية البتاو والقرص والجبنة القريش والسمن والأرز وأشياء أخرى نحتاج إليها. ولكن في هذه المرة بالذات لم يعد لدينا شيء يؤكل بسهولة إلا القرص، وإن كان السمن والأرز موجودين لكنهما يحتاجان إلي شخص يعرف كيف يطبخ الأرز. وكان في الحلة قليل من الطبيخ. ولا أدري حتى الآن كيف هيأت نفسي للعيش وحدي في شقة حفيظة طوال أسبوع كامل لا أملك فيه من النقود إلا القليل الذي لا يكفي ثمن وجبة واحدة في الخارج؟ ويبدو أن الإنسان بطبعه مهيأ للعيش في أكثر الظروف قسوة وصعوبة، وهذا هو ما نراه الآن في سوريا، فطائرات الميج والسوخوى تسقط براميلها القاتلة علي المباني والمخابز والناس، ومع ذلك تعود الشعب السوري البطل علي مواجهة الموت في كل لحظة من نظام يقتل شعبه وليس له مثيل في التاريخ. نظام مجرم يخير السوريين بين أمرين: إما أن يحكمهم وإما أن يقتلهم. والعالم يتفرج علي هذه المذابح ولا يحرك ساكنا.

هيأت نفسي إذن يا شقة حفيظة لكي يخلص أحدنا للآخر خلوصا تاما. فقد التزمت بنفس البرنامج الذي تعودنا عليه: أنام بعد صلاة العشاء مباشرة، وأصحو مع الفجر، وأذهب إلي المعهد ثم أعود قبيل صلاة العصر فأتناول قرصة أو قرصتين، وأذهب بعد ذلك إلي جامع السيد البدوي.. وهكذا دواليك. وذات يوم قررت أن أطبخ أرزا، ولا أدري لماذا طرأت هذه الفكرة علي ذهني؟ هل لأني مللت من أكل القرص؟ أو سئمت من تزويد الطبيخ المتبقي لدينا بالمياه حتى صار مثل الشوربة؟ أم أنها هفة دماغ طرأت علي ذهني؟.

المهم أني أحضرت الأرز ونقيته مثلما رأيت أمي تنقيه، وولعت وابور

الجاز، ولم أكن أعرف أن الأرز عند الطبخ يزيد حجمه ولهذا ملأت الحلة حتى أخرها بالأرز الجاف، ثم وضعت عليه الماء والسمن، ومنيت نفسي بأكله لنيذة تنسيني أكل القرص التي كادت تتحجر. ولكني فوجئت بعد غليان الماء في الحلة أن الأرز يزيد ويزيد بشكل متواصل. لم أفهم ساعتها السبب في ذلك، فقررت أن ألتقط الزيادات بالملعقة وأضيف بدلا منها الماء، ولكن هذه الطريقة لم تفلح في إصلاح ذات البين التي أصابت الأرز، وصار الأرز مثل المعجنة التي تستخدم لأغراض أخرى غير الأكل. وبهذا فشلت يا شقة حفيظة في أن أطبخ فيك طبيخاً يصلح للأكل، وعدت أدراجي إلي القُرص، وهي الغذاء الوحيد الباقي لي. تحملت هذا الوضع لمدة أسبوع كامل، ولم يطرأ علي ذهني أن أعود إلي القرية وأقول لأبي وأمي: «لقد تركني أخي وسافر، وكذلك سافر عبد الرسول وأنا لا أستطيع أن أعيش وحدي في شقة حفيظة».

فهل هذه هي الروح التي لازمتني دائما ولم تتخل عني في أي وقت؟ هذا بالفعل ما حدث. فعندما ذهبت إلي مدريد واجهتني صعوبات أقسي من هذه. لم تكن صعوبات في السكن أو في الأكل بل كانت صعوبات في الدراسة، لأن من سوء حظ جيلنا أنه كان يعامل معاملة الطالب من أبناء البلد، عليه أن يدرس الليسانس أولا أو يعادل ما درسه في بلده بما يدرسه طلاب الليسانس. وقد اجتزت كل العقبات ثم كانت المفاجأة بعد ذلك بسنوات قليلة أن صدر مرسوم ملكي ألغي كل هذه الأشياء، وصار الطالب الأجنبي مطالبا فقط بأن يجتاز امتحان لغة لا أكثر ولا أقل. وهكذا يا شقة حفيظة لم تكوني أنت الصعوبة الوحيدة التي واجهتني. ولك أن تفخري بأنك مازلت إلي الآن في ذاكرتي علامة من علامات الصمود والإرادة القوية التي لا تعرف الاستسلام.

أبونواية

هل يمكن أن تكون الكُنية واحدة وتختلف الأقدار؟ لاشك فى أن الإجابة بنعم. والدليل علي ذلك ما سوف أعرضه في هذا الفصل. فقد عرفت في بداية انتقالي إلي طنطا اثنين، كلا منهما يكني بأبي نواية، ولا يعني ذلك أني صادقتهما أو اقتربت منهما، وإنما صار كل منهما فاعلا في ذاكرتي، بل إني مازلت أذكر هذا الفعل إلي الآن، ومازال كيان كل منهما ينشط بين الحين والآخر ويتحول إلي صورة لها مساحة وعرض وطول وألوان وشرائح وتهويمات. أولهما كان صاحب محل واسع في شارع السكة الجديدة مكتوب عليه بالخطوط العريضة «محلات أبو نواية للفول والطعمية». والثاني كان صاحب كشك صغير في الشارع الذي نسكن فيه، متخصص في بيع الطعمية، وكانت الطوابير عليه لا تنقطع في أي ساعة من ساعات البيع. ولأن الحظوظ دائما مختلفة مثلما يختلف هذان الاثنان المكني كل منهما بأبي نواية فإنه كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتخطي عتبة محل أبي نواية علي حين كان متاحا جدا أن أقف في طابور أبي نواية الآخر ساعات طوال.

فشارع السكة الجديدة الممتد من جامع السيد البدوي حتى نفق سيجر كنا نقطعه يوميا في الذهاب إلي المعهد صباحا والعودة منه عصرا، وربما قطعناه في أوقات أخرى ذاهبين إلي المسجد أو عائدين منه، ولكن كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نفكر في دخول أحد محلاته. كان الشارع كله مجموعة من المحلات المتجاورة، ومعظمها مطاعم، أو محلات ملابس، أو محلات حمص وحلاوة. فهل يمكن بقروشنا القليلة جدا أن نفكر في دخول أحد هذه المحلات؟ وكانت المطاعم مختلفة ومتنوعة، فبعضها متخصص في

الكباب و الكفتة، وبعضها الآخر في الأسماك التي كانت تعرض في الفتارين أو تعلق علي أبواب المحلات بصورة تشد الآكلين، مع أن حظنا منها لم يكن إلا قراءة اللوحات في الذهاب وفي العودة، بل إننا كنا نقرأ اللوحات أحيانا بطريقة خاطئة وكأننا مازلنا نتدرب علي القراءة والكتابة. وكان الأمل يراودنا أحيانا في دخول أي محل من محلات الفول والطعمية، ولكننا نفتش في جيوبنا فنجد الفلوس أقل مما هو مطلوب في الأكلة الواحدة فنتراجع.

وها أنت يا شارع السكة الجديدة مازلت أحمل منك في ذاكرتي صورة أخري لن أنساها أبدا. ذلك أن أمي أخبرتني ذات ليلة أنها ذاهبة صباح الغد إلي طنطا لقضاء وقت في الحمامات الساخنة عند جامع السيد البدوي، فقلت لها: لابد أن تأخذيني معك. قالت: إنهم يشترطون ألا يزيد سن الطفل عن ست سنوات وأنت الآن في السنة السابعة. قلت: لن يستطيعوا التفرقة بين ست وسبع . طلع الصباح فأخذنا طريقنا باتجاه البندر راكبين علي الحمار. تركناه -كالعادة - في الوكالة وذهبنا إلي الحمامات. وكان هذا اليوم مخصصا للسيدات. دخلنا من البوابة الكبيرة ولم تعترض الحارسة علي دخولي فقد كنت صغير الحجم، ومن المؤكد أنها تصورت أن عمري لا يزيد علي خمس سنوات. كان الحمام صورة طبق الأصل من الحمامات القديمة التي شاهدتها بعد ذلك بأعوام في فاس ومكناس والرباط بالمغرب. وكان مبنيا من الحجارة الكبيرة التي تظهر لك وتلفت نظرك بدءا من الواجهة. وفي الداخل كان الحمام مقسما إلي عدد من الحجرات الصغيرة كل حجرة بها حوض مملوء بالماء الساخن الذي يتصاعد منه البخار. وبالحمام بهو واسع نسبيا تخرج إليه النسوة بعد أخذ الحمام الساخن عاريات تماما. أجلستني أمي علي حجر بهذا البهو وهي تتصور

أني طفل صغير لن أنشغل بالنظر إلي الأجساد العارية، ولكن ما حدث لي هو العكس تماما، فقد نسيت كل شيء لأعيش لحظة فردوسية لم تفارق خيالي إلي اليوم. كانت الأجساد مختلفة في الطول و الحجم، مثلما تختلف الأثداء والهضاب و السوالف، فهناك الجسد الفارع الطول، الدقيق المتوازن في تضاريسه وعضلاته، وهناك الجسد المدكوك الممتلئ ، المكتز باللحم، أما الجمال والقبح فكان من المستحيل أن تميز بينهما لأن اللحم المتناثر المتنازع كان يطغي علي كل شيء. وحركة هذه اللحوم كانت تبدو في نظري كأنها كواكب أو نجوم متحركة كتلك النجوم التي كنا نراها في سماء القرية تنطلق بسرعة فائقة لتقف فجأة ثابتة في مكان واحد. هكذا تخيلت هذه الأجساد العارية المتحركة أمامي وهي تنطلق من مكان لآخر تختلف فيهما الدرجات. فإذا صعدت الأجساد تحركت الأعجاز وكأنها كتل من اللحم تنتقل من كيان إلي كيان آخر، لكن هذه الحركة تتم في خفة ورشاقة حتى ولو كان الجسد سمينا ممتلئا، وإذا نزلت تصورت أنها تتهادي مثل قطع من الثلج تغادر أماكنها لتثبت في مكان آخر. وهكذا قضيت وقتا طويلا في بهو الحمام وكأني انتقلت من عالم القرية المليئ بالحفر والمطبات والوحل في وقت المطر إلي عالم آخر فردوسي كنت أسمع عنه في حواديت الوالدة التي كانت هي الأخرى مليئة بالحور العين ، وبنات السلطان، والشاطر حسن وأمثاله، وأبناء الأمراء.فهل أنا في حلم أم في علم ؟ كل ما أعرفه إلي الآن أني انتزعت انتزاعا من هذا العالم العجيب عندما تقدمت أمي ناحيتي، وقد لبست ملابسها، وقالت لي: هيا بنا نعود إلي القرية. خرجنا من الحمامات فصدمتني الشوارع بحركتها غير المنسجمة، وضجيجها، وعنفوانها لاسيما عندما وصلنا إلي شارع السباعي الذي تكثر به الوكالات. أخذنا حمارنا

الذي انطلق بنا في خفة ورشاقة نحو القرية وكأنه لم يكن قبل دقائق يدخل في معارك حامية الوطيس مع الحمير الأخرى.

قال أخي وقد بدا معتدل المزاج منشرح الخاطر: «نريد اليوم أن نأكل طعمية من عند أبي نواية». وبالطبع كان يقصد ذلك الكشك القريب من البيت الذي نسكن فيه. لم أقل له: «لماذا لا ترسل عبد الرسول لهذه المهمة»، خوفا من أن يتعكر مزاجه ويصيح في وجهي: تقطع العيال وخلفها، لاسيما وأني أعلم أن شراء الطعمية من عند أبي نواية مسألة شرحها يطول. فالطابور أمامه طويل، ثم إنه ليس طابوراً منظما وإنما هو حلقة واسعة من الناس كل منهم ومقدرته في الوصول إلي البنت التي تتولي البيع، وأنا صغير الحجم قصير ربما لن يهتم بي أحد. كان أبو نواية صاحب الكشك الصغير قد اخترع طريقة لعمل الطعمية جعلته محط الأنظار، مشهورا في كل أنحاء الحي، فهو يخلط العجينة بتقلية معمولة من البصل، وكانت هذه التقلية تمنح طعميته مذاقا خاصا، ثم إنه ينوع في أحجام الأقراص وكل له ثمنه، لكن هذا الثمن متاح للكافة.

نزلت السلم الخشب وأنا أطرقع كالعادة ، ذلك لأن خشب السلم يتلاقي مع خشب القبقاب فتصير الطرقعة مثل موسيقي خشنة غير مقصودة. وجدت أم حسان جالسة عند الباب ومعها نسوة أخريات فألقيت عليهن تحية المساء، ولم أقل «السلام عليكم» كما كنا نفعل في القرية، ولم أنتظر أن يقلن لي: تفضل، لأن هذه العادة غير معروفة هنا. وصلت إلي كشك أبي نواية فوجدت حشدا كبيرا من البشر: نساء ورجالا وشبابا وأطفالا. اتخذت لنفسي مكانا وسط هذا الحشد المتنوع من الناس، لكنني لم أتمكن من الوصول إلي البائعة إلا بعد ساعة ونصف الساعة. مددت لها القروش فقدمت لي الطعمية التي تفوح منها رائحة التقلية. عدت إلي البيت فثار أخي

في وجهي ثورة عارمة، وأخذ يحلف بالأيمان المغلظة أنه سوف يعيدني إلي القرية ولن يستمر في تحمل مسئوليتي. فما الذي يجبره علي تحمل مسئولية طفل لا يعرف كيف يتصرف.

لم يكن أخي يدرك أني أعاني من حالة غربة. وهذه الحالة دهمتني مرتين في حياتي: المرة الأولي هي هذه ، حيث الانتقال من مرابع الطفولة في القرية إلي هذا الوضع الجديد الذي بدأت أتحمل فيه المسئولية كاملة عن نفسي بعيدا عن الأهل والأصدقاء والمدرسة والكتاب. كنت الأول في المدرسة طوال خمس سنوات والآن أجلس في الفصل وأستمع إلي المدرسين دون أن أعي شيئا، علي الرغم من أني في نهاية العام نجحت، ولكنه كان نجاحا لا أدري إلي الآن كيف حدث؟ وهل فعلا كنت أستحق النجاح؟ أم أن المدرسين كانوا علي وعي بالحالة التي قد تكون ألمت بطلابهم جميعا فتساهلوا في التصحيح؟. لا أذكر أني خلال هذا العام الأول من انتقالي إلي المدينة تعرفت علي أحد فيما عدا أخي الذي لم يكن يحس بأي مسئولية تجاهي، بل كان يعاملني بندية وكأني من سنه مع أن الفاروق بيننا كان سبع سنوات، وفيما عدا عبدالرسول الذي هو في سني، وربما كان يعاني من حالة غربة مثلي، لكنه كان يختلف عني في أنه كثيرا ما كان يتركنا ويذهب إلي العزبة، كما أن أهلهِ كانوا حريصين علي أن يأتوا ليأخذوه معهم.

آه أيتها الغربة! كيف حولتني إلي شخص تائه حائر لا يدري ماذا يفعل!، وكيف غيرت تصرفاتي من شخص نشط فعال مرح وفيه عفرتة في بعض الأحيان إلي شخص ساكن صامت غافل لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد اللهم إلا هذين الشخصين اللذين كنت أعيش معهما في شقة حفيظة.أين الولد مسعود، والسيد، ومسعد الحمار ، وحلمي العجرمي، والشيخ السيد أبو خطيب، وابنه العريف أنس، والشيخ حمود الكفراوي،

وخالتي نعيمة، وخالتي وجيهة وزوجها الحاج حمودة؟ وأين الولد جلال قائدنا في تمثيلية المدرسة المشتركة؟ أين كل هؤلاء؟ ولماذا أنا الآن وحيد؟ أذهب إلي المعهد في الصباح ولا أكاد أفهم شيئا خاصة في المواد الشرعية وأصعبها تلك المادة المسماة «فقه». فما دخلي أنا بالمرأة الحائض أو النفساء؟ وكيف أفهم شرح مدرس المادة لهذا الموضوع وهو يدخل في تفصيلات من المستحيل أن أستوعبها؟.

وكيف أفهم طريقة الغسل من الجنابة وأنا لا أعرف ما هي الجنابة؟ ثم من هو هذا الشيخ الذي يدرس لنا مادة النحو والصرف وهو يمسك بمنديل في يده يظل يفركه وهو يتهته وكأن مشاكل الدنيا كلها حطت علي رأسه؟ إنه عالم غريب أعيش فيه و لا أدركه، وأكتوي بناره لكني لا أحس بالنار.

وإذا كان هذا يحدث في قاعة الدرس فإن ما يجري في شقة حفيظة أفظع وأشد وطأة. فالنوم علي السرير في حد ذاته مشكلة يزيدها الششم تفاقما، والأكل مشكلة، وشراء الطعمية من عند أبي نواية مشكلة. وأنت أيها الطفل البريء مطالب بأن تواجه كل هذه المشاكل بدون سند أو توجيه. صحيح هناك بعض التوجيه ولكنه يتم بالشخط والنتر والزعيق والتأنيب. فماذا أنت فاعل؟

وها أنت أيتها الغربة القاتلة تعرفين طريقك إليّ مرة أخري ، ولا أدري كيف تسربت في خفوت شديد إليّ مثل الحمى التي ألمت بجسد المتنبي. كان ذلك في مرحلة متقدمة من حياتي حين ذهبت إلي مدريد للدراسة العليا في جامعتها لقد خامرني إحساس أعتقد أنه خامر المتنبي قبل مئات السنين حين كتب قصيدته المشهورة:

بم التعلل لا أهل و لا وطن ... ولا نديم ولا كأس و لا سكن

أريد من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

سكنت في ضاحية سانت ماريا وحيداً في شقة، وعلي الرغم من رفاهية الحياة في مدريد مقارنة بالحياة في مصر فإنني عندما كنت أعود ليلا إلي الشقة لمجرد المبيت فيها أحس وكأن الجدران تريد أن تطبق علي أنفاسي. ومثلما مرت سنة الانتقال الأولي من القرية إلي طنطا مرت سنة الانتقال الأولي من القاهرة إلي مدريد. حالة من التوهان، والحيرة، وافتقاد البوصلة الموجهة، والابتعاد عن الأهل والأصدقاء. وإذا كانت سنة الانتقال في طنطا قد مرت بسلام فإن ما حدث في مدريد ترك جرحا غائرا في نفسي. فهل زدت أيتها الغربة قسوة؟ أم أنك أردت أن تمنحيني درسا في حب الأوطان لا يمكن أن أنساه؟.

بسيونى الهرميل

بسيوني الهرميل شخصية عجيبة عرفتها في المرحلة الإعدادية بعد أن انزاحت عني غشاوة الغربة. كان من الواضح أنه أكبر منّا سنا، وهذا أمر كان مألوفا في الأزهر قديما. جلس بسيوني علي التختة التي أمامي مباشرة، والتختة هو الاسم الذي كان يطلق حينئذ علي مقاعد الدراسة. وكانت كل تختة مكونة من ثلاثة مقاعد. وقد تصادف أن جلس علي يميني وعلي يساري شخصان من قرية واحدة توثقت علاقتي بكل منهما ،أحدهما يسمي إيهاب الزفتاوى والآخر يسمي عادل السنارة. أما بسيوني الهرميل فكان من قرية مجاورة لقريتنا. وكان مثلي يجلس في المنتصف. وقد اشتهر بسيوني بيننا بجلبابه الفلاحي الذي كان يصر علي أن يلبسه تحت الكاكولا. ولأننا في العادة نتخلص من الكاكولا في الفصل ونكتفي بالعمامة فإنه كان يبدو مثل فقهاء القرية لاسيما وأن مظهره العام يعطي هذا الانطباع. فهو متوسط القامة، مستدير الوجه، أحمر البشرة، مرفوع الهامة، يفضل عند غياب المدرس أن يخلع العمامة ويضع علي رأسه بدلا منها طاقية صوف بيضاء. وفي أيام البرد يلف حول رقبته تلفيعة صوف بنية اللون. ولا شك فى أن هذه التلفيعة تضيف عنصراً آخر إلي منظره الفلاحي الصرف، فيظهر أمامنا وكأنه قادم لتوه من الحقل كي ينتظم في فصل دراسي يعج بطلاب من كل الأشكال والألوان.

كان الاختلاف بين الطلاب يظهر في كل شيء: في الطول، والقصر، واللون، والشكل، وحتى في اللكنة، فكل منا ينطق الكلمات بطريقة مختلفة عن الآخر وفقا للنطق السائد في قريته. أما عن الألوان فحدث ولا حرج: فهذا أحمر البشرة أو قريب من الحمرة مثل بسيوني الهرميل، وذاك أسود فاحم السواد كأنه قادم من وسط أفريقيا، وآخر سواده خفيف مثل القادمين

من النوبة أو أسوان، وإن كانت الغالبية ذات لون قمحي. وفيما يتعلق بالطول فإن الأمر يختلف حسب السن، والبيئة، والنشأة. هذا طويل ممتلئ، وذاك قصير مدكوك، والآخر نحيف ممصوص، لكن الجميع يشتركون في شيء واحد هو العفرتة، وخفة الدم، وخلو البال، وما يتبع ذلك من قفشات وتعليقات، ومعاكسات تظهر جلية عند غياب المدرس، أو إذا كان المدرس ضعيفا لا يستطيع السيطرة علي هذه الجموع المنفلتة.

ولأن بسيوني الهرميل كانت ملامحة جادة لا يتحمل الهزار، ولا يميل إلي اللهو واللعب، وردود فعله تبدو عنيفة ولكنها في الوقت نفسه مضحكة كنت أنا وإيهاب الزفتاوى وعادل السنارة ننتهز فرصة الانفلات فننشد تلفيعت شدا عنيفا غير عابئين بما يمكن أن يحدث له، فنراه في هذه اللحظة يدير وجهه نحونا وقد انتفخت أوداجه، وربما قام من مقامه، ويرد علينا: «والله العظيم أشدّبك». والتشديب، في لغته، يعني أن يضربنا ضربا مبرحا. وبما أنه يكتفي دائما بالتحذير فإننا نعاود الكرة مرات ومرات، وكلما قال: «والله العظيم أشدبك» تنفلت منا الضحكات والقهقهات، ونود أن يتأخر المدرس كثيرا أو إذا كان موجودا ولا يحس بنا أن يستمر في عدم إحساسه.

وكان من عادة الأزهر في تلك الأيام أن يمنح الطلاب «جراية»، هكذا كانت تسمي، وهي عبارة عن قروش قليلة، قد تكون جنيها أو جنيها ونصف الجنيه تأتي مرة واحدة في العام أو مرتين أو ثلاثا. ولأن بسيوني الهرميل طريقه وطريقي واحد قلت له يوم أن أعطونا الجراية : ما رأيك يا بسيوني في أن نشتري من هذه الجراية كيلو أو كيلو ونصف من اللحم نأخذه معنا ونحن ذاهبان إلي القرية؟ قال: والله فكرة جيدة. ذهب كل منا إلي مسكنه كي يحضر السبت (بفتح الباء) الذي هو حقيبتنا عند السفر. والسبت شيء يشبه السماط أو المخلة مصنوع من البوص كنا نضع فيه كل متعلقاتنا بما

في ذلك الزوادة (الأكل) والملابس وغيرها. اتفقنا أن نتقابل عند أول شارع الخان لنذهب بعد ذلك إلي شارع السباعي حيث اللحوم هناك أرخص من أي مكان آخر.

جاء بسيوني في الموعد المحدد، وقطعنا الشارع المؤدي إلي شارع السباعي، وكله عبارة عن محلات تعرض الفول السوداني في قفف واسعة، وكذلك الحلويات، والحمص، والتوابل، والأرز، والسكر، والعجوة، وكل ما يحتاج إليه البيت. وقبل أن نصل إلي شارع السباعي مررنا بمنطقة تجمُّع العربات الكارو التي تنقل البضائع والسلع والقادمة من القرى، وكانت هذه العربات إن لم تجد بضائع تفضل ألا تعود خالية، فتحمل الركاب. ولا شك فى أننا في غالب الأحيان كنا نفضل هذه العربات لأن تعريفة ركوبها أقل من تعريفة الحافلات أو سيارات الأجرة، والتي كانت قليلة جدا في تلك الأيام. ولهذا فإن العربة الكارو متاحة أكثر، وهي في كل الأحوال أوسع من سيارات الأجرة التي كنا ننحشر فيها بشكل غير آدمي.

دلفنا إلي شارع السباعي بما يحوي من محلات، وعربات، وخيول، وبغال وحمير، ونثرات من التبن في كل الأركان، ومخلات تحمل أعلافا من كل الأصناف، وجموع من البشر مختلفين في أشكالهم وألبستهم. وصلنا إلي منطقة الذبائح المعلقة أمام واجهات المحلات. لم يرد علي خاطر أي منا أن الجزار سوف يستصغرنا ويعطينا أسوأ ما عنده، أو يغشنا ويعطينا لحماً فاسدا. فهذه المسائل لم تكن قد عرضت لنا بعد، أو فكرنا فيها. فلم نتصور أن شخصا يمكن أن يغش شخصا آخر. ولهذا لم نتردد في اختيار الجزار الذي قررنا أن نشتري منه. دخلنا عليه وقال له بسيوني الهرميل: أعطني كيلو ونصف، وقلت له: أريد كيلو فقط. ولا أدري لماذا قللت الوزن؟ فهل راودني إحساس فجائي بأن الرجل سوف يغشنا؟ أم أني أردت أن أحتفظ

بالجراية شبه كاملة كي أستخدمها لأغراض أخرى؟ كان كيلو اللحم أيامها ثمنه خمسة عشر قرشا تقريبا. قطع لنا الجزار اللحم ولفه في ورق سميك جدا، وقدمه لنا قائلا: بالهناء والشفاء. نظرت إلي بسيوني نظرة ذات معني، ونظر هو إلي بنفس الطريقة تقريبا، وكأن كلا منا كان يريد أن يثبت لنفسه وللآخر أنه صار رجلا، يشتري اللحم، ويتوجه به إلي القرية، ويدخل علي أهله نافشاً ريشه، مغمورا بالسعادة، ولسان حاله يقول: ها أنا عائد إليكم محملا بما لذ وطاب من اللحم لكي تتأكدوا أن تضحياتكم لم تذهب هباء. فها هي النفحات بدأت تظهر، وها هي البركات بدأت تحل. وإذا كنتم تكدون وتكدحون من أجلنا فإن عملكم لن يذهب سدي.

وضع كل منا لفة اللحم في السبت الذي يحمله، وعدنا أدراجنا إلي موقف عربات الكارو. وكان بسيوني الهرميل يرتدي جلابيته الفلاحي ذات اللون الأصفر، وعلي رأسه الطاقية الصوف البيضاء، أما التلفيعة فلم يكن الوقت مناسبا لها، وقد لبس في قدميه شبشبا اشتراه مخصوصا للسفر أما أنا فكنت أرتدي جلابية بنصف ياقة، رمادية اللون، وقد تركت شعري مرسلا كما هي عادة أهل البندر أو أبناء القرى الذين التحقوا بالتعليم. وبالطبع تركت القبقاب في شقة حفيظة وانتعلت بدلا منه الحذاء الذي أذهب به إلي المعهد، وهو حذاء متين اشتريناه من سوق الكانتو. وجدنا في موقف الكارو عربة من قريتنا صاحبها محمد العربجي، هكذا كان أهل القرية يلقبونه مع أنه من أسرة كبيرة هي أسرة موسي. كان محمد العربجي معروفا بخفة دمه، وكثرة مزاحه، ولهذا قال لنا عندما اقتربنا منه : «هيا اركبا ركبكما عفريت». ركب بسيوني في منتصف العربة، وركبت خلفه، وانطلق الحصان متوجها نحو شارع سعيد. كانت العربة مليئة بالركاب رجالا ونساء وأطفالا يجلسون وتحتهم الشكائر سواء كانت تابعة لهم أو

تابعة للعربجي. توالت القفشات والعربة تمرق بنا من منطقة إلي منطقة حتى وصلنا إلي الطريق الزراعي المتجه إلي قطور وكفر الشيخ. وكان بالعربة امرأة معروفة بجرأتها في الكلام فدخل معها بعض الرجال، ومنهم العربجي، في مزاح مكشوف كنا نحن الفتيان نتحرج منه، لاسيما بسيوني الهرميل وأنا بدافع من دراستنا في الأزهر، لكننا لم نكن نملك إلا أن نجاري الجميع في قفشاتهم وتعليقاتهم.

وصلنا إلي الطريق الترابي المؤدي إلي قريتنا فنزل بسيوني الهرميل كي يواصل طريقه نحو قريتهم الواقعة بعدنا بمسافة قليلة وبقيت أنا مع محمد العربجي الذي يقع بيته في القرية قريبا منا. وخلال هذه المسافة القصيرة الواقعة بين الطريق الزراعي وبيت محمد العربجي نسيت أنا كل ما حولي واندفعت أفكر فيما سوف تفعله أمي عندما تراني حاملا لها اللحم الذي اشتريته من البندر. لا أدري لماذا كنت سعيدا بهذا الحدث؟ فاللحم يدخل بيتنا كثيرا. صحيح أن دخوله مرتبط بالمواسم وبعض المناسبات لكن الطيور موجودة في الدار كعادة كل الفلاحين : فراخ بلدي وبط و أوز، نذبح منها عندما نريد. وأبي ماهر في شراء اللحم من الجزارين وهو يفضل عادة الشراء من جزار معروف يسمي الزاهي عوض، يقول أبي دائما إنه يطلب منه أن تكون القطعية متنوعة، بمعني أن يكون اللحم الأحمر متلبسا بالأبيض -هكذا يقول- لأنه كان يري أن هذا هو اللحم الذي يستحق الشراء كما يستحق الأكل، لأن اللحم الأحمر -في رأيه- لا غناء فيه، بل هو مثل التفل الذي تلوكه ولا تخرج منه بفائدة.

نزلت أمام بيت محمد العربجي، وحملت السبت وبه كيلو اللحم الذي كنت حريصا عليه أكثر من أي شيء آخر. مررت علي عدد من الدور التي يجلس أمامها بعض أهلها، فكنت أقول لهم: السلام عليكم، فيردون علي: وعليكم

السلام .. اتفضل، وبعضهم كان يكتفي بكلمة : اتفضل. وصلت إلي بيتنا فوجدت الوالدة مشغولة جدا في تنظيف حظيرة المواشي، والوالد -كالعادة- لم يكن بالبيت، ويبدو أنه كان يلعب السيجة أمام بيت مصطفي السردينة.

انتظرت حتى فرغت الوالدة من تنظيف الحظيرة، فتقدمت إليها قائلا: لقد منحونا اليوم في المعهد جراية. سألت: كم قيمتها؟. قلت: جنيه ونصف الجنيه. مدت يدها لأخذ الفلوس، فقلت لها: لقد اشتريت بخمسة عشر قرشا كيلو لحما من شارع السباعي، ومددت يدي في السبت لاستخراج اللفة. وما إن فتحتها أمي حتى فاحت منها رائحة نتانة لم أشم أنتن منها من قبل. قالت أمي كلمة كانت تنطقها في مثل هذه المواقف: «يا ما جاب الغراب لأمه!!». وأخذت اللفة بكاملها ورمتها في مكان كانت تجمع فيه القمامة.

فاروق وهدان

كانت رواية بين الأدغال" هي الرواية المقررة علي زملائنا طلاب الإعدادية العامة. قرأها زميلنا فاروق وهدان أكثر من مرة وتأثر كثيرا بأحداثها التي كانت عبارة عن رحلة مغامرة بين الأدغال في أفريقيا. وكان فاروق وهدان في أساس تكوينه شخصية تحب المغامرة، ويحلم بأشياء كثيرة ولديه تطلعات أكبر من قدراته. وعندما نجح في الإعدادية أراد والده أن يختصر مرحلة تعليمه فألحقه بمدرسة المعلمين في طنطا. "وبدأت تتفتح مواهب فاروق وهدان كما بدأ ينفتح قلبه علي الحب. سمع أغنية عبدالحليم حافظ «ضي القناديل»، وكانت القناديل في ذلك الوقت، في فترة الستينيات قد بدأت تنتشر في شوارع القرية وعلي النواصي، فأخذ يدندن بهذه الأغنية ويطلب منا أن نسمعه وهو يغنيها وقد تصور نفسه عبدالحليم حافظ الخالق الناطق. قال له زميلنا عبدالستار: «واضح أنك سوف تكون مطربا مشهورا، ليتك تتذكرنا عند تتدفق عليك الأموال». فانتشي فاروق وهدان بهذه الكلمات وأخذ يجوّد أداءه لهذه الأغنية، ويفكر في أن يكتب أغنية مثلها ويقوم هو نفسه بتلحينها.

لكن مشكلة فاروق وهدان أنه كان يصاب بالملل بعد فترة ويتحول إلي شيء آخر. وعندما تخلي عن أغنية «ضي القناديل» قلنا: لعل الفتاة التي ارتبط حبه لها بهذه الأغنية ابتعدت عنه فقرر أن يتخلي تماما عن كل ما له صلة بها. كانت الفتاة تسمي سعاد، وهي في مثل سنه، طالبة في المرحلة الثانوية، أبوها مزارع لكنه في الوقت نفسه جزار معروف. طويلة القامة مثل والدها، بينما كان فاروق وهدان متوسط القامة، وجهها مشرب بحمرة علي حين كان فاروق وهدان شاحب البشرة، يميل إلي السمرة. رآها ذات يوم تمشي واثقة الخطي، بادية الحسن، مهيبة الطلعة، فتعلق بها تعلقا شديدا،

ومنحته أغنية عبدالحليم حافظ الوقود اللازم لإشعال النيران في قلبه فبدا مثل مجنون ليلي مشبوب العاطفة، غارقا في بحار الحب. ولعل هذا هو السبب في أنه في تلك الفترة بدأ يكتب الأشعار.

وكتابة الأشعار تعد التحول الثاني في مسيرته الفنية. فقد كان الشعر في فترة الستينيات هو المحفز الأول لأبناء جيلنا. كنا نقرأه في الدواوين، وفي المجلات، ونسمعه غناء عذبا منغما، حماسيا كان أو عاطفيا. بدا فاروق وهدان شديد التأثر بأغنيتين من أشعار كامل الشناوي هما: «لا تكذبي» غناء عبد الوهاب وفيروز، والأغنية التي شدا بها عبد الحليم حافظ ومنها هذان البيتان:

أنا في الظل أصطلي	لفحة النار والهجير
وفــؤادي يـشــدني	لهوي ما له ضمير

بدأ فاروق يكتب قصائد علي هذا النمط، ويبدو أن الصد الذي لاقاه من سعاد أجج في نفسه لهيب النيران فتدفقت الأشعار التي كتبها في كشكول من كشاكيل الدراسة وأخذ يلقيها علينا كلما التقينا. كانت أسرته تسكن فى الشارع الموازي لشارعنا والذي يقع خلفنا ولهذا كان من السهل أن يأتى إليّ كثيرا فيجدني جالسا أستذكر دروسي في فصل الشتاء -أثناء الأجازات -خلف الدار في الجانب المقابل للشمس، فيشاركني الجلوس علي عفش الأرز، ويقرأ لي ما كتبه من أشعار، وأثناء ذلك يحكي عن لواعج الحب التي مازالت تؤرقه ليل نهار لاسيما وأن سعاد لا تتجاوب معه ولا تجاريه في حبه. قال لي ذات مرة: ما رأيك في هذه الفكرة؟ لقد فكرت فى أن أخطف سعاد ونتزوج بعيدا عن أسرتينا، فأنا أعتقد أنها تحبني لكن والدها الجزار هو العقبة الرئيسية أمامنا. قلت في نفسي: لقد وصل فاروق إلي مرحلة الجنون! وبالطبع لم أستطع أن أجاريه في هذه الفكرة المجنونة،

وحاولت أن أصرفه عنها وأن أوضح له أن النتائج سوف تكون خطيرة جدا.

انتهت مرحلة الأغاني والأشعار وانتقل فاروق فجأة إلي مرحلة أخري أكثر عمقا. فقد شاهدته يعبر الترعة الصغيرة المواجهة لشارعنا، محاولا ألا أراه، ويلتمس الطريق الترابي الضيق الموازي للترعة حتى يصل إلي أرض بها نخلة باسقة. جلس تحتها وفتح كشكولا وبدأ يكتب. عرفت فيما بعد أنه يكتب كتابا فلسفيا في «العقد الاجتماعي». كان قد قرأ مقدمة ابن خلدون، وربما قرأ جزءا من كتابه« العبر وديوان المبتدأ والخبر»، كما قرأ كتبا للإمام أبي حامد الغزالى، وربما قرأ عن الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو، وإميل دوركايم وغيرهما، وكانت هذه الكتب متاحة جدا في أيامنا والترجمات كثيرة ومنتشرة. ومن هنا طرأت على ذهنه فكرة تحرير كتاب فى الفلسفة الاجتماعية. كان يجلس لساعات طويلة تحت النخلة ويكتب. وعندما أطلعني علي بعض ما كتبه وجدت أن لديه عمقا وعبقرية.

أين تاهت هذه العبقرية يا فاروق وهدان؟ لقد مضت بك الحياة بعد عملك في الحكومة وزواجك شخصاً ريفيا بسيطا يمضي كل صباح من بيته إلى عمله في المدرسة الابتدائية، ويعود ليشارك في الحياة الاجتماعية فى القرية. يحضر فرحا هنا أو هناك، ويحرص تمام الحرص على الاشتراك فى الجنازات. أما البيت الذي بنيته لتقيم فيه مع زوجك وأولادك فقد صار أكثر البيوت بساطة وتواضعا في المنطقة الجديدة التي انتقلت إليها. صحيح أن جدرانه من القراميد وليست من الطوب اللبن، لكنه دور واحد بلا أساس، وسقفه من القش وعفش الأرز. وأهل المنطقة يتناقلون أخبارك ومنها أن زوجك عندما تغضب عليك تطردك من البيت فلا تجد لنفسك مأوى إلا عند والدتك التي مازالت تقيم في البيت القديم. تمضي عندها أياما حتى ينقشع الغضب عن وجه زوجك فتأتي لتصالحك وتعود بك إلي بيتك. أين ذهب عقدك

الاجتماعي؟ وكيف تبخرت تلك الموهبة التي هبت عليك في مرحلة مبكرة من حياتك وجعلتك محط أنظار كل من عرفوك أو اقتربوا منك؟.

ظل فاروق وهدان يحرر كتابه «العقد الاجتماعي» لمدة ستة أشهر تقريبا. ويبدو أنه كتب صفحات طويلة لو أتيح له النشر أيامها لأصدرها كتابا. ولكننا وجدناه فجأة يتحول تحولا جديدا. وهذه المرة جاء التحول مناقضا تماما للمرحلة السابقة. لقد فتنته فرقة رضا للرقص الشعبي فقرر أن يكوّن فرقة شبيهة بها. جمع كل أصدقائه ومنهم أنا، وعبد الستار الفالح، وعادل زاهر وآخرين اقتربنا منهم لأول مرة، واتفق معنا علي أن نشترك معه في تكوين فرقة للرقص الشعبي، وأنه سوف يتكفل بتدريبنا ويكون التدريب يوميا بعد صلاة المغرب في بيتهم. لم نأخذ الموضوع علي محمل الجد، ولكننا وجدناها فرصة للقاء والضحك، لاسيما وأننا بدأنا نحس بأن فاروق وهدان فيه شيء من العبط. التقينا في المرة الأولي فقال فاروق: هذه المرة لن تشتركوا في الرقص، وإنما عليكم أن تنظروا إلي بإمعان وتتعلموا كيف يكون الرقص، وفي المرة القادمة سوف يشترك الجميع في التدريب. كان فاروق يرقص رقصة معلم فعلا، وكأنه تعلم الرقص في مدرسة مخصوصة. وهذا -بلا شك -كان ديدنه في أي شيء يقرر أن يُبدع فيه. قال له عبد الستار الفالح: أين تعلمت هذه الرقصات؟ أجاب: شاهدت فرقة رضا فأردت أن أرقص مثلهم. قال عبد الستار: ولكن فرقة رضا لديها إمكانيات لا تتوافر لنا. فرد: لماذا لا تكون لدينا إمكانياتنا الخاصة؟. وهكذا كان فاروق وهدان شخصا لا يعرف المستحيل. ولعله كان شديد التأثر بالأغنية الوطنية التي تقول:

أنا الشعب أنا الشعب / لا أعرف المستحيلا / ولا أرتضي بالخلود بديلا

في اللقاء الثاني اشتركنا في التدريب. ولأننا لم نكن موهوبين في

الرقص، ونيتنا غير خالصة كنا نخطئ كثيرا. وكان فاروق يحتج وتظهر آثار الغضب علي وجهه لدرجة أنه كان يهددنا بأنه سوف يستبدل بنا غيرنا، ويقول: هناك عشرات غيركم مستعدون للمشاركة في الفرقة. ولما كان غضبه يزيد من انبساطنا ويجعلنا ننفجر في الضحك كنا نتعمد الخطأ حتى نغيظه ونفاقم من سخطه. انتحي فاروق بي جانبا وأسر إليّ قائلا: أنت بالذات لك مستقبل باهر في هذه الفرقة، فدعك من عبد الستار الفالح وعادل زاهر حتى نستطيع أن نصل بالتدريبات إلي مبتغاها. وأعدك بأنك سوف تكون شريكا فاعلا معي في العرض الذي ستقدمه علي المسرح قريبا. كان الشباب الأكبر منّا سنًا يعدون لسهرة ليلية في القرية يقام لها مسرح، وقد قرروا أن يقدموا مسرحية يمثلها شباب القرية من المتعلمين، وطلبوا مني أن أكتب لهم مسرحية لهذا الغرض. كنت متأثرا بمسرحية "السكرتير الفني" لفؤاد المهندس وشويكار فكتبت مسرحية قريبة منها. وكان من المقرر أيضا تقديم رقصة شعبية كلفوا فاروق وهدان بالإعداد لها. وكانت ليلة سعيدة اجتمع فيها عدد كبير من أهل القرية أمام المسرح الذي أقيم بالشارع الرئيسي قريبا من دكان ربيع النشار. قدمت المسرحية التي كتبتها ومثل دور المرأة شاب يرتدي لباساً نسائيا، وعلي الرغم من ذلك لقيت المسرحية قبولا ملحوظا من الجمهور الذي صفق لها كثيرا. وجاءت فقرة الرقص الشعبي التي أدارها فاروق وهدان. ولا شك فى أنني لابد أن أعترف بأنها كانت فقرة متميزة. لم نشترك فيها: عبد الستار الفالح، وعادل زاهر وأنا. لأن فاروق كان قد يئس منا واستبدل بنا آخرين ساروا معه علي الخط ولذلك نجحوا في تقديم هذا العرض الذي حاز علي إعجاب أهل القرية.

علي أن أخطر تحول حدث في مشروع فاروق وهدان الفني هو أن مغامرات كتاب «بين الأدغال» استيقظت في ذهنه فجأة، فقرر أن يقوم

بمغامرة شبيهة بها. جاء إلي و أنا أجلس خلف الدار وابتدرني : لقد قررت أن أقوم برحلة إلي السودان، و أن تشتركوا معي في هذه الرحلة. قلت له: وهل لدينا من الأموال والمؤن والركائب ما يغطي هذه الرحلة؟ قال: فيما يتعلق بالراحلة سوف نستبدل بها دراجة بخارية تسعنا نحن الأربعة أقوم بصنعها بنفسي. أما الأموال والمؤن فهذه أمور بسيطة نستطيع أن نوفرها أثناء الرحلة. سألته: من أي المواد سوف تصنع الدراجة البخارية؟. قال: لقد فكرت في هذا، ووجدت أن أفضل حل هو أن يُحضر كل منا عدداً من الأواني النحاسية، يأخذها خلسة من بيته، وأنا سوف أحول هذه الأواني إلي موتوسيكل نركبه نحن الأربعة وننطلق به إلي السودان، نغوص في الأحراش والغابات. وكان يقصد بالأربعة هو وأنا وعبد الستار الفالح وعادل زاهر.

في هذه اللحظة أدركت أن فاروق وهدان بدأ يفقد عقله. أبلغت عبد الستار وعادل بالفكرة فاقترح عبد الستار أن نجاريه إلي النهاية لنري ماذا سوف يفعل. التقينا بعد ذلك وقلنا لفاروق إننا موافقون علي هذه الفكرة العبقرية. طلب منا أن نتفق علي لحظة «الصفر»، وهي اللحظة التي سوف يستولي فيها كل منا علي عدد من الأواني النحاسية. حددنا مكانا للقاء يكون إلي حد ما بعيدا عن مساكن القرية. وقال فاروق وهدان إنه في هذا المكان سوف يتوفر علي صنع الموتوسيكل أو الدراجة البخارية، وبعد ذلك ننطلق في رحلتنا متوجهين إلي السودان. لم نسأله بأي أدوات سوف يصهر النحاس؟ وبأي أدوات سوف يقوم بتشكيله وتحويله إلي موتوسيكل؟ لأننا كنا في تلك اللحظة مقتنعين بأن السلوك في مخ فاروق وهدان قد ضربت وأنه وصل إلي مرحلة الجنون الكامل.

تذكرت في هذه اللحظة والده الذي كان يدرس لنا مادة «القرآن الكريم»

في المدرسة المشتركة، وكيف كان غضبه يحتدم في مرات كثيرة عندما بجدنا غير متجاوبين معه. وقد ضربني مرة ببنصره المتكور علي رأسي، وقد خاف والدي من أن تكون هذه الضربة قد أثرت علي دماغي فذهب إليه في بيته وعنفه بشدة قائلا له: أنت تدرس القرآن الكريم لأطفال فلماذا لا تكون حليما معهم؟ فرد عليه بأنه لم يقصد أن يحدث بي أي ضرر، وما هي إلا ضربات هينة جدا للتخويف لا أكثر ولا أقل. أما أمه فلها موقف لا أنساه أبدا، فقد مرت علينا ذات يوم ونحن نصطاد السمك في الترعة التي تمر علي بيتنا. كنا نصطاد بالطرحة، وهي الغطاء الرقيق الأسمر الذي تلبسه المرأة الريفية علي رأسها. وقد جمعنا سمكا كثيرا ووضعناه في إناء متوسط الحجم. رأته أم فاروق فتمعنت فيه كثيرا. ولاشك فى أن الخوف دخل في قلوبنا من هذه النظرة المتمعنة. ولم تكد تغادر المكان حتى جاء الصيد الذي استخرجناه من الطرحة ثعبانا ساما طويلا أثار الرعب في نفوسنا فتركنا الصيد وغادرنا المكان. ولأننا كنا في تلك السنوات نؤمن بالحسد ونعتقد أن العين حق ربطنا بين النظرة المتمعنة وظهور الثعبان السام. وكنا بعد ذلك كلما رأيناها تمر نختبئ تحت شجرة أو نخفي الإناء حتى لا ترانا أو تراه.

اتفقنا علي ساعة الصفر. وكان الاتفاق ينطوي علي مؤامرة من جانبنا نحن الثلاثة لنري ماذا سوف تفعل أسرة فاروق وهدان معه عندما يقوم بسرقة عدد من الأواني النحاسية، وعندما تتكشف لهم معالم خطته بصنع موتوسيكل والسفر به إلي السودان. صحا فاروق وهدان في ساعة مبكرة - حسب الاتفاق - ودخل الحجرة التي بها الأواني، حيث أخذ ينتقي ما يراه صالحا لصنع الموتوسيكل. وضع الأواني النحاسية في شيكارة أعدها لهذا الغرض وبينما هو متجه نحو البوابة الرئيسية للخروج صحت أمه من نومها

علي وقع أصوات صدرت عن الشيكارة. تصورت أن اللصوص اقتحموا بيتهم لسرقتهم، كما كان يحدث أحيانا في الريف، فنهضت مفزوعة، وكانت المفاجأة الكبرى أن ابنها الأوسط فاروق هو الذي حمل الأواني واستعد للخروج. سألته: ماذا تفعل؟ فتلعثم في رده، لكنها بعد أن هدأت أخبرها بالحقيقة، فقالت له والدهشة تغطي كل مساحة وجهها: سوف تظل طول عمرك خائبا.

أما نحن فعندما التقينا بعد ذلك بفاروق وهدان قلنا له، وكأننا لم نعلم بما حدث: لقد انتظرناك كثيرا ولم تأت، فلعل المانع خير. سكت فاروق وهدان ولم يجب، ولعله كان يخطط لمغامرة جديدة من مغامراته التي لا تنتهي.

كريمة بنت بعجر

سافر أخي للدراسة بالجامعة الأزهرية في القاهرة، وجاء وقت تغيير السكن و السكان. انتقلت للإقامة مع زميلي إيهاب الزفتاوى. كان الزفتاوى يسكن مع ثلاثة أكبر منه سنا ورتبة، أي في مرحلة دراسية متقدمة، هم الشيخ قطب، والشيخ مصطفي، والشيخ عبدالعزيز، اثنان منهما أكفاء (بكسر الكاف وتشديد الفاء) والثالث وهو الشيخ مصطفي يري طشاشا بعين واحدة. انتسبت إلي هذه العصبة الجديدة، وأخذت أتأقلم مع عاداتهم وتصرفاتهم وظروف حياتهم. كان والد الشيخ قطب يزورنا من وقت لآخر حاملا معه زوادة من الخبز والبتاو والقرص، فضلا عن صينية (هكذا كانت تسمي) من البطاطس المطبوخة بالصلصة والزبدة في الفرن البلدي، ومعها ما أمكن حمله من لحوم أو فراخ أو غير ذلك. كان هذا الرجل طويل القامة، كثيف الحاجبين، واسع الهامة، كبير الأنف، بارز الشفتين، حاد النظر، وإن كانت عينه اليسري تدل علي أنها أصيبت بمرض ما أهمل في مداواته كما هي عادة الفلاحين. وكان هذا الرجل يحاول أن يتفاصح في الكلام لكنه بالطبع كان يخطئ فيقول مثلا «الأبوتيس» وهو يعني «الأتوبيس». ولاشك فى أننا كنا نضحك علي كلامه. وعندما اقترب موعد حصول ابنه الكفيف علي الثانوية الأزهرية بدأ يقول: الشيخ قطب في العام القادم إن شاء الله سوف يكون كلاّوى ، يقصد أنه سوف يلتحق بكلية جامعية.

أما الشيخ مصطفي فإننا لم نعرف له أبا أو أما. وكل ما سمعناه أن له إخوة كثيرين متفرقين في قري مختلفة، لأن أباه تزوج من امرأتين وترك نسلا كبيرا. كان الشيخ مصطفي متكفلا بزميليه الآخرين، يصحبهما إلي المعهد الثانوي صباحا، وإلي أماكن الاستذكار بعد العصر. وذات يوم وهو يمسك أحدهما بيمينه والآخر بشماله، وكنت معهم حينئذ، انقطع منه فجأة

أستك اللباس. لم ينزعج كثيرا، بل تصرف بسرعة وطلب مني أن أتكفل بصاحبيه، وأمسك هو بلباسه حتى لا يقع، وشغل نفسه بتلحين أغنية مطلعها: «آه يا أستك الألبسي». وهكذا تحولت مفردة اللباس إلي «ألبسي» وهي عادة أزهرية كانت شائعة. فقد كنا ننحت مفردات ونضعها في بند «فصل المقال في نحو العيال».

كان الشيخ مصطفي هو مسئول التسوق في هذه العصبة الأزهرية. يذهب ليشتري لنا السردين والفسيخ من عند «أبو عمة حمراء»، ويشتري لنا الفاكهة، لكنه - والحق يقال - فيما يتعلق بالفاكهة كان يقع علي أردأ الأنواع ليشتريها ويأتي بها إلينا، ولهذا أطلقنا عليه لقب «الزبال»، ومن العجيب أن كل من كانت لهم صلة بنا عرفوا بهذا اللقب وصاروا ينادونه بالشيخ مصطفي الزبال.

أما الشيخ عبد العزيز فإنه عرف بخفة دمه وبراءته، ولهذا كان يصدق كل ما يقال ويأخذه علي محمل الجد. ولهذا كنا أحيانا نخترع قواعد للسلوك ونطلب أن يلتزم بها الجميع. ومن ذلك أننا اتفقنا علي ألا يسمع صوت لأي شخص وهو في المرحاض، وإلا سوف تُحصَّل منه غرامة قدرها قرش صاغ. ودخل الشيخ عبد العزيز ولم نسمع له صوتا لكننا أبلغناه زوراً وبهتانا وهو في المرحاض أن أصواتا صدرت عنه، فانشال الشيخ عبد العزيز وانهبد وهو يقسم بالأيمان المغلظة أنه لم يطلق أية أصوات. وفي موقف آخر عندما كان الشيخ عبد العزيز يخلع جلابية الخروج كي يرتدي الجلابية المعدة للنوم طفق الشيخ مصطفي يرفع صوته قائلا : شد.. شد، يقصد «شد اللباس» فيتصور الشيخ عبد العزيز أن هذا سوف يحدث بجد، وهنا تثور ثائرته محتجا بأن هذا لا يليق، وأن هذا إذا حدث فسوف يضرب من تمتد يده ضربا مبرحا. لم يكن الشيخ عبد العزيز يدرك أن هذه مجرد معاكسات نبغي من ورائها الاستغراق في الضحك.

وفيما يتعلق بزميلي إيهاب الزفتاوى فهذا شخص كانت موهبته الكبرى مركزة في الشيطنة والعفرتة. صحيح أنه كان متفوقا في الدراسة لكن جانب الشيطنة غلب عليه حتى عرف به أكثر من أي شيء آخر. كنا نذهب للمذاكرة في مسجد السيد البدوي فيمنح جانبا للمذاكرة، وجانبا آخر يخصصه للمزاح والمعاكسات المغلفة بالمودة والاحترام الشديد. استطيب ذات مرة شخصاً يسبقنا في الدراسة بسنوات فكان كلما التقي به ينحني ليقبل يديه، فيتصور الآخر أنه يفعل ذلك بجد فيشد يده بقوة قائلا: معاذ الله. ويشتط إيهاب الزفتاوى في احترامه له فيسقط علي الأرض في محاولة لتقبيل قدمه فيسحبها هذا سحباً ربما يؤدى إلي وقوعه، وهو مع كل هذا لا يتصور أن إيهاب يمارس لعبة من ألعابه الشيطانية.

مررنا ونحن عائدون من مسجد السيد البدوي علي نسوة يجلسن أمام أحد البيوت. قال لي إيهاب: من المؤكد أنك الآن سعيد جدا برؤية كريمة بنت بعجر. وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذا الاسم، لكن إيهاب أخذ علي عاتقه منذ تلك اللحظة ترويج هذه الشائعة عن حبي لكريمة بنت بعجر، فكان يحكيها لكل من يقابلهم ولزملائنا في الدراسة، ولكل من يأتي إلينا في السكن، لدرجة أن والد الشيخ قطب تفاصح ذات مرة وقال لي: «هكذا تحب من خلف الزهور» يقصد «الظهور».

كان لقب «بعجر» يطلق علي الشخص الذي يمتهن مهنة النداء علي أي إنسان أو أي شيء ضائع. منحه الله صوتا جهوريا ولذلك يطلبه الناس لمثل هذه الأمور. أخذت بالي بعد ذلك من كريمة بنت بعجر. نظرت إليها فوجدتها فتاة تميل إلي البدانة، قصيرة القامة، قمحية اللون، مسترسلة الشعر ولكن علي طريقة بنات الطبقة الفقيرة، تجالس النساء المسنات وربما تساعدهن في قضاء بعض الحاجات، غير متعلمة، وتنطوي شخصيتها علي نوع من

التسليم بما فرضته عليها طبيعة الحياة التي نشأت فيها. قال لي إيهاب: لماذا تنكر أنك تحب كريمة بنت بعجر؟ فقلت له: ولماذا لا تحبها أنت؟. وكانت طبيعة المنطقة التي نعيش فيها تفرض علينا أشياء لا نستطيع لها دفعا. فهي منطقة شعبية قريبة من شارع الصاغة المتفرع من شارع السكة الجديدة، كما أنها قريبة من المعهد الديني الثانوي ومن محطة القطار.وكانت تضم أخلاطا من البشر، منهم المتعلمون الذين ينسبون إلي الطبقة الوسطي، والتجار الداخلون ضمن نسيج الطبقة الشعبية، والعمال، والفلاحون. وكان البيت الذي نسكن فيه مملوكا لأسرة من الفلاحين: ثلاثة إخوة اثنان منهم متزوجان، وفي البيت حظيرة مواشي تضم حماراً وجاموستين وبقرة. وبالقرب منا كانت تسكن أسرة عائلها موظف في الحكومة، له بنت تدرس في الجامعة اسمها صباح كانت تبدو في نظرنا مثل فرسة جامحة، فهي طويلة القامة، ممشوقة القوام، جميلة الطلعة، حسناء المنظر، ترتدي جونلة قصيرة كعادة البنات في تلك السنوات، وبلوزة ذات ألوان زاهية، وتسرح شعرها بطرق مبتكرة، وتنتعل حذاء طويل الكعبين، تمشي في الشارع فتجذب كل الأنظار، وبالطبع كان من المستحيل أن يفكر إيهاب الزفتاوى في الادعاء بأنني أحبها. فهذه كنا ننظر إليها علي أنها ثمرة ناضجة من تلك الثمار التي لا نعرف طريق الوصول إليها. وكل ما كنا نقدر عليه هو أن نقف خلف النافذة لنشاهدها وهي تمر مر السحاب.

وإذا كان الإنسان لديه القدرة علي التعايش مع الظروف المحيطة به فقد وجدنا ضالتنا في هذه السن الحرجة في الأفراح التي كانت تقام كل أسبوع تقريبا في هذه المنطقة الشعبية. نترك المشايخ ينامون مبكرا وأذهب أنا وإيهاب للفرجة. كان أصحاب الفرح يقيمون مسرحا في وسط الشارع وتأتي الراقصة بصحبة فرقتها الموسيقية للعزف والرقص حتى فترة متقدمة

من الليل، والمدعوون جالسون علي كراسي أمام المسرح، أما نحن وغير المدعوين فنظل واقفين إلي أن نتعب، ثم ننسحب في هدوء بعد أن شاهدنا جزءا لا بأس به من العرض الراقص وما يتخلله من نقطة يتطوع بها الأقارب، وأثناء ذلك يعلو صوت مقدم البرنامج معلنا عن الفرح، وأصحاب الفرح، وصاحب النقطة، والمشاهدين الكرماء وغير ذلك. وكانت لنا وسائل أخرى للتنفيس عما يدور بداخلنا من فوران جنسي لا نستطيع له دفعا. فقد كنت أنا وإيهاب وبعض الزملاء نفضل أحيانا عدم الذهاب إلي باحات مسجد السيد البدوي لاستذكار الدروس بسبب امتلائها بالطلاب من كل الأشكال والألوان. وكنا نعرف زاوية قريبة معزولة نسبيا تقع في شارع درب النساء، ولم تكن النساء في ذلك الزمن متعودات علي الذهاب إلي المسجد القطر يخدم فيها شخص يسمي الشيخ صادق. كان بها صالة علوية فكنا نجلس فيها وكأننا مقيمون. وحدث أن شاهدنا بالصدفة فتاة جميلة نستذكر دروسها مثلنا في الشرفة المقابلة، فبدأنا نكشط ثغرة في الزجاج المعتم ننظر منها إلي الفتاة بين الحين والآخر، وكأننا عثرنا علي كنز ننظر إليه من بعيد ولا نملك أي وسيلة للوصول إليه. فهل كانت هذه الفتاة هي المعادل الموضوعي للرغبات الكامنة في دواخلنا والتي كانت مستحيلة التحقق علي أرض الواقع؟

قلت لإيهاب الزفتاوى: دعك من كريمة بنت بعجر، وساعدني في الوصول إلي هذه الفتاة الجميلة. قال: ولماذا لا تساعدني أنت؟ هل علي رأسك ريشة؟. وهكذا يا صديقي، ظللت تحلم حتى ضاع حلمك بين ركام كثيف! وها هي كريمة بنت بعجر مازالت أرفع نموذج يمكن أن تحلم به ، لكنك تأبي إلا أن تعيرني هذا الحلم، وكأننا فرسا رهان، كل منا ينسج حلمه علي مقاس الآخر، ويسوّقه بين العباد والبلاد حتى يأتي والد الشيخ قطب

ويتفاصح قائلا: «الشيخ إيهاب رجل حفيص - يقصد حصيف - يُلقي حمله علي أكتاف الآخرين».

كنا نسكن في هذا البيت الريفي المقام وسط بنايات تنسب إلي المدينة. ونحن جميعا ومن يزوروننا من الأقارب منحشرون في حجرة واحدة كبيرة نسبيا، تتحمل سريرا واسعا، وأريكتين. وفي حالة وجود زوار ينام بعضنا علي الحصير المفروش علي الأرض تاركين السرير أو الأريكتين للزوار. والمشكلة لم تكن في هذه الحجرة لأننا كنا راضين بها بل وسعداء بالعيش فيها. نأكل ونشرب، وننام ونثرثر، ونضحك، ونخترع مواقف للتسلية، وتأتي علينا أيام وفرة عندما نكون عائدين من قرانا أو لدينا بعض الأهل الذي حضروا ومعهم الزواويد التي تضم الأكلات الطازجة. لكن لدينا كذلك أيام محاق يقل فيها الأكل، وفي هذه الحالة كنا نعيش علي الشراء. والشراء ينحصر في أربعة أشياء أو خمسة: فول، وطعمية، وخبز، وفجل أو جرجير، وأحيانا سردين. وكان من عادة الشيخ عبد العزيز أن يلتهم رغيفا من الخبز البلدي كبير الحجم، مع خمس طعميات صغيرة، وحزمة فجل أو جرجير. وكنا نتعجب: كيف يستطيع أن يلتهم هذا الرغيف الكبير بخمس طعميات فقط؟ وبعد أن ينتهي من الأكل يتجشأ ويطلب كوبا من الماء يقول إنه يساعد به المعدة علي هضم الأكل. أما الشيخ مصطفي فكان يتشدق بحديث: «لا تجعلوا آخر طعامكم الماء»، ولهذا يفضل أن يُشرب الماء في وسط الأكل.

فأين كانت المشكلة إذن؟ لقد كانت في المرحاض. ولعله أسوأ المراحيض التي شاهدتها في حياتي. فقد كان مرحاضنا في القرية واسعا، أما هذا المرحاض فإنه ضيق جدا، بلدي طبعا، ويبدو وكأن أرضيته من طين مجتمع بعضه فوق بعض، لأن هذا الطين لم يكن ينته أبداً، وإضافة إلي كل هذا فإنه لم يكن مضاء، وبما أنه محشور في مكان مظلم فإن الظلام كان يلفه

حتى في وسط النهار، ولهذا كنا ندخله ونحن متوكلون على الله، خوفاً من أن يكون به ثعبان في هذا الركن أو ذاك. ولأن المرحاض لم يكن يصلح إلا لقضاء الحاجة بشق النفس، ونحن في مرحلة المراهقة والشباب نحتلم كثيرا ونحتاج في الصباح إلى الاستحمام لرفع الجنابة فقد وطّنا أنفسنا علي أن يتم ذلك في مراحيض مسجد سيدى مرزوق القريب منا. كنا نصحو من النوم قبيل صلاة الفجر، ونذهب إلي هذا المسجد نتوضأ أو نغتسل ونصلي خلف شيخ المسجد الذي أطلقنا عليه لقب «أفحسبتم» لأنه لم يكن، في غالب الأحيان، يقرأ من القرآن الكريم إلا هذه الآية من سورة «المؤمنون»: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون .. الخ». وبعد الصلاة نظل نذاكر في المسجد إلي حين اقتراب موعد الذهاب إلي المعهد. نذهب إلي السكن لتناول الإفطار ثم يرتدي كل منا لباس الحضور، وننطلق ذرافات. وفي هذه اللحظة كنت تجد كل الشوارع مليئة بالطلاب الساعين في نشاط واضح إلي المعاهد أو المدارس.

كان مسجد سيدي مرزوق يضم أخلاطا من البشر رجالا ونساء، شبابا وشيبا. فالشباب من أمثالنا يستذكرون دروسهم، والفقراء يتخذون منه مكانا للارتزاق، وغالبا ما كنت تجد شخصا أصابه مس من جنون لفقدان ثروته أو بسبب مشاكل عائلية طاحنة أو صلته إلي هذه الحالة. وكثير من النسوة كن يدخلن من باب المسجد ويدلفن مباشرة إلي المقام وكل منهن تحمل طرحتها التي سوف تكنس بها المقام. فقد كان هناك اعتقاد لدي العامة بأن أي شخص مظلوم إذا قام بكنس مقام سيدي مرزوق فإن الله سوف ينتقم من الظالم. ويبدو أن الظلم لا ينقطع أبدا بدليل أن مقام سيدي مرزوق لم يكن يخلو في ساعة من ليل أو نهار من امرأة تجتهد في

كنسه بهمة ونشاط لا مثيل لهما. ومن المؤكد أن المقام كان دائما نظيفا وشفافا.

كان يذاكر معنا في هذا المسجد طالب في المعهد الثانوي اسمه عبدالستار، طويل القامة، متين البنيان، لدرجة أننا كنا أقزاما بالنسبة له، من هنا أطلق عليه إيهاب الزفتاوى لقب «المطْر» (بتسكين الطاء)، والمطْر هو الصومعة المصنوعة من الطين كان يوضع علي سطوح المباني القروية وتخزن فيه الغلال، ومعروف أنه كان كبير الحجم. وقد انتشر هذا اللقب عند كل الطلاب من رواد المسجد فكانوا يقولون: الشيخ عبدالستار المطْر حضر، أو الشيخ عبد الستار المطْر لم يحضر، بل كنا أحيانا نعاكسه قائلين: اسكت يا مطْر.

الشيخة زبيدة

ارتبطت الشيخة زبيدة في ذهني بمولد السيد البدوي، هذا المولد الذي يبدأ في أحد أيام شهر اكتوبر من كل عام، ويستمر أسبوعا، وتكون ليلته الكبرى يوم الخميس، ويوم الجمعة بعد الصلاة زفة الخليفة. في هذا الأسبوع تتحول مدينة طنطا إلي كعبة للقاصدين من كل أنحاء الجمهورية، لاسيما رجال الطرق الصوفية الذين ينصبون خيماتهم حول المسجد، وفي ساحات المولد، وكانت في أيامنا مناطق واسعة جدا وشبه خالية من البنايات والسكان، تبدأ من نفق سيجر تقريبا، وهو النفق الذي تمر عليه قطارات السكك الحديدية وتنتهي عند القرية المسماة بهذا الاسم «سبجر». وكانت المباني في هذه المنطقة قليلة، ومن بينها مبني المعهد الديني الإعدادي الذي أقيم حديثا، وحل محل المساجد التي كانت تستخدم لهذا الغرض. ولهذا كانت هذه الساحات الواسعة، في أيام المولد، تمتلئ بالخيام المزدانة بالأنوار القوية البراقة، واللافتات التي تعلن عن الأنشطة داخل الخيام، والصور المعبرة عن الفنون والعروض التي تقدم، وكنت تجد أمام كل خيمة شخصا يمسك بمكبر صوت داعيا المارة إلي الدخول لمشاهدة العرض الذي لم يروا مثله في حياتهم.

قال لي الشيخ مصطفي: تعال معي نشتري لبشة قصب من ساحة المولد. وكانت هذه بداية المولد بالنسبة لنا. فباعة القصب في هذه الأيام ينتشرون في كل الأماكن، وقد جهز كل منهم نفسه بكوم كبير من القصب مرصوص علي هيئة لِبَش (بفتح الباء)، واللبشة عبارة عن عدد من أعواد القصب ملفوفة بطريقة مريحة، يقول لك البائع إن ثمنها عدة قروش وتظل تساومه حتى تأخذها بالسعر المناسب. وكان الشيخ مصطفي بارعا في

الفصال. صحيح أنه كان زبالا فيما يتعلق بالبلح والفاكهة بشكل عام، لكن في شراء القصب يعرف كيف يقع علي اللبشة الجيدة الخالية من السوس.

أجّل المشايخ نومهم في تلك الليلة، وخرجت مع الشيخ مصطفي بعد صلاة العشاء. كانت بعض الأركان في الشارع قد بدأت تمتلئ بأسر كاملة من قصاد المولد أو الذين نطلق عليهم مسمي «الموالدية»، وقد افترشوا الأرض بأبسطة قديمة، وتجهزوا ببعض الأدوات اللازمة للإقامة مثل الأواني، وبرادات الشاي، ووابورات الجاز، والأغطية، وبعضهم أحضروا معهم مواقد لعمل الشاي لأنهم يعتقدون أن هذه المواقد ليس لها مثيل في إنضاج الشاي الجيد. وصلنا إلي شارع الصاغة ثم دلفنا منه إلي شارع السكة الجديدة ووجدنا محلات الحمص والحلاوة قد تزينت بأفخم ما لديها من الزينات، والأضواء الكاشفة، واللمبات الملونة، وفروع الزينة. مررنا علي المعهد الديني الثانوي، واجتزنا نفق السكة الحديد الذي بدأت تظهر عليه آثار الزحام، من مياه، ومخلفات وغير ذلك. وما إن دخلنا في الطريق المؤدي إلي ساحات المولد حتى وجدنا آثار القش المتخلف عن أعواد القصب تملأ الأركان. قال لي الشيخ مصطفي: كلما تقدمنا أكثر سنجد أسعار القصب أرخص. وهكذا صرنا نتقدم لنمر علي الخيام التي نصبت، وألعاب المولد المنتشرة في كل مكان، والمراجيح، وعربات الأكل من كل الأصناف والأنواع، والحواة، والمشعوذين، وضاربي الودع، وأصحاب القرود. ولا أدري لماذا شدتني القرود فقلت للشيخ مصطفي: انتظر قليلا لنري ما يفعله هذا القرد وصاحبه.

كان القرد مدربا علي ألعاب يطلبها منه صاحبه. يقول له: عجين الفلاحة، فيفعل القرد مثلما تفعل الفلاحة بالعجين. ويقول له: تعظيم سلام للسادة المشاهدين، فيقدم تعظيم سلام للجميع. ويقول له: عجين العجوز، فيفعل

مثلما تفعل العجوز. وفي ختام العرض يطلب القرداتي من السادة أن يجود كل منهم بشيء مما معه. وبما أنني والشيخ مصطفي لم نكن نملك أكثر من ثمن لبشة القصب انسحبنا في هدوء ومشينا في الطريق حتى توقفنا عند أحد الباعة ، توسم فيه الشيخ مصطفي خيرا. اشترينا لبشة من القصب، ونقدنا البائع الثمن، ثم عدنا أدراجنا. وجدنا الشيوخ ينتظرون في شوق. اختار كل منا عودا من القصب، وانهمكنا في المص حتى أتينا علي اللبشة كاملة.

وفي ليلة أخرى من ليالي المولد، ولم تكن ليلة الخميس لأن الزحام فيها لم يكن يطاق، خرجت أنا وإيهاب الزفتاوى، وتواعدنا مع زملاء آخرين من بينهم عادل السنارة، وإبراهيم البشبيشي. التقينا أمام المعهد الديني الثانوي، وعبرنا النفق منطلقين نحو ساحة المولد. بدأ الزحام يشتد، والناس يتوافدون من كل الأعمار رجالا ونساء وأطفالا، وعلت الأصوات، كل يروج لبضاعته أو الفقرات الفنية والترفيهية التي يقدمها. وقفنا عند لعبة قطار القضبان الصغير الذي ينطلق في سرعة فائقة فيصيب الهدف ثم يعود بنفس السرعة. واشترك إيهاب الزفتاوى في لعبة إصابة الهدف عن طريق بندقية صيد طويلة، فأخفق في مرات كثيرة وأصاب في مرتين أو ثلاث، وحصل من صاحب اللعبة علي مبلغ بسيط يمكن أن يعوضه عن بعض ما دفعه. كان إيهاب الزفتاوى أكثرنا مصروفا لأن عمه الحاج أحمد الزفتاوى لم يكن ينجب فكان يعتبره ابنه وينقده في أحيان كثيرة بعض المال. وطلب مني إيهاب أن أشاركه في ركوب المرجيحة الحديد، ولكني لم أكن أملك الجرأة علي ركوب هذا النوع من المراجيح.

انتقلنا بعد ذلك إلي سيرك يقدم عروضا فنية أعلنوا عنها بلوحات بارزة علي واجهة الخيمة، تقدم صوراً منتقاة للعروض، ومن بينها صورة للشيخة زبيدة، وأخرى للساحر العجيب. رسم الساحر العجيب وهو يقدم أعماله

السحرية فائقة الوصف، وكان الفتي الذي يعلن عن هذه العروض من علي منصة أمام الخيمة وصوته يجلجل في الميكروفون يقول: «شوب بيعمل إيه.. شوب بيعمل إيه» يقصد: «شوف بيعمل إيه»، وبواصل: «الساحر العجيب.. الساحر العجيب»، هكذا ينغم الكلام تنغيما، ويتراقص معلنا أن هذا الساحر جاء من الهند لإسعاد زوار السيد البدوي وإدخال البهجة في قلوبهم، وهو مصمم علي البقاء طوال أيام المولد لأنه لا يمكن لأحد أن يحل محله في هذا العرض السحري الجذاب. أما الشيخة زبيدة -وهذه يمنحها الفتي مساحة واسعة من إعلانه -فهي كائن عجيب، وصورتها التي علي واجهة الخيمة توضح ذلك. فهي قزم نسائي يشبه الضفدعة، لكنها تتحدث وتلقي قفشات وتعاكس النظارة. وقد وعدنا الفتي بأنها سوف تتباسط معنا، وتتبادل النكات، وأننا سوف نقضي معها وقتا سعيدا. وكل هذا العرض بتسعة مليمات فقط. وقد أقسم الفتي بالأيمان المغلظة بأننا إذا دخلنا ولم يعجبنا العرض فسوف يعيدون إلينا فلوسنا كاملة.

تقدم إيهاب الزفتاوي من الشباك وقطع لنا تذاكر بعددنا، ولم يفتح باب الخيمة إلا بعد اكتمال عدد الداخلين، لأن العرض جذاب -هكذا قال الفتى -ولا يصح أن يبدأ إلا إذا كان العدد مكتملا. ودخلنا فلم نجد كرسيا واحداً، وبالتالي جلسنا جميعا علي الأرض ونحن نمنى النفس بمشاهدة عروض فنية مدهشة. تركت الجميع ينتظرون وانخرطت مع الشيخة زبيدة في مشهد حالم أستعيد فيه كل ما سمعته من الفتى عن هذا المخلوق العجيب. ولم تمر عشر دقائق حتى فتح باب الخروج، فخرجنا جميعا ونحن نزمجر ونلعن أصحاب الخيمة ومن فيها. لم نشاهد الساحر العجيب الذي جاء من الهند خصيصا لإسعادنا، ولم نشاهد الشيخة زبيدة، ولم نشاهد أي شيء علي الإطلاق. كل ما حدث أننا دخلنا من باب الدخول، وجلسنا

علي الأرض، ثم خرجنا من باب الخروج. وكل هذا في مقابل قرش صاغ كامل كان في أيامها يمكن أن يمنحك وجبة غذائية كاملة.

وهكذا لم أرك، ولم أتكلم معك أيتها الشيخة زبيدة، ولكن صورتك المرسومة علي واجهة الخيمة مازالت تعيش معي إلي الآن. فهل تستطيع الصورة أن تحل محل الكيان الإنساني وتغني عنه؟ هذا بالفعل ما حدث بيني وبين صورة الشيخة زبيدة، تلك التي عرضت لي بصورة قوية في موقف مشابه في مدريد. فذات ليلة، وكنا في شارع خوسيه أنطونيو في وسط مدريد،قال لي الشاعر عبد الوهاب البياتي: هذا المسرح يقدم فنانة فلامنكو مشهورة تغني بعض الأغاني المأخوذة من أشعار لوركا، فهيا بنا نقضي هذه الليلة في مشاهدة هذا العرض. وافقت، فقطع البياتي تذكرتين ودخلنا. كان البياتي في تلك الفترة قد وقع أثناء سيره في الشارع وأصيب بكسر في رجله اليمني، ومن ثم كان يستند علي عصا. دخلنا وفوجئنا بأن المغنية المشهورة تغيبت في ذلك اليوم وجاءت أخرى بدلا منها. احتج البياتي علي ذلك وأخذ يرفع عصاه متوعداً بأنه سوف يضربهم لأنهم أخلوا بشرط الدخول. لكني -وصورتك في مخيلتي أيتها الشيخة زبيدة -خففت من ثورته وقلت له: طالما أن المغنية البديلة سوف تقوم بنفس الدور فلا مانع من مشاهدة العرض. وقد وجدته ينزل علي رأيي وإن لم يخف امتعاضه مما حدث.

ولا يكتمل مولد السيد البدوي إلا بمشاهدة زفة الخليفة. أدينا صلاة الجمعة في المسجد، وكان قارئ السورة هو الشيخ محمود علي البنا. و المسجد مزدحم بصورة لا مثيل لها. وقفنا بعد الصلاة ننتظر انطلاق الزفة. وجاء الخليفة يركب حصانا، والزحام حوله شديد جدا. تطلعت إلي الخليفة فوجدته يضع علي رأسه عمة بيضاء كبيرة، لا تشبه العمم التي نرتديها في المعهد الديني وإنما هي ذات طابع خاص لا يلبسها إلا خليفة. لم أتحقق من

حجم الخليفة أو وجهه، بل شاهدت منظره من بعيد، وهذا ما حدث لي في كل السنوات التي حضرت فيها هذه الزفة.

راقبت الموكب من بعيد فوجدت الخليفة يتمايل ويضطرب من شدة الزحام والتدافع من حوله. أما الموكب نفسه فإنه يعكس الأنشطة الموجودة في المدينة. فتجار المحلات الكبرى ينتظمون في الصف بعرباتهم النقل التي تحمل بعض معروضاتهم من البضائع مثل الأقمشة، وأواني النحاس، و الموبيليات، و الصواني، والأطباق، وغير ذلك. وأصحاب المتاجر الصغيرة يعرضون بضائعهم علي عربات كارو تجرها الأفراس والبغال، وبعد ذلك يأتي عامة الناس محشورين في عربات كارو، والجميع يصيحون أو يغنون أو يقدمون بعض العروض الفقيرة كالضرب علي الطبول أو الدفوف.

انتهيت من مشاهدة الموكب، وكنا قد اتفقنا علي أن نلتقي في مكان معروف نذهب منه إلي السكن حتى نعد العدة ليسافر كل منها إلي قريته. اشترينا بعضاً من الحمص وحلوى المولد، ثم توجه كل منا إلي الموقف الذي ننطلق منه نحو القرية. كانت المدة التي سوف نقضيها في القرية قليلة لكنها لازمة لإدخال الفرحة علي أهل الدار، لاسيما وأنهم كانوا يحنون لحلاوة المولد التي لم يكونوا يتزودون بها إلا مرة في كل عام.

المصــلاة

تعودنا في الأزهر أن نأخذ فترة أجازة طويلة قبل الامتحانات. كان الامتحان أيامها مرة واحدة في العام، ولم تكن الدراسة مكونة من فصلين دراسيين يعقب كل منهما امتحان ثم فترة أجازة. ولهذا كنا نحضر طوال العام فيما عدا فترة أجازة من أسبوعين في منتصفه أما الأجازة الكبيرة فتأتي قبل الامتحانات وتمتد لشهر ونصف أو أكثر. وبعد الامتحانات بالطبع تأتي أجازة الصيف. أي أننا كنا نقضي في القرية فترة طويلة أهمها تلك الفترة السابقة على الامتحانات، لأنها كانت فترة مذاكرة واستعداد وتأهب، مع ما يصحب ذلك من خوف وترقب ورغبة في النجاح واجتهاد في التحصيل والاستيعاب.

وها أنت أيها العام الدراسي قد انتهيت وحملت معك كل ما شهدناه أثنائك من جد واجتهاد ومداومة علي الحضور، والرغبة في التقاط العلم من أفواه المدرسين، وتحمل قسوة الحياة في الغربة بعيدا عن الأهل والأصدقاء في القرية. حملت معك أيها العام الدراسي أيضا كل ما شهدته من شقاوات قمنا بها، وأفعال تحملنا تبعاتها، ومعابثات اصطلينا أو اصطلي غيرنا بنارها. كان بعض المدرسين لديهم قدرة فائقة علي حفظ النظام في الفصل، وشد انتباه الطلاب، وتقديم المادة لهم بطريقة سهلة ميسرة، والبعض الآخر لا يمتلكون هذه القدرات، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع الفتيان في هذه السن الحرجة، وبالتالي كان من الطبيعي أن يجد بعض الطلاب الأشقياء الفرصة للعفرتة التي ينساق إليها الجميع بدافع الرغبة في التسلية والضحك وقضاء وقت ممتع بعيدا عن الجدية المفروضة والصرامة التي يجيد الآخرون تطبيقها. درّس لنا ذات مرة مادة «الحديث» شيخ كان يتلعثم كثيرا وينفعل بسرعة دون أن يتخذ قرارا أو يفرض عقوبة، فقام أحدنا بالنقر بأصبعين

من أصابعه، ووجدها الجميع لعبة مسلية ونغمة موسيقية منتظمة فانطلقت جميع الأيدي في نقرات متتابعة. وهنا خرج الشيخ عن طوره فعلا صوته، وانتشر الزبد فوق شدقيه، وأخذ يهددنا بأننا جميعا سوف نرسب لأن كمتراته المعهد تحت يديه، يقصد الكونترول. وبما أننا كنا متأكدين أن هذا مجرد كلام لا معني له فقد تواصلت النقرات طوال العام الدراسي، لا هو ملَّ من التهديد ولا نحن مللنا من النقر.

وهكذا عدنا إلي القرية، والعود أحمد. وكان من الأماكن التي نتجمع فيها مصلاة صغيرة مساحتها لا تزيد علي متر ونصف في مترين، مقامة علي الترعة الصغيرة أو القناة التي تمر علي بيتنا، أقامها صاحب الأرض عبدالرحمن عواد. وهذه كانت عادة في الريف أيام أن كانت الترع نظيفة تجرى فيها المياه بصفة دائمة. الآن تحولت الترع إلي مصارف وبرك ومستنقعات.كان عبدالرحمن عواد شخصية عجيبة، فهو لا يملك إلا هذه القراريط الثلاثة المحازية للترعة، يزرعها خضراوات ويقضي معظم وقته للعمل فيها: يعزق، وينقي العفش، ويسقي، لكنه طوال فترة العمل يبدو وكأنه يتشاجر مع نفسه، تصدر عنه صيحات متواصلة وشتائم لا أدري هل يوجهها إلي نفسه أو يقصد بها آخرين. ويكون من سوء الحظ بالنسبة لأي طفل أو طفلة إذا مر علي الطريق الضيق القائم بين أرضه وبين الترعة أثناء احتدام العراك. ومع ذلك فإن نفسه كانت تنطوي علي جانب خير، والدليل علي ذلك هذه المصلاة الصغيرة التي أقامها علي أرضه، وبني لها -كما هي العادة -سورا واطئا من الطين، وأحضر صخرتين جعل منهما درجتين حتى يستطيع المصلون الوضوء من الترعة.

وبما أن لكل مكان رواده الذين تجبرهم العادة علي الارتباط به، فإن الرواد الذين داوموا علي الصلاة في هذا المكان هم:الأستاذ عبد العليم الدمنهوري، والحاج حسين القشدة، وأنا، وعبد الموجود الشرقاوي، ووالده،

وعبد السلام الرماح، والسيد عسرانة، وعبد العظيم جواد الملقب بسكسك. لكن كثيرين كانوا يأتون فيصلون بسرعة ولا يجلسون انتظاراً للصلاة التالية. وقد تحولت المصلاة خلال فترة طويلة إلي منتدى اجتماعي ثقافي إذا وضعنا في الاعتبار المفهوم العام للثقافة الذي يعني وجود جماعة من البشر تجمعها في فترة محددة عناصر مشتركة أو شبه مشتركة تؤلف بينها وتجعل منها عصبة واحدة.

كان الأستاذ عبد العليم الدمنهوري مدرسا في المدرسة الابتدائية بعد أن حصل علي ابتدائية الأزهر، وقد زامل والدي أثناء الدراسة لكنه أكمل المرحلة الأولي التي أتاحت له العمل في الحكومة. عرف بخفة دمه وقفشاته المتزجة بما حصّله من تعليم وثقافة. كان متوسط القامة، قمحي اللون، يميل إلي السمرة، خفيف الشعر، دقيق العضل، مستوى الجبهة، نظرة عينيه تنم عن خبرة وسماحة وعفوية ولهذا فإن وجوده بيننا كان يضفي علي الجلسة نكهة خاصة. وذات مرة نسي الحاج حسين القشدة نفسه، وكان معروفا بأنه في حديثه يميل إلي الفشر، وقال إنه أثناء زيارة قام بها إلي البندر -راكبا حماره - ومعه آخرون، مروا علي عزبة الأوقاف ففوجئوا بخروج ثعبان طويل من بين الزراعات، واشتط الحاج حسين في كلامه حتى وصل إلي تشبيه الثعبان بأنه مثل الناف. والناف هو عرق الخشب الطويل (أكثر من مترين) كانت تحمله دابتان ويعلق فيه محراث أو نورج أو غير ذلك من الأدوات الزراعية البدائية. أي أنه كان يستخدم في جر هذه الأدوات. وقد لاحظنا آثار هذه الفشرة الواسعة علي وجه الأستاذ عبد العليم، حيث ارتسمت ابتسامة ساخرة علي محياه ووجدناه يقول للحاج حسين: «يا أخي طب قل مثل القضيب». والحق أنه لم ينطق كلمة القضيب وإنما استبدل بها الكلمة العامية المعروفة. وهنا ظهر الارتباك علي وجه الحاج حسين وتوقف عن استكمال قصته.

كان الحاج حسين شخصا فيه عصامية، يجتهد في تحصيل الرزق، فيزرع الأرض ويتاجر في الحبوب، ويقضي أوقات فراغه في صنع القفف من الخوص، يجدل الخوص أولا ثم يؤلف بينه بمهارة ودقة، علي الرغم من أنه كان يعاني من مرض الربو الذي يسلمه في أحيان كثيرة إلي نوبات من السعال تتصور أثناءها أن روحه سوف تخرج من جسده. وكان أهل القرية -كعادتهم الشائعة -يلقبونه بالقشدة، ولم أعرف أبداً لماذا أطلقوا عليه هذا اللقب؟ هل لأنه كان يحب القشدة؟ وما المانع في ذلك؟ فأنا نفسي كنت أحب القشدة وأتحين الفرص للانفراد بها في خزينة اللبن، ولم يلقبني أحد بهذا اللقب. أم أن الألقاب كانت تصدر هكذا بالصدفة وتبدو وكأنها قدر لا فكاك منه؟ وكانت هذه الألقاب تتخطي كل المحرمات فيما يتعلق باللغة، ونستطيع أن نذكر منها هنا أخفها مثل "مضراط"، و" الفسيجي"، و" أبو ظرته" لكننا نحجم عن نكر الألقاب الأخرى التي يمكن أن تخدش حياء القارئ. فهل كان أهل القرية يجدون في هذه الألقاب التي تخرج أحيانا عن حد الوقار وسيلة للتسلية، والخروج مما هم فيه من فقر وحاجة وشظف وتقتير؟

أما عبد الموجود الشرقاوي فكان يصغرني بأربع سنوات، طويل القامة، متين البنيان، لكن عقله لم يكن علي مستوي بنيانه، فقد كان فاشلا في دراسته، يأخذ السنة في سنتين، واستمر في الثانوية العامة سبع سنوات ولم يستطع الحصول عليها. سألت والده بعد ظهور نتيجة الإعدادية: ماذا فعل عبد الموجود؟. فرد علي وهو يهرول: «المدرسة كلها سقطت». وكأنه كان يريد أن يرد بهذه الجملة ولا يتوقف، تخففا من حمل ثقيل كان يحمله. ضحكت بالطبع وضحك من حولي علي هذا الرد الدبلوماسي الفطري. وعندما فتحت العراق أمام المصريين في أيام صدام حسين سافر عبد الموجود إلي هناك واشتغل علي عربة جاز كان يجزها بدلا من الدابة. ثم عاد إلي القرية وتزوج، وعاني من الفشل في جماع زوجته، ووجدته ذات

يوم، بعد أن عدت من البعثة، يزورني، وجلس يحكي لي عن فشله الزوجي، فقال: هل تعرف أن السيد الشاطر قد ربطني؟ وكان السيد الشاطر معروفا باشتغاله في هذه الأمور. قلت له: وكيف عرفت ذلك؟ فقال: حضر إلينا لزيارتنا -وكان من أقربائهم - ولاحظت أن نظراته إليّ كانت مريبة. قلت : ولكن هذه النظرات لا تدل علي أنه أراد أن يربطك. قال: كلا، أنا متأكد من أنه فعل ذلك، وإلا فأعطني تفسيراً لحالة العجز التي أصابتني. ولم يثمر الحوار مع عبد الموجود، فتركني وهو عازم علي الانتقام من السيد الشاطر. ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك، لكني علمت أن عبد الموجود مات فجأة وغادر هذه الحياة إلي غير رجعة.

عبد السلام الرماح كان من عمر والدي، يرتزق من زار يقيمه كل أسبوع وتأتي إليه النسوة من كل البلاد المحيطة. لم تتح لي فرصة لدخول هذا الزار، ولكننا كنا نسمع نقرات الدفوف، والطبول، وربما تلصصنا علي النسوة وهن ينهمكن في حالة رقص عنيف علي الإيقاع المنغم بطريقة مخصوصة تؤدي إلي خروج الجان من جسد المرأة الممسوسة. ويبدو أن الجان كان يستقر في أجساد نساء كثيرات لأننا في ذلك اليوم كنا نرى النسوة يأتين ذرافات من كل فج، وكل منهن تمضي في الطريق وكأنها تحمل حملا ثقيلا علي ظهرها. لم نناقش عبد السلام إطلاقا حول ما يجري في الزار، والغرض منه، وفوائده.

ولاشك فى أنه كان هناك اقتناع واضح بأن الزار ضرورة من ضرورات الحياة وأن هذه الحفلة الصاخبة هي الوحيدة القادرة علي إخراج الجان من أجساد النساء. لكن عبد السلام كان يتدخل في المناقشات العامة، بل ويمكن أن يتفلسف. ولأنه كان معتاداً علي أداء صلاة الفجر يوميا في الجامع الكبير وليس لديه عمل آخر غير الزار فإنه كان يتعجب من هرولة الناس بعد الصلاة، وذهابهم مبكرا إلي الحقول، هذا يسحب جاموسته،

وذاك يركب حماره، والجميع متلهفون، متسرعون، حريصون علي جلب المال، فكان يعلق علي ذلك وهو جالس بيننا قائلا: لماذا هم متلهفون هكذا؟ ألم يخلق الله ميكائيل؟. بقصد أن الملاك المسمي بهذا الاسم متكفل بتوزيع الأرزاق. فلماذا هذا التكالب؟. والحق أني لم أر في حياتي شخصا بهذا الهدوء. فمنظره نفسه يدل علي قناعته بما أعطاه الله من صحة، وما أتاه من رزق، وما يسر له من حياة سهلة بسيطة هادئة.

بالنسبة للسيد عسرانة فإنه كان مزارعا بسيطا ناهز الخامسة والثلاثين من عمره، فيه طيبة واضحة، لكننا كنا نتعجب لماذا ينقلب السيد عسرانة في بيته إلي شخص آخر عنيف، صاخب، لا يكف عن الشجار مع زوجته، يخلق من الحبة قبة، ويبالغ في طلباته وأوامره. ويبدو أن زوجه، وكانت جميلة قوية، لطول ما اعتادت منه ذلك عرفت كيف توقفه عند حده عندما يزداد انفعاله ويتعدي عليها بالضرب، فكانت تمد يدها بسرعة إلي محاشمه، وهو الاسم الذي كان يطلق علي الخصيتين، فتضغط عليهما بقوة، وعندئذ ينفثئ غضبه،ويتمدد علي الأرض جثة هامدة. لم نتحدث معه أبدا في هذا الأمر خوفا من أن نفقده وبذلك تكون هذه العصبة قد فقدت شخصا يداوم علي الحضور. كل ما فعلناه أننا كنا نسمع هذه الأخبار ونضحك عليها.

أما عبد العظيم سكسك فقصته لا تختلف كثيرا عن ذلك. فهو كذلك مزارع بسيط، من عمر السيد عسرانة. عرف أيضا بالطيبة، وبشدة الانفعال، لكن انفعالاته لم تكن توجه إلي زوجته بل إلي جيرانه، فهو يغضب من أي مشكلة بسيطة، ويشتط في غضبه، فيسب ويشتم ويجري لإحضار الفأس موهما الخصم بأنه سوف يضربه بها. وما إن يقترب منه هذا الخصم حتى يتنازل له في سلاسة عن الفأس، ويهدأ تماما كأنه لم يكن قبل دقائق يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور. وأعتقد أن لقب " سكسك" أطلق عليه من هذا الجانب.

أما أنا، هذا الراوي الذي يتحدث إليك أيها القارئ، فكانت قصتي أعجب من كل ما سبق. فقد كنت أقضي طول النهار خارج البيت، أذاكر علي الترعة، وربما أواصل المشي حتى أصل إلي مصرف المجاري الموازي للطريق المرصوف الذي يصل بين طنطا وكفر الشيخ. أذاكر ماشيا وجالسا وأؤدي الصلوات في المصلاة، والتي يعقبها جلسات مع من حضر من العصبة المذكورة. والحق أن النهار كان بالنسبة لي مريحا جدا. وكانت المشكلة تبدأ مع دخول الليل. فالقرية في النصف الثاني من عقد الستينيات لم تكن قد دخلتها الكهرباء، وبالتالي كنا نذاكر علي لمبة الجاز. ومن أسرته أكثر قدرة كانوا يشترون له كلوب،لكن الكلوب كان موجودا في عدد قليل من البيوت. ونحن لم يكن لدينا إلا لمبة الجاز الصغيرة نمرة (٥) ولم تكن المشكلة ،مع ذلك، في لمبة الجاز، بل كانت في أسراب الناموس التي تغزو البيوت مع دخول الليل. لم يكن يفلح معها شيء. نوقد النيران التي يصدر عنها دخان كثيف لطرد الناموس، ومع ذلك نراه عائدا بمجرد أن تخبو هذه النيران. نجلس في ركن منزو ابتغاء البعد عن مجال حركته، لكنه يطاردنا في أي ركن.نشتري أقراصا صنعت خصيصا لطرد الناموس فنجدها عاجزة تماما إزاء هذه الأسراب الكثيرة المتوحشة، والتي تقترب من الأذن وتطلق طنينا مزعجا نخشاه أكثر مما نخشى اللسعات المؤلمة. وأخيرا اهتديت إلي طريقة كانت أكثر نُجعا وأكثر فاعلية، وهي أن أضع لمبة أمامي وفي الأسفل منها الكتاب، وأطالع فيه وأقتل الناموس بكلتا يدي. ولا شك فى أن هذه الطريقة قد نجحت نجاحا باهراً وجعلتني أحرز موقعا متقدما في امتحان الشهادة الثانوية.

وقد حدث بعد أن عدت من البعثة وسكنت في البندر أن قررت ذات ليلة أن أبيت في القرية بعد يوم طويل قضيته في زيارة بعض الأهل والأصدقاء، والبيت كما هو لم يتغير فيه شيء. دخلت المندرة وأحكمت إغلاق الشبابيك،

ولكن البعوض -من كثرته- كان يتسرب تباعا بعد أن ينتهي مفعول البيرسول الذي رششت به المكان، ومن العجيب أنه يتوجه مباشرة إلي أذني فيجعلني أقوم مفزوعا.تركت المندرة ودخلت القاعة ورششتها أيضا وأحكمت إغلاقها، بل إني وضعت علي رأسي طرحة سوداء راجيا أن تعمل علي عدم سماع طنين البعوضة، لكن سعيى خاب أيضا، فقلت ليس هناك إلا حل واحد هو أن أفتح الباب وأجلس في الهواء علي المصطبة المعدة للقعود.ولكننا كنا في فصل الصيف والهواء شحيح، ولهذا كثف البعوض من لسعاته وطنينه، ووجدتني أدور في حلقة مفرغة إلي أن لاحت تباشير الفجر. فقلت في نفسي إنها فرصة أصلي الفجر في الجامع ثم أذهب لزيارة المقابر، وعندما أعود سوف يكون الناموس قد لمّ أسرابه وغادر المكان. ولكن الناموس في ذلك اليوم صمم علي مواصلة هجومه إلي ما بعد طلوع الشمس بساعة.وتعجبت كثيرا:هل هو حنين تجاهي من جانب هذا الناموس؟ أم أنه استكثر غيبتي فأراد أن يوضح أنه شديد الشوق إلي؟أم أنه يعاتبني علي فراري منه وذهابي للإقامة في البندر، وحتى عندما أنزل القرية فإني أغادرها بمجرد دخول الليل؟.إذن فقد كانت فرصة لا تعوض بالنسبة للناموس عندما قررت أن أقضي هذه الليلة في البيت، هذا البيت الذي عشت فيه خمسا وعشرين عاما، وكافحت طويلا لكي يكون مكوثي به مجرد ساعتين أو ثلاث أري فيهما الأهل والأصدقاء، ثم أودع الجميع وأتوجه إلي البندر.

سميرة الصوّاف

لم تكن سميرة الصواف بالنسبة لي كائنا عاديا، بل كانت حلُما، ورغبة متوهجة، وناراً متقدة. كانت تياراً يسري في شراييني، ويعيش في أعماقي، ويمنحني قوة خارقة لتذليل كل العقبات، وتحطيم كل الموانع لكي أكون جديرا بالفوز بهذه المرأة المحبوبة التي اقتحمت كل كياني وحولتني إلي شخص يهيم علي وجهه في منطقة الأعراف، أي تلك المنطقة الواقعة بالتحديد فيما بين الواقع والحلم، لدرجة أني مازلت إلي الآن لا أجزم بالقول الفصل للرد علي هذا السؤال: هل كانت سميرة الصواف واقعا أم كانت حلما؟

عرفتها وهي تخطر علي الترعة القريبة من بيتنا والتي كنا نجعل من شاطئيها الصغيرين مكانا لاستذكار الدروس أثناء النهار. كانت في سن قريبة من سني. وكانت تتعمد الوصول إلي الشاطئ بصحبة كتاب تذاكر فيه أو بصحبة هذه الفتاة أو تلك من أترابها، أو لشأن آخر من شئون حياتها وأسرتها. ومن عجب أنها في هذه السن التي لم تكد تجاوز مرحلة الطفولة كانت امرأة مكتملة الأنوثة، متوسطة القامة، ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، ممتلئة الجسم، فيها اعتدال ورشاقة، غضة، ترتسم علي محياها علامة الحياة والنشاط، وجهها مستدير باسم، وعيناها عسليتان صافيتان، شقراء، تبدو وجنتاها مثل شقائق النعمان المتفتحة، وشقرتها مزيج من ألوان حية زاهية وأخرى مستقرة ثابتة، ولذلك لا يمكن أن تجزم بأن شعرها حالك السواد أو ذهبي اللون، لأنه مزيج بين هذا وذاك. وكنت عندما أراها أحس كأن القمر ترك مكانه في السماء وجاء إلينا ليشاركنا فرحة الحياة علي هذه الأرض. كان لطفها الأنثوي يسحر الألباب، وشقاوتها وخفة دمها تسلب العقول. وثوبها هو ذلك الثوب الريفي الجميل الذي تم تعديله من أجل المرأة

الجديدة المتعلمة التي صارت تشارك الفتيان في التعليم والاندماج في هذا النمط الحياتي الذي لم تشهده القرية من قبل.

كانت سميرة الصواف فتاة تتمثل فيها الغريزة الأنثوية خير تمثيل. وكانت أشبه ما تكون بالصبية قبل البلوغ، بيد أنها تتميز عن الصبية في أنها قد أصبحت في سن يلفت إليها الأنظار. وكثيرا ما كنت أراها تعدو في غير ما داع للعدو، وأحيانا تنبطح علي بطنها كأنها طفلة لا حرج عليها في ذلك. رآها أحد أصدقائي ذات مرة وهي تعدو، وكنت قد أخبرته بتعلقي بها. فقال: أليست هذه هي الفتاة التي تحبها؟ قلت: بلي. قال: إنها مازالت طفلة. قلت: نعم، إنها طفلة ، وهذا هو سر سحرها وفتنتها. والمرأة من هذا النوع تكون براءتها سببا في جاذبيتها، لاسيما إذا تمثل فيها الجمال الأنثوي. ألا تري كيف يسلب الأطفال عقول الكبار؟!.

كانت سميرة نموذجا للمرأة التي تحب أن ينشغل بها جميع من هم في مثل سنها أو علي الأقل من أبناء جيلها، ولهذا كان يمكن أن تكون هي البادئة بإشعال نيران الحب في قلوب الآخرين. وهذا ما حدث معي. فقد بدأت أهيم بها حبا عندما لوحت لي من بعيد، بإشارة من يدها تعني أنها مستعدة للتواصل فيما بيننا. فهل كنت أنتظر هذه الإشارة؟ ولماذا لم أبدأ أنا؟ لا جرم أن الطبيعة الخجولة التي امتزجت بكياني الإنساني منعتني من ذلك، ولهذا كانت إشارتها نوعا من إزاحة الركام، وإذكاء النار، وفتح الأبواب المغلقة. تصورت أنني الوحيد الذي استطاع أن يقتحم فؤاد سميرة الصواف مع أن كل الدلائل كانت تقول إن كثيرين غيري تلقوا إشاراتها، ولا أدري هل أججت قلوبهم مثلما أججت قلبي. كل الذي كنت متأكدا منه هو أن سميرة الصواف امرأة جميلة، يهمها أن ينشغل بها الآخرون، وأن تكون قلوبهم معلقة بها، تفرح بسماع كلمات الغزل والحب والحسن والجمال، وتستاء من أن تهملها الأنظار أو لا تستمع لخطواتها الآذان، كأنها شيء لا

يصح أن ينساه احد ,وقد تكون هذه من طبيعة جمال المرأة، فهو يوحي لها بأن كل عين في الوجود لا يمكن أن تتخطاها، فإذا تختطها العين ولم تنظر إليها أو تهتم بها فهنا يكون الشك القاتل الذي يضنيها ويجعلها لا تشعر بجمالها، بل يجعلها تشك في جاذبيتها، وربما يؤدي هذا إلي إطفاء بعض التوهج في جمالها. ولهذا كنت أحيانا ألجأ إلي إغاظتها عندما أدعي أو أتعمد أني غير مهتم بها، وكان هذا يحدث عندما أسمع الكثير عن أن هناك نوعا من التواصل بينها وبين هذا الشخص أو ذاك.

أحست سميرة الصواف أني أحاول أن أبتعد عنها فأرسلت إلي مع أخي الأصغر، وكان زميلا لأخيها ويتردد علي بيتهم، أنها تريد أن أجيب لها علي سؤال في مادة الرياضيات. أدركت أن هذه مجرد حجة لإعادة المياه إلي مجاريها، ولكن قلبي استشاط من الفرح. جاوبت علي السؤال وأرسلته إليها، وأخذت أتحين الفرصة للالتقاء بها، لاسيما وأن هناك مجالا للحوار. وشاهدتها من بعيد متوجهة إلي شاطئ الترعة فالتمست كتابي وتوجهت نحوها. تلعثمت كالعادة عند بدء الحديث ولكني تشجعت وسألتها: هل وجدت الإجابة علي السؤال صحيحة؟ قالت نعم وأشكرك كثيرا. وحاولت في هذه اللحظة أن أنتقل إلي الحوار فيما هو أهم، ولكن الخجل عقل لساني فوجدت أنه من الأسلم أن أتحجج بالمذاكرة وأواصل السير وأتركها وشأنها. أنبت نفسي كثيرا علي الفشل في التعبير عما أريد الوصول إليه. ولكن هل يستطيع الإنسان أن يغير من طبعه؟!.

الموقف الذي لا يمكن أن أنساه، والذي مازال يلح عليَّ إلي الآن في الصحو وفي المنام هو أني ذات يوم، وكنا أيامها في فترة المذاكرة للشهادة الثانوية بالنسبة لي ودبلوم التجارة الثانوية بالنسبة لها، ذهبت إلي الترعة الأخرى الموازية لترعتنا، وتبعد عنا بحوالي سبعمائة متر، وجلست أذاكر تحت شجرة باسقة، وفجأة شاهدت سميرة الصواف قادمة من بعيد

وحدها ويبدو أنها كانت ذاهبة إلي أرضهم علي الطرف الآخر. كانت تبدو مثل فرسة جامحة قوية،تمشي في خطي واثقة، وهي ترتدي جلابية سمراء فلاحي لاشك أنها استعارتها من والدتها، وتضع علي رأسها طرحة سمراء تظهر مفاتنها. كان الجمال يطل من عينيها الساحرتين، وقوامها المستقيم المتوازن، ووجهها الفتان، وتقاطيعها المنسجمة الرائقة، وشعرها الأصهب المعقود في ضفيرة واحدة تشف عنها الطرحة السمراء. اقتربت مني وأنا أعد نفسي لحوار طويل ولقاء غرامي ممتع. فقد كنا وحدنا وسط الحقول اليانعة والخضرة تكسو كل الأماكن من الحقول إلي شاطئ الترعة، والهواء عليل والسماء صافية، وشمس الصباح تنشر أشعتها القرمزية علي الكون باكمله. ولم يكن هناك أجمل ولا أروع من هذا المكان كي يعلن فيه المحبون عن أشواقهم، وطموحاتهم، ويحولوا أحلامهم إلي واقع وخواطرهم إلي حقيقة. ولكنها ما إن صارت أمامي حذو النعل بالنعل -كما يقال- حتى وجدت قلبي ينزل من عليائه ليستقر عند أسفل قدمي. هكذا مرة واحدة، وبمقدمات تمثلت في زيادة ضربات القلب، واضطراب الجسد، وعجز الحواس عن أداء وظيفتها ، لاسيما ذلك اللسان اللعين الذي تلعثم ولم يقدر علي النطق بكلمة واحدة.

أغلب الظن أنك يا سميرة الصواف قلت في نفسك في ذلك اليوم: هل هذا هو الشخص الذي يمكن أن أرتبط به؟ إنه لا يقدر علي الكلام. ولعل هذا الموقف هو الذي جعلك بعد حصولك علي الدبلوم تحسمين أمرك وتوافقين علي الشخص الذي تقدم لك عن طريق أسرتك. كان الفارق بينكما كبيرا في السن، أكثر من عشر سنوات، لكنه كان فارع الطول، متين البنيان، وسيم الوجه، تخرج منذ سنوات ويستطيع أن يفتح بيتا. تزوجته وعشت معه، وانطلقت أنا في مشوار دراسي طويل. وقد ارتسم هذا الموقف في ذهني ذات يوم في مدريد عندما ذهبت إلي حمام السباحة التابع للبلدية

بصحبة فتاتين. وكانت هذه أول مرة أذهب فيها لمكان كهذا، وبالطبع لا أعرف أن الحمام مقسم إلي أماكن مختلفة منها الغويط والمتوسط والسطحي، اخترت الحمام الغويط لا أدري لماذا؟ وأنا لا أعرف السباحة، وما إن نزلت حتى انحدرت إلي القاع وكدت أغرق. ولولا أن هذه الأماكن بها منقذون مخصصون لذلك لغرقت حتما. أخرجوني من الحمام واستخرجوا المياه من معدتي بطرق معينة تدربوا عليها، وأعادوني إلي حالتي الطبيعية، ورأتني إحدى الفتاتين علي هذه الحالة المذرية فقالت بلغتها الأجنبية: انظروا، هذا هو الرجل الذي معنا!!.

فهل أنا هكذا بطبيعتي: خجول، متهيب، ساذج؟ أم أن الظروف هي التي صنعت مني هذا الشخص في سنوات الصبا والشباب؟. كنت أمتلك الطموح والقدرة علي مواجهة الظروف الصعبة في كثير من الجوانب، لكن الصخرة الصماء الوحيدة التي عجزت عن تحطيمها هي صخرة المرأة. ففي مدريد اشتغلت في البداية في مكتب تابع للغرفة التجارية. وكان معي شخص آخر فلسطيني الجنسية متزوج من إسبانية جميلة. كان مطلوبا مني أن أكتب علي أحدث آلة طباعة ظهرت في ذلك الوقت وأن يقوم عدنان الفلسطيني بالمراجعة. تعلمت الكتابة علي الآلة علي الرغم من كل الصعوبات لاسيما وأنه لم يسبق لي أن اشتغلت في هذا المجال. أما عدنان فكان يوزع وقته بين المراجعة وبين اللف في الشوارع لاصطياد الفتيات الجميلات. كانت لديه جرأة عجيبة في اقتحام المرأة، حيث يظل يطاردها إلي أن تستسلم له، ويطلق عليها ببراعة سهامه اللغوية التي لا تتورع عن الكلام المباشر في الجنس، وعندما تقع في حباله يأتي بها إلي المكتب ويقول لي، بما أنه يعتبر رئيسي في العمل: أستاذ حماد، أنت اليوم يمكن أن تأخذ أجازة ولقاؤنا في الغد. أتركه في المكتب مع الفتاة وأذهب. وقد حاولت في مرة أن أفعل مثله، واستخدمت كل الحيل والوسائل ولكني لم أنجح في اصطياد فتاة واحدة.

آه يا سميرة! أيتها المرأة التي لعبت بخيالي، وذابت في كياني وباعدت الحياة بيني وبينها، لكنها بقيت طيفا جميلا، بارعا، محلقا، يقتحم علي خلوتي، ويهاجمني في يقظتي، ويباغتني في نومي. أنام في معظم الأحيان علي طيفك، وأسترجع أيامك، وأسأل الزمان: لماذا يعمل دائما علي تفريق المحبين؟ ولماذا يحلو له أن يري كلا منهم في طريق بعيد عن الآخر؟. لقد رأت أسرتك أنه من الأفضل لك أن ترتبطي بشخص جاهز، ورأيت أنت أن تتخلصي من أوهام الحب. قبلت أن تستمر حياتك في القرية علي النحو التقليدي العادي، وانطلقت أنا في عالم المغامرة، أطير في الفضاء، وأسافر بعيدا، وأعيش في مجتمع جديد مختلف تماما عن مجتمع القرية، فيه الحياة منظمة، ووسائل الحضارة مريحة ومسخرة لخدمة البشر، والأحلام عريضة، والطموحات قوية، والناس مختلفون في أشكالهم وفي أذواقهم وكل شئونهم. وكم تمنيت أن تعيشي معي في هذه الظروف الجديدة، وأن تنفتحي مثلي علي هذه الفضاءات الرحبة المضمخة بعبق الماضي وازدهار الحاضر. لكنك آثرت البقاء في مكانك امرأة متزوجة عاملة تذهب في الصباح إلي شغلها في المدرسة الإعدادية بالقرية موظفة في المكتبة، ولا أدري كيف وضعوك في المكتبة وأنت تحملين شهادة تؤهلك للعمل في مكان آخر؟ ولكنها الأوضاع في بلادنا تضع الشخص المناسب في المكان غير المناسب.

وعندما أصدرت أول كتابين لي قال لي الأستاذ شهدي زاهر مدرس اللغة العربية في المدرسة: لماذا لا تهدي هذين الكتابين للمدرسة؟ قلت له: علي الرحب والسعة. أخذ الكتابين وأعطاهما لك فقلت له -حسبما أخبرني- علي عيني!!. وكانت هذه آخر مرة تصلني فيها كلمة منك. بعدها بشهور علمت أن التراب غيَّب شخصك الجميل. هكذا رحلت، لكن صورتك سوف تظل مرسومة في ذهني ما حييت.

العالم الذرى

في مادة الفيزياء فوجئنا بأن الطالب سعد مخيون يناقش أستاذ المادة في مسائل عويصة. انتبهنا للحوار الدائر وعرفنا أن هذا الطالب موهوب في مجال العلم، والدليل علي ذلك ما ذكره من أنه توصل إلي عمل اختراع مهم يمكن أن تكون له آثار مفيدة إذا تبنته الحكومة وقامت علي نشره وتوزيعه وتنفيذه. من هذه اللحظة أطلق إيهاب الزفتاوى مسمي «العالم الذري» علي زميلنا سعد مخيون، وانتشرت هذه التسمية في المعهد لدرجة أنها وصلت إلي الشيخ والوكلاء والمراقب وغيرهم. ولم يكتف إيهاب الزفتاوى بذلك، بل قام بتلحين أغنية قصيرة تبدأ هكذا:

العالم الذرى.. فى المعهد الثانوى

وزاد احترام إيهاب الزفتاوى لسعد مخيون، فكان يقترب منه ويحييه قائلا: «آنست وشرفت أيها العالم الذري. نحن في الخدمة دائما». أما الذي لست متأكدا منه إلي الآن فهو هذه الأسئلة التي ما برحت أطرحها علي نفسي، وهي: هل كان سعد مخيون عالم ذرة بحق وحقيق؟ أما أنه كان يفشر علينا وعلي الأستاذ و يجيد الفشر لدرجة أن الأستاذ صدَّقه وأننا صدقناه؟ أم أن الأستاذ نفسه كانت معلوماته في الفيزياء لا تتعدي المسائل الأولية البسيطة ولهذا بهرته أفكار سعد مخيون الذي كان يقضي وقتا طويلا في قراءة الكتب العلمية؟.

لم يكن سعد مخيون قرويا مثلنا، بل كان من أهل طنطا، من منطقة شعبية اسمها «ستوتة»، نحيف القوام، متوسط الطول، ترتسم علي وجهه سمات أهل البندر من ساكني المناطق الشعبية. أما والده فكان موظفا صغيرا في ديوان البلدية. وقد عرف سعد مخيون في محيط الزملاء بالجدية، وحسن الخلق، والصمت، والبعد عن أفعال الشقاوة التي كان يمارسها

الآخرون. وعندما انقسمنا في نهاية السنة الثانية الثانوية إلي قسمين: علمي و أدبي، اختار سعد مخيون القسم العلمي، واخترت أنا وإيهاب الزفتاوى القسم الأدبي، ومن هنا انفصلنا خلال السنوات الثلاث التالية حتى حصلنا علي الشهادة الثانوية. وانتهت بذلك أخبار العالم الذري بالنسبة لنا.

لم يخطر علي بالي إطلاقا أني سوف أقابل العالم الذري مرة أخرى. ولكن بما أن هذا العالم صغير جدا حدث ما لم يدر لي في حسبان. فقد عدت من البعثة بعد حصولي علي درجة الدكتوراه. وفي العام الأول لالتحاقي بالكلية نظمت وزارة الأوقاف دورات لأئمة المساجد في اللغات الأجنبية لتأهيل بعضهم للعمل دعاة في الخارج. وكنت من بين المختارين للتدريس في الدورة الأولي. فوجئت بسعد مخيون جالسا بين الأئمة. صحيح أنه لم يكن مثل معظمهم يرتدي العمامة والكاكولا، لكنه كان واحداً منهم. يا إلهي!! كيف حدث هذا؟ هل انتهي الحال بالعالم الذري لأن يصبح إماما وخطيبا؟ وهذه مهنة هناك كثيرون يستطيعون إجادتها. أين مشاريعه العلمية؟ أين اختراعاته؟ لماذا التحق بكلية أصول الدين ولم يلتحق بكلية العلوم أو الطب أو الهندسة؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهني لكني حاولت أن أتخلص منها جميعا وأعود إلي الواقع. الآن كل القرائن تقول إن العالم الذري موظف في وزارة الأوقاف،يعمل إماما وخطيبا في أحد المساجد. سألته: ما هو المسجد الذي يعمل فيه؟ قال: إنه يقع في منطقة الإمام الشافعي. هكذا ترك العالم الذري قراءاته العلمية وأبحاثه ومشاريعه وتفرغ لوظيفته في وزارة الأوقاف، وها هو يلتحق بدورة تعلم اللغات للعمل في الخارج، والهدف المعلن هو نشر الدعوة، لكن الهدف الحقيقي هو تحسين المستوي المادي. فها هم المصريون جميعا يحاولون البحث عن حلول خارجية لأزماتهم الداخلية الاقتصادية، بعد أن تأزمت أحوالهم المعيشية. لقد وعدهم الرئيس أنور السادات بأن اتفاقية السلام سوف تحل مشاكلهم، وتجلب لهم

الخير و الرفاهية، وها هي سنوات السادات قد مرت وجاءت بعدها سنوات الحاكم الذي اختاره هو وحده ليكون نائبا له يخلفه بعد وفاته. وها هو الحاكم الجديد يعد المصريين بالرخاء والانتعاش، ولكن هل يتحقق هذا؟!.

عادت أواصر المودة بين سعد مخيون وبيني، وتذكرنا أيام الدراسة في المعهد الثانوي، ومشاريعه العلمية، ولكني لاحظت أنه يحاول الابتعاد عن الحديث في العلم. قدم لي دعوة لحضور حفل زفافه في منطقة الإمام الشافعي. لم يسبق لي أن ذهبت إلي هذه المنطقة أو تعرفت عليها. أبلغت زوجتي بالدعوة، وأخبرتها أن هذا زميل قديم وأنه من الواجب أن نلبي دعوته، لاسيما وأن الموعد معقول، فهو بعد صلاة العصر. ومن الواضح أنها هي الأخرى لم تكن تعرف شيئا عن منطقة الإمام الشافعي. وقبل الموعد المحدد بساعة تقريبا قامت زوجتي ولبست أفخر ما لديها من ثياب معدة للأفراح اشترتها من أكبر المحلات في مدريد، وتزينت بما لديها من أقراط ودمالج وأساور ذهبية، وألبست طفلينا أفضل الثياب المدريدية. ركبنا السيارة فيات ١٢٨ الخضراء التي أحضرتها معي من مدريد، وانطلقنا تجاه منطقة الإمام الشافعي. لم تكن القاهرة أيامها قد وصلت إلي حالة الزحام الهائل التي هي عليه الآن، ولهذا وصلنا بسرعة إلي قلعة صلاح الدين ومنطقة السيدة عائشة. وطوال الطريق مضيت أتخيل الفرح قائلا لنفسي: لابد وأن العالم الذري قد هيأ لنفسه فرحا يليق به بوصفه صاحب أفكار ومخترعات سابقة. وبما أن هذا هو أول فرح نحضره بعد عودتنا من مدريد فلا شك فى أنه سوف يعرفنا بأشياء كثيرة لم يتح لنا من قبل فرصة التعرف عليها. وكنا نسمع عن الأفراح التي تقام في الفنادق الكبرى فتخيلت أن فرح العالم الذري سوف يقام في فندق أو قاعة أفراح بمنطقة الإمام الشافعي. ومن الواضح أن زوجتي هي الأخرى توقعت ذلك، فلبست أفخر ما لديها من ثياب وتزينت بأجمل ما عندها من زينة. وها أنت أيها العالم

الذري تأبي إلا أن تجمعنا مرة أخرى علي اختراع من اختراعاتك، وتفاجئنا بما لم يخطر لنا علي بال!!.

سألنا بعض المارة عن منطقة الإمام الشافعي فدلونا علي الطريق. دخلنا بالسيارة فإذا بنا وجها لوجه أمام مقابر ممتدة تبدو لا نهاية لها. والشمس في هذه اللحظة تمضي بأشعتها الصفراء منحدرة نحو الغروب. والشوارع بين المقابر خالية ولا يكاد يظهر فيها أحد، ودوائر مثل الأشباح تغلف الهواء المنبعث من المقابر، يحمل روائح عطنة، وأرتال من المخلفات تزكم الأنوف. لم نجد أحداً نسأله: أين فرح سعد مخيون، ولهذا انطلقنا في الشوارع التي تفصل بين المقابر، وكلما تقدمت أستار الليل نحونا زاد خوفنا وخشينا أن تحاصرنا الظلمة في هذا المكان القاحل فلا نستطيع لنا مخرجا. وأخيرا سمعنا دقات طبول ومزامير، فقلنا لابد أن الفرح هنا. نزلنا من السيارة وحاولنا أن نتبين الموقع الذي تصدر عنه هذه الأصوات فإذا به قريب منا، لكن من الواضح أنه بيت وسط المقابر، وربما هو مقبرة مسكونة والفرح قائم في حوش من أحواشها. تحققنا من أنه أمر في غاية الصعوبة أن نصل إلي هذا المكان بالسيارة، لأن الطريق إليه ضيق جدا، فعدنا مرة أخرى إلي السيارة وكأننا نلوذ بها من حالة الخوف الشديدة التي انتابتنا. تصورنا أننا يمكن أن نكون هدفا سهلا للبلطجية وقطاع الطرق، بل انطلقنا في أوهام أخرى وهي أن عفاريت المقابر، بمجرد دخول الليل، يمكن أن تنقض علينا وتحملنا إلي وادي عبقر، وفي هذه اللحظة لن تنفعنا الطبول ولا الزمامير التي نتصور أنها قريبة منا، فربما كانت هذه الطبول صادرة عن عصبة من الجن تحتفل بقدوم الليل علي طريقتها. أما فرح العالم الذري فقد لا يكون له وجود هنا. وهكذا وقعنا في حالة توتر واضطراب شديدة، ورأينا أنه لا منجي من هذا الوضع إلا أن ننطلق بالسيارة عائدين إلي منطقة السيدة عائشة ومبني القلعة.

قابلت العالم الذري بعد ذلك وأخبرته بما حدث فقال لي إنهم بالفعل كانوا في هذا المكان الذي انطلقت منه أصوات الموسيقي، وأن هذا هو بيت أسرة زوجته، فهم يقيمون في هذه المنطقة منذ فترة طويلة، وبما أنه يعمل في مسجد قريب منهم فقد توثقت صلته بهذا الأسرة وارتبط عاطفيا بابنتهم وتقدم لخطبتها فوافقوا. وقد ظل فترة طويلة يجهز للفرح حتى حان وقت الدخلة. وقد أثني سعد مخيون علي أسرة زوجته بما هي أهل له قائلا: إنهم ساعدوه كثيرا في الحصول علي شقة في المنطقة، وساعدوه في التجهيز. كان سعد مخيون يحكي ذلك ببساطة وتلقائية شديدة، وكنت أنظر لملامحه لأري هل بقي فيها شيء من أثر العالم الذري الذي كانه في مرحلة التعليم الثانوي؟!.

قالت لي زوجتي أثناء العودة: العالم الذري في أوربا وأمريكا يسكن في فلل أو قصور محاطة بالمروج والحدائق و البساتين، والعالم الذري عندنا يسكن في المقابر، ويقيم فرحه في حوش. قلت لها: عندما يصبح للمواطن عندنا قيمة سوف يكون العالم الذري عالما بحق، تفتح له مراكز البحوث، ويجد العناية اللازمة ويعيش في بيئة صحية وفي عالم صحي. وانطلقنا في الطريق إلي مصر الجديدة مفضلين المرور من وسط منطقة المقابر لنري كيف تحولت المقابر إلي مساكن للأحياء.

إسماعيل أبو الرضا

ونحن في السنة الثالثة الثانوية، وبعد انقضاء فترة من بداية العام الدراسي وجدنا طالبا ينضم إلينا اسمه إسماعيل أبو الرضا. عرفنا من الحوار الذي دار بينه وبين مدرس البلاغة أن صلة ما تربط بينهما، لكننا لم نتوصل إلي طبيعة هذه الصلة وإلام تعود. كان من الواضح أن إسماعيل أكبر منّا سنًّا، وكان يجلس في صمت ولا يدخل في أي حوار مع أحد، لدرجة أن إيهاب الزفتاوي بطريقته المعهودة، وفضوله الزائد على الحد حاول أن يجرجره في الكلام ليعرف شيئا عنه وفشل في ذلك فشلا ذريعا، فكان يعوض عن فشله مع إسماعيل أبو الرضا بالاقتراب من إبراهيم علوان، وكان هو الشخص الوحيد الذي يشتري الجريدة اليومية، ويقول له:" بالله عليك يا أستاذ علوان، قل لنا ما قل ودل". وكان علوان يحس بالنشوة وترتسم علي وجهه علامات التميز، لكنه لا يقول شيئا. ويبدو أنه كان يشترى الجريدة من باب الوجاهة الاجتماعية لا أكثر ولا أقل.

ولم يُفك لغز إسماعيل أبو الرضا إلا في يوم لم يحضر فيه، وجاء مدرس البلاغة فسألناه عنه فقال لنا إن إسماعيل كان زميله في السنة الثالثة عام ١٩٥٤م،ولكنه كان عضوا في جماعة الإخوان المسلمين فقبض عليه ضمن من قبض عليهم من الإخوان، وقد ظل في السجن طوال الفترة الماضية، ولم يفرج عنه إلا أخيرا. وقد شرح لنا المدرس أنه كان متفوقا في دراسته وها هو يعود إليها، ومن المؤكد أنه أيضا سوف يتفوق. ولاشك فى أن هذه المعلومة جعلتنا نتعامل مع إسماعيل أبو الرضا بطريقة مختلفة، فلم نحاول أن نتقرب منه أو نقيم معه علاقات، بل احترمنا هذا الفارق الكبير في السن بيننا وبينه، ولم نرغب في أن نقتحم عليه عزلته أو نخرجه من صمته، لاسيما وأننا عرفنا قبل ذلك بسنوات أن مدرس النحو الأستاذ محمد أبو علي اقتيد

إلي المعتقل لمجرد أنه اشترك في جنازة الزعيم الوفدي مصطفي النحاس باشا.

لقد جئت إلينا يا إسماعيل في وقت لم نكن نعرف فيه كيف نحسم أمرنا. فالهزيمة القاسية التي أطلقوا عليها مسمي «النكسة» كانت قريبة العهد منا، والزعيم أعلن عن حرب الاستنزاف، والثورة مازالت تراوح بين التقدم والانكسار، والمبادئ الستة التي أعلن عنها الثوار بعد قيام ثورتهم تم إنجاز جزء منها والجزء الآخر مافتئ يتعثر، والإمبريالية العالمية تعمل من أجل حماية إسرائيل وإجهاض مشروع الثورة، والإخوان يودعون في السجون مرة أخرى ويُعدم زعيمهم سيد قطب. والإعلام كالعهد به دائما يزيف الحقائق وينشر الأكاذيب. فقد كنا نذهب إلي شارع البحر ونشاهد سيد قطب علي شاشة التليفزيون وهو يعترف بأنه خطط لقلب نظام الحكم. كما شاهدنا عبد الناصر قبيل النكسة وهو يصف رئيس وزراء بريطانيا بأنه خرع، وصفقنا له كثيرا وهو يتحدي الرئيس الأمريكي وقادة الغرب. ولم نتصور أبدا أننا مقبلون علي هزيمة ليس لها مثيلٌ. كانت ثقتنا في عبد الناصر لا حدود لها، وكان الرجل خطيبا مفوها وزعيما لا يشق له غبار، لكننا لم نكن نعرف أن السوس ينخر في عظام الدولة، وأن شخصية عبد الناصر الكاريزمية يمكن أن تؤدي بنا إلي الهلاك.

دخل في نفسي شي تجاه الإعلام منذ تلك الفترة. لم أكن أستطيع تبين موقفي علي نحو يجعلني أنحاز إلي قضية ما، أو إلي تيار بعينه. لكني وجدت نفسي آخذ موقفا ضد علماء الأزهر عندما أصدرت مجلة «منبر الإسلام»، إبان أزمة النظام مع الإخوان، كتابا ملحقا بالمجلة عنوانه «رأى الدين في إخوان الشياطين». لم أتصور أن يُنشر عن الأخوان، مهما كان الرأي فيهم، كتاب كهذا ملئ بمقالات لكبار علماء الأزهر والأوقاف تصف الإخوان بالشياطين لمجرد أن النظام الحاكم اختلف معهم. لم يناقش الكتاب

الموضوع مناقشة فكرية موضوعية وإنما انهالت اتهاماتهم ضد الإخوان في نوع من التجريح والافتراء لم يسبق له مثيل. كنت محتفظا بهذا الكتاب وفي أحد الأيام أحضرته معي، وجلست بجوار إسماعيل أبو الرضا، وأريته الكتاب محاولا أن أفتح معه حواراً حول الموضوع، ولكنه نظر إلي نظرة متجهمة وقال لي: «أرجوك، نحن هنا حضرنا من أجل الدرس فقط»، ثم لاذ بالصمت، فانسحبت من جواره وقد قررت ألا أناقشه في هذا الأمر بعد ذلك أبداً.

حصلنا علي الشهادة الثانوية، وكنت أنا الأول، وإسماعيل أبو الرضا الثالث علي مستوي الجمهورية، والتحقنا بالتعليم الجامعي في القاهرة، ولكن إسماعيل ظل محافظا علي الصمت بنفس الطريقة التي كان عليها في التعليم الثانوي. وفي الجامعة عرفنا أشياء جديدة، فقد كان زميلنا السيد عواجة القريب منا جدا يعمل في جهاز المخابرات، ولأنه كان يثق بي ثقة شديدة فإنه لم يكن يخشي من أن يحكي لي عن بعض الأسرار، ثم يقول لي: هل تريد أن أدخل لك الدكتور فلان السجن من الغد، فأرد عليه: «الرجل لم يفعل شيئا يستحق عليه هذا العقاب. ابتعد عنه ودعه في شأنه».

لم تحك لنا يا إسماعيل عن العذاب الذي تعرضت له في السجون والمعتقلات، وعن الإهانات التي تحملتها بصبر، ومشاهد التعذيب التي عاينتها، والآلام التي لا تحتمل، والقسوة، والانتقام، والتشفي، وإجبار المعتقلين علي الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها. ولم تقل لنا كيف منعوك من مواصلة دراستك، ومنعوا عنك الكتب والأقلام وتركوك تواجه ظروفا لا يمكن أن يتحملها بشر. قطعوا حبل دراستك، وحبل تفوقك، و أودعوك بين أربعة جدران في مكان سيئ التهوية تشترك فيه مع آخرين ليسوا من شأوك ولا يتفهمون ما يدور في ذهنك. أطلقوا عليك كلابهم، وجربوا فيك أدواتهم الجهنمية التي استوردها من أجل تعذيب المسجونين. خاطبوك بلغة قذرة لم

تنشأ عليها ولم تتعودها، وسرقوا منك أجمل سنوات الشباب. وعندما أطلقوا سراحك صرت زميلا لجيل كان من المفروض أن تكون أستاذه، فتحصنت بالصمت، وكانت الجملة التي لم تكن تنطق غيرها عندما تتكلم معنا، وهي: «اهدأ وابدأ»، وهكذا هدأت وبدأت وتفوقت حتى صرت أستاذا جامعيا مرموقا. ولكن الصمت والهدوء ظلا هما مثلك الأعلى. تجلس في هدوء شديد وتتحاشى الحوار مع أي إنسان فربما يكون عميلا للمخابرات أو أحد أفراد التنظيم الطليعي، أو جاسوسا يقدم تقارير يومية لأجهزة الأمن والمباحث.

وعلي الرغم من أن إسماعيل أبو الرضا ظل زميلا لنا لمدة ثلاث سنوات تقريبا فإني لم أره يضحك إلا في مرتين فقط. المرة الأولي عندما أسر إيهاب الزفتاوي في أذن مدرس التجويد، وكان كفيفا، قائلا له «إن محسن الكلاف جنب»، فصدق المدرس هذه الفرية ونادي علي الكلاف قائلا : يا كلاف هل صحيح أنك جنب؟ وأخذ يؤنبه ويحذره من أنه سوف يخبر والده. كان إيهاب يعرف أن مدرس التجويد صديق والد الكلاف لأنهما من قريتين متجاورتين فاستغل هذه الصلة، وبما أن المدرس كان طيبا جدا إلي حد السذاجة أراد إيهاب أن يختلق فرصة للضحك. وهذا ما حدث فعلا فقد ظل فترة غير قليلة كلما رأي الفرصة سانحة يسر في أذن هذا المدرس قائلا إن الكلاف حضر إلي الفصل اليوم جنبا، فيشتاط المدرس غضبا ويؤنب الكلاف ويحذره من أنه لا يمزح وأنه جاد جدا فيما يقول من أنه سوف يوصل هذه المعلومة إلي والده. وقد رأيت إسماعيل أبو الرضا يضحك ملء شدقيه، ولا أدري لماذا أسعدني هذا الضحك؟ ألأني كنت أعتقد أن الصمت المخيم علي ملامح إسماعيل يجعله غير مؤهل للضحك؟ أم لأن عوامل نفسية ترسبت في أعماقي تجاه ما تعرض له إسماعيل من آلام وتضحيات؟.

المرة الثانية التي ضحك فيها إسماعيل حدثت عندما نشبت معركة بين

مدرس اللغة الفرنسية وبين زميلنا سعيد صالح. وكان هذا المدرس متميزا في شـرحـه وفي تصـرفـاتـه، ولكن شـعـرة من جنون كـانت تلم به في بعض الأحيان، ويبدو أن هذه الشعرة لم تتوجه إلا تجاه شخص واحد، ولا أدري لماذا لم تختر إلا سعيد صالح؟. كان سعيد فتي ريفيا أشقر الملامح، طويل القامة، قوى البنية، وكنا نعتبره من أطيب الطلاب، وأكثرهم رقة ودماثة وحسن خلق. ويبدو أن مدرس اللغة الفرنسية كان له رأي آخر، فكان أحيانا، وبدون مقدمات، يوجه نظره تجاهه قائلا:" الولد سعيد ده واخد في نفسه قلم"، ثم يخاطبنا: واخد في نفسه إيه؟ فنرد في نفس واحد: واخد في نفسه قلم. ثم ننفجر في الضحك. وفي مرة نظر المدرس إلي سعيد في تجهم شديد، وقال له:" إنت عامل سبع البرومبة يا سعيد يا يوسف يا صالح؟!. وفي هذا اليوم لم يسكت سعيد بعد أن فاض به الكيل فنشبت معركة كلامية بين الاثنين كـان من الممكن أن تتطور إلي أكـثـر من ذلك. وبالطبع أرغي المدرس وأزبد وزادت حدته، لكنها كانت حدة تثير الضحك أكثر مما تثير الخوف. وفي هذا اليوم وجدت إسماعيل أبو الرضا يضحك، وبدا كأنه قد نسي تماما ما حدث له طوال سنوات في السجون والمعتقلات من تعذيب وإهانات وقطع لمسيرة حياته. سعدت في ذلك اليوم سعادة بالغة لاشتراك إسماعيل أبو الرضا معنا في الضحك. وعلي الرغم من حدة المعركة بين المدرس وسعيد صالح فإن الجميع خرجوا من الفصل وكأن لم يحدث شيء، وانطلق كل منا في الأرجاء الواسعة للمعهد في نوع من التحضير للحصة التالية.

٣

القسم الثالث

الرحلة إلى القاهرة

حصلنا علي الثانوية الأزهرية. وتفوق عدد لا بأس به منا، فكنت أنا الأول علي مستوى القطر، وإسماعيل أبو الرضا الثالث، ومحسن الكلاف العاشر، وإيهاب الزفتاوي الثاني عشر.اتصل بي فهمي عمر المذيع المشهور في ذلك الوقت، عن طريق السويتش التابع لدوار العمدة، وطلب منى أن أتوجه إلي القاهرة لإجراء حوار معي عن تفوقي في الثانوية الأزهرية. لم يكن لدي لباس أفرنجي، ولم تعد العمة والكاكولا صالحتين بعد أن أهملتهما لمدة خمس سنوات، وهي فترة التعليم الثانوي، واكتفيت بارتداء اللباس الخاص بالتربية العسكرية. وقد سمح لي بذلك لأني باعتباري المسئول عن الإذاعة المحلية بالمعهد الثانوي كنت أدخل من البوابة التي يدخل منها شيخ المعهد ووكلاؤه والمراقبون والأساتذة والموظفون.

بحثت الأمر من جميع وجوهه: ماذا أفعل؟ هل أذهب إلي مبني الإذاعة بالقاهرة بالجلابية، أو البيجامة، أو لباس التربية العسكرية؟ أم أشتري عمة وكاكولا جديدتين؟ أم أشتري بنطالا وقميصا، أم أشتري بدلة أنيقة؟ ولكن من أين لي الحصول علي هذا المبلغ الكبير؟ لم يكن المبلغ أيامها يزيد علي بضعة جنيهات، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، والوالد الذي يوفر لي ربع الجنيه بالعافية لن يستطيع توفير عدد من الجنيهات. وقد وعدنا محافظ الغربية عند لقائنا به بتقديم مبلغ شهري لنا نحن المتفوقين، ولكن هذا الوعد تبخر، ويبدو أن المسئولين يقدمون هذه التصريحات الفارغة لأجهزة الإعلام من باب الدعاية المزيفة لا أكثر ولا أقل.

وأخيرا قررت أن أذهب إلي زميلي أحمد متولي وأطلب منه أن يعيرني البدلة التي فصلّها له أبوه بمناسبة حصوله علي الثانوية الأزهرية. قطعت الطريق من بيتنا إلي بيته -كما كنت أفعل دائما - ووجدته جالسا بعد

صلاة المغرب في المكان الذي يفضل الجلوس فيه في صحن الدار. لم تكن دارهم واسعة مثل دارنا، لكن والده كان شاطرا في فلاحة الأرض، لديه بعض الأملاك، ويؤجر أراضي أخري يزرعها وتزيد من دخله، وهذا علي العكس من والدي الذي كان يفضل تأجير ما لديه من أملاك قليلة.أما والدة أحمد فكانت هي الأخرى شاطرة، تتاجر في الحبوب وفي أشياء كثيرة تزيد من دخل الأسرة وتجعلها إلي حد ما ميسورة. عرضت علي أحمد مشكلتي دون أن أطلب منه صراحة أن يعيرني بدلته، فوجدته يبادر بنفسه إلي القول بأنه لا يمانع في أن يعطيني بدلته أذهب بها إلي القاهرة، وكأنه فهم ما كنت أرمي إليه، واستشعر حرجي من الطلب مباشرة فأراد أن يجنبني الوقوع في هذا المأزق. أخذت هذه البدلة الجديدة، وجربتها فوجدتها علي المقاس تماما، وهذا طبيعي لأن جسمينا كانا في حجم واحد تقريبا. وفي يوم السفر لبست هذه الحلة الجديدة التي لم أتكلف في لبسها إلا شراء قميص واحد يناسبها ورابطة عنق طلبت من البائع أن يربطها لي ويجعلها جاهزة. وسافرت إلي القاهرة بصحبة أخي الأكبر وتوجهنا إلي مبني الإذاعة والتليفزيون علي شاطئ النيل ، وانتظرنا الأستاذ فهمي عمر إلي أن حضر وأجرى حواره معي عن تفوقي وما الذي جعلني أتفوق، وغير ذلك من أسئلة لم أجد أي مشكلة في الرد عليها، ثم عدنا إلي طنطا.

لا أدري لماذا لم يعلق في ذهني الشيء الكثير من هذه الرحلة؟ هل لأنها مثل همزة الوصل، جاءت في لحظة فارقة ، ولم يكن لها تأثير علي وجداني؟ أم أنها كانت رحلة قصيرة أقرب إلي الاستكشاف منها إلي التغلغل في الأعماق الداخلية للكيان الفردي الإنساني؟ أم أن مشاعري كانت في حالة إبهام وتشويش؟ أم هي النقلة الأولي التي تدهشك أكثر مما تدعوك إلي التأمل والتريث والنظر في العمق؟ لهذا جاءت الرحلة الثانية

بعيدة عن كل أجهزة التشويش فحفرت داخل النفس أخاديد وصوراً مازالت حاضرة إلي الآن، وكأنها حالة ديمومة متواصلة تتلاقي مع الحالات الأخرى عن السيدة الجعرمة، وفاروق وهدان، وسعد مخيون، وسميرة الصواف، وحلمي العجرمي، ومسعد الحمَّار، وزكى الحلاق وغيرهم.

والرحلة الثانية كانت لازمة من لوازم الانتقال المرحلي. قابلني إيهاب الزفتاوي وأخبرنى أن علينا أن نذهب إلي القاهرة لتقديم أوراقنا للجامعة. ذهبنا إلي محطة السكك الحديدية وحجزنا تذكرتين فى الدرجة الثالثة. وجاءت لحظة السفر فتوجهنا إلي المحطة لركوب القطار القادم من الإسكندرية. لم يلفت نظرنا جمال هذه المحطة التي بناها الانجليز فى نهاية القرن التاسع عشر بعد احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢، ولم نتوقف عند فكرة أن مصر هى ثالث دولة أنشئت فيها سكك حديدية بعد انجلترا ثم الهند، ولم نتأمل فى فخامة المبنى، ومتانة الأنفاق، وتقسيمها المتميز الذي يجعل الراكب غير محتاج إلي السؤال عن موقف القطار الذي يريد أن يركبه. فقد كانت تشغل ذهننا أشياء أخرى سمعنا كثيرا عنها مثل ازدحام العربات، وأن السابق إلي دخول العربة هو الذي يستطع العثور علي كرسي يجلس عليه. ولهذا سارعنا إلي الدخول عند وصول القطار وجلسنا علي كرسي يتسع لشخصين. وتدفق الركاب علي العربة، شيوخا ونساء وأطفالا وشبابا فازدحمت العربة ازدحاما شديدا، ومع ذلك لم تكن المشكلة في هذا الزحام الخانق، لكنها ظهرت بصورة حادة عندما أخذ المجندون يصعدون للجلوس علي رفوف العربة المخصصة في الأساس للأمتعة. جلس فوقنا مجند قوي البنية، طويل القامة، ومدد رجليه فوقنا بحذائه الميرى الصلب، فكان حذاؤه يخبط في رأسي بين الحين والآخر، وأقول له : يا دفعة لماذا لا ترفع رجليك قليلا؟ فيرد علي بأنه لا يريد أن يسبب لي أي ضرر، ولكن ماذا يفعل والرف

كله مملوء بالمجندين؟! ولأنني وهو لم نكن نستطيع أن نفعل أى شيء أخر كنت أحسد هؤلاء الذين جلسوا على كراسى تمدد على رفوفها مجند واحد أو اثنان ومنعا الآخرين من الصعود معهما لأنهما متعبان -هكذا كانا يتحجان -ويريدان أن يرتاحا لأنه مازال أمامهما سفر طويل.

وهكذا وطنت نفسي علي تحمل ضربات الحذاء عند اهتزاز العربة، إضافة إلي الجو الخانق بسبب الزحام الشديد، والضجة القوية الناشئة عن كل هذا، فضلا عن المعارك التي كانت تنشب بين الركاب بين الحين والآخر وتنتهي بالمصالحة لأن الجميع يدركون أنهم مثل المسجونين لا يقدرون علي الخروج من واقعهم المرير. قارنت هذا الوضع بما رأيته في إسبانيا بعد ذلك عندما ذهبت إلي مدريد وقمت برحلة لزيارة مدنها بصحبة رجل كان عضوا في نقابة المحامين المصريين، وقطعنا كيلو متري نركب به كل القطارات، فكنا نجد العربات شبه خالية نتجول فيها كما نشاء، وكل شيء حولنا نظيف لامع، ودورات المياه في غاية النظافة. وكعادة المصريين في أي مكان يذهبون إليه في الخارج حتى ولو كانوا في بلاد الواق واق فإنهم يقارنون بين ما هم فيه من أوضاع راقية وبين ما عليه الحال في بلادهم من زحام وقذارة وانعدام لأدني وسائل الحياة البسيطة. فهل تعودنا نحن المصريين علي هذه الأوضاع القاسية المتأزمة حتى لم نعد نستطيع أن نتصور غيرها؟ بل إننا الآن في عصر السيارات الفارهة لم نعد قادرين علي المروق بها في الشوارع من كثرة الزحام، وأصبح المشوار الذي يحتاج إلي ربع ساعة فقط نقطعه في ساعتين أو أكثر!!. لقد فقدنا القدرة علي مسايرة الزمن ومن هنا صارت حياتنا تزداد تأزما حتى مع زيادة الرفاهية.

وصلنا إلي محطة رمسيس بعد أن توقف بنا القطار كثيرا لاسيما في المنطقة الواقعة بين شبرا الخيمة والمحطة، مما جعل الكثيرين من الباعة

الجوالين يصعدون إلي العربة ويخترقون الزحام في براعة فائقة. بل إن شخصا يقدم ألعابا مثل ألعاب السيرك ظهر فجأة بصوته الجهوري معلنا عن براعته في تكبيل نفسه بجنزير حديد. وفعلا بدأ في تقديم هذه النمرة القاسية متخذا لنفسه مكانا فوق أحد الكراسي، وأخذ يقيد نفسه في منطقة الصدر بالجنزير ويطلب من أحد الركاب الأقوياء أن يتأكد أمام الجمهور من أن القيد محكم، ثم بدأ يتخلص من قيده شيئا فشيئا وهو يصيح صياحا مدويا حتى انفك القيد بالكامل فرفعه في عين الجميع معلنا عن نجاحه الباهر، وبالتالي فإنه مستحق للمكافأة. مر علي الكراسي واحداً واحداً، وهمس في أذني إيهاب الزفتاوي : هل نستطيع أن نعطيه قرشا؟ قلت له: معني ذلك أننا عندما نصل إلي القاهرة لابد أن نتوجه إلي ساحة سيدنا الحسين أو السيدة زينب ، فسكت ومر الموضوع بسلام. والمشكلة أنك لو أعطيت هذا فماذا ستفعل مع الآخرين، وكلهم إما يبيع أشياء أو يقدم ألعابا أو يتحايل علي الرزق بأية وسيلة.

ومن محطة رمسيس ركبنا الأتوبيس الذاهب إلي الدرّاسة، ووجدنا أنفسنا في حالة حشر أكثر مما كنا عليه في القطار. انتظرنا الأتوبيس لفترة طويلة قاربت الساعة، وعندما وصل لم ننتظر نزول الركاب بل تحول النزول والصعود إلي ما يشبه المعركة، وكان بعض النازلين يرفعون أصواتهم قائلين: انتظروا يا همج!، ولكن الهمج لا يسمعون ولا ينتظرون لأن كلا منهم يريد أن يضمن لنفسه موقعا في الأتوبيس، جالسا أو واقفا، المهم أن يصل إلي المكان الذي يريده. وفيما يتعلق بنا فإننا كنا نخشى أن يفوتنا الوقت ونذهب إلي الجامعة فنجد الموظفين قد غادروا مكاتبهم. قدمنا أوراقنا في المكتب المعد لذلك في مقر الجامعة بالدراسة، وحمدنا الله أن الأوراق كانت سليمة فانتهينا من المهمة في سرعة فائقة.

قال إيهاب الزفتاوي: هيا بنا نذهبُ إلي عمي عبدالعظيم في العباسية نشرب الشاي عنده، ثم نتوجه بعد ذلك إلي بولاق الدكرور لنبيت الليلة عند أخيه عمى فتحي. وافقته علي ذلك، فأخذنا الأتوبيس القادم من العتبة والمتوجه إلي العباسية. كانت مشكلة الزحام واحدة. فالأتوبيس مملوء عن آخره برجال ونساء من كل الأعمار وأطفال، وكل منهم يحاول أن يجد لنفسه مكانا، ولهذا كنا أحيانا ننحشر بين الكراسي، ويصير هذا مكانا مفضلا لأنه يمنع عنك تلاطم الأجساد، لاسيما وأن الكمسرى لا يكف عن توجيهاته بأن علي الواقفين فى الطرقة أن يتحركوا إلي الأمام، فالأتوبيس -في رأيه السديد -فارغ من الجهة الأمامية. ويسمع بعض الناس كلامه ويتحركون ليجدوا الزحام أكثر مما هو في الخلف. ونظرا للزحام الشديد فإن بعض الفتيات يجدن أنفسهن مضطرات المجلوس علي أرجل الجالسين علي الكراسي. ولم يكن هناك في ذلك الوقت من يتدخل ليقول لهن إن هذا عيب كبير، فكيف تجلس أنثي مكتملة الأنوثة علي ساق رجُل؟ كانت الظروف أقوى من كل ما لا يمكن أن يتخيله المرء.

نزلنا في محطة العباسية، وكان من الواضح أن إيهاب الزفتاوي حضر إلي القاهرة من قبل، لأننا ذهبنا مباشرة إلي محل عمه عبدالعظيم. لم يكن عبد العظيم أخا لأبيه لكن كانت هناك صلة قرابة تتيح لإيهاب الزفتاوي أن يعتبره عمه. كانت العباسية في ذلك الوقت قليلة الزحام، منظمة، شوارعها واسعة، والخضرة ممتدة علي الجانبين، والمحلات الكبرى مثل عمر أفندي تزين الشارع وتمنحه شيئا من البهجة والعراقة. أما محل عبد العظيم فكان يقع في شارع جانبي متفرع من شارع عبده باشا.

لم أعرف أن عم عبد العظيم حلاق إلا بعد أن وصلنا إلى المحل، وجدناه يجلس أمامه، بينما الحلاق الذي يساعده يمارس عمله.رحب بنا

الأسطى عبد العظيم وأحضر لنا كرسيين جلسنا عليهما، وهو بين كل لحظة وأخرى يزيد من ترحيبه بنا. وقد تأكدت بعد ذلك أن هذه عادة متبعة عند هذه الأسرة لدرجة أنها أحيانا كانت تبعث علي الملل. وبعد ربع ساعة تقريبا استأذنا من الأسطى عبدالعظيم قائلين له إننا سوف نذهب إلي بولاق الدكرور والمشوار طويل، لكنه حلف بالأيمان المغلظة أننا لابد أن نشرب الشاي معه. وانتظرنا الشاي طويلا والأسطى عبدالعظيم لا يفتأ يرحب بنا مشبها زيارتنا بزيارة النبي. وأخيرا بعد ساعة وربع تقريبا وصل الشاي في فنجان صغير جدا وكأنه مشروب محظور. شربناه في جرعة واحدة وتأهبنا للرحيل والأسطى عبدالعظيم يعزم علينا أن نذهب معه لتناول الغداء. قلت في نفسي: إذا كان الشاي مجرد «شفتة» (بكسر الشين وتسكين الفاء) فما بالك بالغداء!!.

أعادتني هذه الواقعة إلي واقعة شبيهة حدثت قبل ذلك بعام. فقد كان علي أن أحمل رسالة من زميل إلى أهله فى قرية مجاورة. طلبت من أخي أن يصحبني وركبنا الحمار ووصلنا إلي القرية قبيل صلاة الظهر. سلمناهم الرسالة، وتأهبنا للعودة، لكنهم أصروا علي أن هذا لا يجوز، ولابد أن نتناول معهم طعام الغداء. قلنا لهم الشاى يكفى، لكن إصرارهم زاد، فوجدنا أنه من اللائق أن نلبي طلبهم. ذهبنا إلي المسجد وصلينا صلاة الظهر، ثم عدنا إلي البيت متوقعين أن يأتي الطعام بين لحظة أو أخرى، لكن الانتظار طال، وحتى الشاي لم يأت، فحاولنا أن نستأذن لكنهم حلفوا بالأيمان المغلظة أن الغداء جاهز. سمعنا العصر يؤذن فذهبنا إلي المسجد مرة أخرى وعدنا ننتظر مستسلمين لقدرنا حتى آذنونا بأن الطعام جاهز وكان ذلك في الساعة التي نسميها «منتصف العصرية» أي فيما بين العصر والمغرب. جاءت الأسرة مجتمعة كي تشاركنا في هذه المناسبة الاستثنائية

التي لا تتكرر، وكان عدد الأفراد يزيد علي العشرة ما بين رجال ونساء وأطفال. ووضعت الأطباق علي المائدة، فكان من نصيب كل فرد قليل من الأرز المطبوخ بطريقة عادية وليس المعمَّر كما توقعنا لاسيما أننا في قرية وفي ضيافة أسرة من الفلاحين. أما الملوخية فقد وزعت في أطباق صغيرة وكأنك مطالب أن تأكل الأرز بدون غموس. أما طبق اللحمة فكان عبارة عن فرخة بلدي صغيرة مما يسميه الفلاحون «فرخة شمورت» وزعت علي الجميع فكان نصيبي وأخي مجرد دبوس من ورك الفرخة اقتسمناه فيما بيننا. وهكذا خرجنا من الرحلة بعزومة محترمة انتظرناها يوما كاملا تقريبا!!.

صافحنا الأسطى عبد العظيم مودعين، وشكرته علي الشاي المحترم الذي أتحفنا به، وأخذنا طريقنا نحو الميدان لركوب الأتوبيس الذاهب إلي بولاق الدكرور. انتظرنا طويلا، والناس أعدادها تتزايد، حتى جاء الأتوبيس نهجمنا علي بابيه الخلفي والأمامي، وحدث ما يحدث بين النازلين والصاعدين لدرجة أن أحد النازلين وكان عفيا متأزما شندل أحد الصاعدين ورماه بقوة علي الأرض، ولم يتوقف أحد لإنقاذه، ولعل هذا كان في مصلحتي، وكما يقال: «مصائب قوم عند قوم فوائد»، فقد استطعت أن أصعد الأتوبيس قبل أن تشغل كل مقاعده. وكان من حظي أن جلست علي الكرسي المستعرض الموجود في آخر الحافلة تقريبا بجوار مقعد الكمسرى. اندفع الناس بشدة وكل واحد أو واحدة يبحث لنفسه عن مكان. وقد سبقت إيهاب الزفتاوي في الصعود ولذلك ظل هو واقفا طوال الرحلة. أما أنا فقد جلست إلي جوار رجل طاعن في السن يبدو أنه كان محترفا في صعود الأتوبيسات. وكانت المفاجأة بعد أن امتلأ الأتوبيس بالكامل ولم يعد فيه مكان لجالس أو واقف أن قررت الفتاة الواقفة أمامي، بعد أن عانت من

البهدلة، أن تجلس علي رجلي. كانت الفتاة تبدو من أسرة فقيرة لكنها جميلة، رشيقة مع بعض الاكتناز، كاملة الأنوثة، ينسدل شعرها الأسود في ضفيرة واحدة تتماوج علي كتفيها، وتتسكب بعض حبات العرق، من شدة الزحام، علي جبينها مثل اللؤلؤ المنثور. جلست علي رجلي وكأنها تقول في نفسها: «ليس لي مكان إلا هذا». وبالفعل، ماذا تفعل المسكينة في هذا الزحام الخانق؟ وهل تستطيع هذه الجميلة أن تتحمل الشد والجذب وتلاطم الأجساد؟ وكيف تذهب من العباسية إلي بولاق الدكرور؟ من المؤكد أنها لا تملك أجرة التاكسي، وأنها من الفقراء أمثالنا الذين لا يجدون أماكن لهم إلا في الحافلات الحكومية. لم أحس بالضيق طوال هذه الرحلة، ولم أشعر أنني أحمل شيئا ثقيلا، بل علي العكس من ذلك تمنيت أن يطول الطريق وأن تبقي هذه الجميلة علي رجلي إلي الأبد.

وصلت الحافلة إلي بولاق الدكرور قبل الغروب بنصف ساعة تقريبا، وكانت الشمس تتأهب للانسحاب، لكن أشعتها مع تصاعد حرارة الجو وزيادة الرطوبة مازالت ترسل موجات من اللهب الذي كنت أتقيه بكراسة أحملها في يدي. لم تكن بولاق الدكرور بهذا الزحام الرهيب الموجود فيها الآن، بل كانت مرحلة التعدي علي الأراضي الزراعية وتحويلها إلي خراسانات مسلحة مازالت في بداياتها التي تفاقمت بعد ذلك بصورة لا مثيل لها في العالم وأدت إلي خلق كيانات عشوائية همجية فوضوية لا ندرى كيف نتعامل معها الآن. اجتزنا شريط السكك الحديدية فبدت الحقول الخضراء، تمتد مع الأفق، وإن كان يتخللها عدد من المباني التي تستعد لتكوين شوارع وأحياء متناثرة.كانت الحقول متوهجة الخضرة، زاهية الألوان، تنبعث منها مباهج الحياة. ونلمح هنا وهناك أشجاراً باسقة تختلف ما بين نخيل شامخ، وأنواع أخرى من الأشجار ذات الخضرة الداكنة والتي

بدأت تستعد لهجمات فصل الخريف ومعركته الأبدية مع الأوراق الخضراء اليانعة. أما أشعة الشمس فقد زاد اصفرارها حتى بدت حمرة الأصيل تطل في الأفق.

ومن الواضح أن إيهاب الزفتاوي كان يعرف الطريق جيدا إلي بيت عمه فتحي شقيق عمه عبد العظيم والذي يعمل هو الآخر حلاقا، ولهذا عندما وصلنا إلي بيته الكائن في حارة جديدة من حارات بولاق الدكرور استقبلنا بنفس الطريقة التي استقبلنا بها العم عبد العظيم: الترحيب الذي لا ينقطع، وكثرة السؤال عن الأهل والأقارب، لدرجة أنني توقعت أن يسألني : اسم الكريم إيه؟ وهي الصيغة التي يستخدمها الحلاقون عندما يتعرفون علي شخص أو زبون جديد.

قضي معنا الأسطى فتحي وقتا طويلا يتكلم بدون انقطاع وكأنه عثر علي سمّيعة يلقي علي أسماعهم ما يدور في ذهنه، وما يريد أن يتخلص من وطأته علي نفسه. وقبل أن يتركنا العم فتحي لننام طلب لنا العشاء فجاءت زوجته بالمائدة مزودة بما لذ وطاب من الأطعمة المعمولة في البيت: فول، وطعمية تفوح رائحتها الشهية، وبيض مسلوق، وبيض مقلي في السمن البلدي، وجبنة قريش، وخبز طازج، ومخلل. كان الجوع قد نال منا كثيرا ولهذا أكلنا بشهية واضحة، ثم جاء الشاي. شربناه واستمتعنا بنكهته البيتية المحببة. ثم ودعنا الأسطى فتحي ليتركنا نخوض معركة تشبه معاركي المتواصلة في القرية مع أسراب البعوض. لم أتخيل أن منطقة كهذه تابعة للبندر، لاسيما في القاهرة، يمكن أن يكون بها كل هذا البعوض، وأن يعشش في الغرفة بهذه الطريقة. لم تكن بالحجرة أسرة وإنما مرتبتان مفروشتان علي الأرض. اخذ إيهاب الزفتاوي واحدة، وتمدد عليها، وأسلم رأسه وجسده للنوم العميق، وكأن الحجرة خالية تماما من البعوض، أو كأنه

متعود علي ذلك. ويبدو أن البعوض ترأف بحاله فتركه ينام قرير العين ولم يحاول أن يقض مضجعه، وطالما أن هناك شخصا آخر مثلي فإن البعوض واثق من أنه سوف يأخذ حقه كاملا غير منقوص. تجمعت أسراب البعوض فوق رأسي فحاولت أن أتفاداها بقماشة سميكة، لكن الصوت كان يخترق أذني، والقرص يتوالي في أي مكان. لم يكن قد انتشر في ذلك الوقت البيروسول والأقراص الطاردة للبعوض، ولهذا استسلمت لمصيري في تلك الليلة وقررت أن أقضيها صاحيا. والحق أني كنت أحسد إيهاب الزفتاوي علي أنه استسلم للنوم ولم يستسلم للبعوض.

وجاءنا الأسطى فتحي من حجرة نومه مبكرا فألقي تحية الصباح ثم قال: أتمني أن تكونوا قد أخذتم حظكم من النوم. لم أرد عليه، ولم أعلق لأنه من المؤكد أنه الآخر وكل أسرته ينامون قريري العين، وإلا لوجد حلا لهذه الأسراب العدوانية التي تظل تحوم بأصواتها المؤذية ولسعاتها الدامية طوال الليل ولا تترك لأمثالي أي فرصة لقضاء ليلة هنية بلا إزعاج أو مضايقات.

حضور على السلم

بدأ العام الدراسى فى منتصف سبتمبر. وهذه الفترة الأولى بالنسبة للطلاب الجدد عادة ما تكون مضطربة وغير منتظمة. فبعد الالتحاق بالكلية المطلوبة فى استمارة الرغبات تأتى فترة لمدة أسبوعين تقريبا للتحويل بين الكليات. وكانت أول محاضرة حضرتها فى كلية اللغة العربية التى اخترتها فى مادة «الصرف»، ووجدت الأستاذ الذى كان يرتدى اللباس الأزهرى يشرح الدرس بنفس الطريقة التى سمعناها بصورة أكثر توسعا فى المرحلة الثانوية. فهو يقول -على سبيل المثال -قال أصلها قول (بفتح الواو واللام).. الخ. لم يعجبنى الاستماع إلى هذا الشرح المكرر، وتوقعت أنى فى كلية اللغة العربية لن أحصل أكثر مما حصلته فى المرحلة الثانوية. تركت المحاضرة وأخذت الأتوبيس الذاهب إلى الجيزة، وكانت وجهتى كلية الآداب / جامعة القاهرة. حضرت محاضرة فى الفلسفة اليونانية لأستاذة من القسم. كانت هذه رغبتي وكنت أحلم وأنا طالب فى الثانوى أن أدرس الفلسفة في كلية الآداب، وأن أصبح أستاذا فى الفلسفة. بعد انتهاء المحاضرة توجهت إلى «شئون الأفراد»، وقابلت المسئول عن التحويلات وشرحت له وضعي: حصولي بترتيب متفوق على الثانوية الأزهرية ورغبتى فى التحويل إلي كلية الآداب والالتحاق بقسم الفلسفة. ولكنه أخبرني أن هذا مستحيل لأن الكلية لا تقبل طلاب الثانوية الأزهرية حتى ولو كانوا متفوقين.

لم يعد أمامى إلا التحويل لمعهد اللغات والترجمة، وكان مقره فى كلية اللغة العربية. اخترت فى البداية قسم اللغة الفرنسية، ولكن الأستاذ الذى حضرت له أول محاضرة لم تعجبنى هيأته ولا طريقته فى الكلام وتوقعت أني لن أنال خيراً علي يديه. وقد صدق هذا الإحساس وأثبتت الأيام فيما بعد أني كنت مصيبا في هذا التوقع. التحقت بقسم اللغة الإسبانية، وكان

حافزي إلي هذا أمرين: أولهما أني أردت التعرف علي لغة جديدة هي اللغة الإسبانية، وعالم جديد قريب منا ومن ظروفنا وأوضاعنا الحالية وهو عالم إسبانيا وأمريكا اللاتينية. وثانيهما الوقوف علي ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس للعالم علي مدي ثمانية قرون. أما صديقي إيهاب الزفتاوي فقد اختار منذ البداية كلية اللغة العربية -قسم النحو والصرف. وكانت هذه وصية عمه الذي لم يكن يرد له طلبا، إضافة إلي أن إيهاب كان علي الرغم من عفرتته وكثرة مزاحه ومقالبه شخصية محافظة، ولذلك سوف نراه فيما بعد يختار للدراسات العليا موضوعات في غاية الغرابة مثل تحقيقه لمخطوط قديم عنوانه «الصعقة الغضبية فى الرد على منكرى العربية». أما أنا فكنت أبحث عن الجديد وأريد شيئا أخرج به من أسر التقليدية والقيود التراثية. فالعالم -في رأيي - يتقدم باستمرار، ونحن مازلنا في أماكننا «محلك سر»، ولن يتأتي لنا بناء نهضة حديثة إلا إذا تفاعلنا بقوة وفاعلية مع ثقافة العالم الحديث.

بدا لنا الفارق كبيراً بين الوضع في الجامعة والوضع في المرحلتين الإعدادية والثانوية. فبعد أن كانت الدراسة منتظمة والأستاذ يدخل حصته في الموعد المحدد، والمراقب يلف علي الفصول والأدوار، والناظر أو شيخ المعهد يتابع الدراسة بعناية واهتمام، والمدرس يحرص علي أن يقدم لتلاميذه أفضل ما عنده صرنا الآن مثل الأيتام في مأدبة اللئام: فالأستاذ يحضر بدافع من رغبته في التدريس فقط، وليس عليه رقابة من أي نوع، ولهذا فإن الغالبية العظمي من الأساتذة لا يحضرون إلا لماما، ويتركون المحاضرة متى أرادوا. وليتهم كانوا أساتذة مؤهلين، فمعظمهم كانوا من موظفي الجامعة من خريجي كلية الألسن - قسم اللغة الإسبانية. أحدهم كان لديه موضوع واحد مكون من صفحة واحدة عنوانه «الإسكافي» يدرسه في كل السنوات، وبالطبع لن يحتاج إلي حضور إلا مرة واحدة أو مرتين

طوال العام الدراسي لشرح هذه الصفحة الواحدة التي لا تحتاج إلي شرح. وفي النهاية تسمي هذه مادة «أدب» أو «نصوص» أو غير ذلك. وذات يوم حضر لنا معيد بالقسم وجلس قليلا ثم انصرف دون أن نعرف ما هو المنهج الذي سوف يدرسه لنا. ثم سافر هذا الشخص إلي إسبانيا للحصول علي الدكتوراه، وحصل عليها وعاد ليظل كما هو أيام أن كان معيداً، وهكذا طوال حياته. ومن العجيب أن نظمنا التعليمية الفاشلة أتاحت له أن يكون أستاذا وأن يتولي مسئوليات جساما. ولله في خلقه شئون يصرفها.

وذات يوم خلال العام الدراسي الممتد، والذي لم يكن مقسما في ذلك الوقت إلي فصلين دراسيين، جاءنا أستاذ كبير من قسم اللغة العربية في آداب عين شمس من دارسي الدكتوراه في إسبانيا. كان من الأسماء البارزة في عالم اللغة والنقد. أحسسنا بالفرحة عندما علمنا أنه سوف يدرس لنا مادة «النصوص» وتفاءلنا خيرا. وجاء هذا الأستاذ الكبير وأعطانا كتابا في اللغة الإسبانية ننقل منه صفحة ونصف الصفحة، ثم جلس علي المنصة المعدة للأستاذ ومال برأسه عليها ودخل في نوم عميق بعد أن أخبرنا أن نوقظه من النوم عندما ننتهي من النقل. ثم أخذ الكتاب وأسلم رجليه للريح ولم يعد إلينا بعد ذلك أبداً، وإن كنا قد رأيناه في يوم الامتحان عندما حضر لتسلم أوراق الإجابة. وكان لدينا مدرس لمادة «نصوص شعرية» من موظفي الجامعة، طويل القامة ، أسود البشرة، ممتلئ الشفتين، له عينان حادتان وبصر حديد، كان من طبعه عندما نكلمه بوصفنا تلاميذه يرفع عينه لفوق، ويتأمل الحياة من حوله،ثم يقول في لغة منغمة بالإسبانية طبعا Asi es la vida (أي هذه هي الحياة). ولأن هذه الجملة أعجبتنا كثيرا فقد كنا نطرح عليه موضوعات الإجابة التلقائية عنها هي هذه الجملة بالتحديد. ومما أذكره عن هذا الأستاذ الفيلسوف والموظف القح أنى عندما تخرجت من القسم وعينت به معيدا كنت أتردد عليه في مكتبه بإدارة

الجامعة في الدراسة، وذات يوم جاءه ابن شيخ الأزهر لمهمة تخصه في الكلية التي يعمل بها، فوجدته يميل عليّ قائلا: هل تريد أن أدوخه السبع دوخات؟ فقلت له: الرجل لم يفعل شيئا يستحق به أن تدوخه. فسكت، ولكن من الواضح أنه لم يقتنع بكلامي، وأراد بعقلية الموظف المصري المعقدة أن يثبت له أنه أقوي منه ويمكنه أن يتحكم فيه وفي مصيره علي الرغم من أنه ابن شيخ الأزهر نفسه.

ولكن إذا كانت الحياة ليست سواء علي طول الخط، فقد عوضنا عن هذا التسيب الرهيب وجود ثلاثة من الأساتذة الإسبان، اثنان منهما من طبيعتهما الالتزام الدقيق، وهما فرانثيسكو وسانشز، أولهما في سن الشباب والآخر متقدم في السن. لم يكونا من الحاصلين علي درجة الدكتوراه لكنهما كانا من مدرسي اللغة بالمركز الثقافي الإسباني. درس لنا فرانثيسكو مادة «الأدب الإسباني في العصر الوسيط»، ودرس لنا شانشز مادة «قراءات أدبية». استفدنا منهما كثيرا علي العكس من الثالث، واسمه نابارو، الذي أعجبته حياة التسيب والفوضى في مصر فمشي فيها إلي آخر المشوار. ولهذا كان أصدقاؤه يقولون عنه إنه مسلم لكنه يخفي إسلامه وإن كان يتردد كثيرا علي المساجد والأضرحة لاسيما مسجد سيدنا الحسين القريب من الكلية. وكان نابارو هو الوحيد الذي أجاد العامية المصرية وتحدث بها بلكنة أجنبية مثلما يتحدث المعلمون والأسطوات. لكنه علي الرغم من تسيبه لم يكن متسيبا بالكامل مثل المصريين، وإنما كان يحضر كثيرا، ولهذا استفدنا كثيرا من هؤلاء الثلاثة الإسبان ووجدناهم فرصة للحديث معهم باللغة الأجنبية.

وفيما عدا ذلك كنا نمضي معظم أوقاتنا علي سلالم كلية اللغة العربية ومدخلها فخم لأن مبناها قديم، من تلك المباني التي أقيمت في فترة تشييد المباني الفخمة الراقية في كل أنحاء مصر لاسيما في مدينتي القاهرة

والاسكندرية. السلم إذن وما يحوى من درج وما يشبه المصطبة الأنيقة علي اليمين وعلي الشمال كان هو جلستنا المفضلة. يأتي الطلاب من أقسام اللغات والترجمة فيجلسون وكأنهم في قعدة سمر بدون مشروبات بالطبع. ويأتي ماسح الأحذية فلا يتعامل معه إلا القليلون جدا، وذلك لأن الأحذية معظمها من سوق الكانتو، ومهما مسحتها فلن يتغير شكلها إلا قليلا. فما الداعي إذن للدفع في شيء قليل الجدوى!!. وكان السلم، بالإضافة إلي طلاب أقسام اللغات، يضم أخلاطا من البشر. فهذا عبد العظيم إبراهيم الذي التحق أولا بقسم اللغة الإسبانية ثم حول إلي قسم بلاغة وأدب في كلية اللغة العربية يأتي إلينا ومعه قصيدة هجائية جديدة من قصائده التي يهاجم فيها بعض الزملاء أو بعض الأساتذة بلغة قوية فاحشة تظهر تمكنه الكبير من عروض الشعر. وهذا شيء طبيعي لأننا في المرحلتين الإعدادية والثانوية درسنا اللغة العربية دراسة رصينة. وهذا شاعر آخر يقدم قصيدة هجائية في أحد دكاترة كلية اللغة العربية كان مشهوراً بصلفه وتكبره وتبجحه بأنه أعظم دارسي اللغة العربية. وأحيانا نسمع قصيدة لأحد الزملاء يهجو زميلنا حماد في كلية اللغة العربية، يبدؤها هكذا:

حماد يا حماد يا حماد   ما أنت مندور ولا عقاد

بل إن عبد العظيم كتب قصيدة عن الأزهر المعمور الذى تحول إلى ركام بدأها بالبيت التالى:

الأزهر المعمور صار صياصى   يبكى على أطلاله الشرباصى

وكان الدكتور/ أحمد الشرباصي أحد الأساتذة المعروفين خارج الأزهر.

كما كتب عبد العظيم قصيدة هجاء فى صديقنا عبده زايد مطلعها:

أقصر فإنك فى السفاهة رَائد   يا ناقصا تدعى بأنك زائد.

وكتب آخر قصيدة في أحد الأساتذة تقول أبياتها الأولى:

فضلان فضلان والطلاب تعرفه   سجع سقيم بلا معنى ومضمون

يظل يهرف في طلابـــه كشرا وإن أخـــلاقه فى الدرس كالطين

لئن تركناه يهذى فى جهـالتـه فسوف ندخل مستشفى المجانين

وهجاني أحدهم بقصيدة مطلعها:

هذا الحويمد ما هويته أو ليس يدرى أنه فس

أو ليس يدرى أنه سقط بين الرجال وقدره فلس

ونعى أحدهم وجوده الطويل في الأزهر بقصيدة طويلة تبدأ هكذا:

أصبحت خريج هذا الأزهر العاتي من بعد خمسة عشر بين أموات

وهكذا تحول سلم كلية اللغة العربية إلي منتدى أدبى لإلقاء القصائد، وإن كان معظمها في الهجاء. وأحيانا كان الشاعر يلجأ إلى لغة فاحشة تخدش الحياء ومن ثم لا أستطيع أن أذكر هنا بعض هذه الأبيات. وكان فى كلية اللغة العربية فى ذلك الوقت أستاذ يشجع الطلاب علي كتابة هذه القصائد، ويكتب هو نفسه بعضها إذا لزم الأمر.

ليلة زواج عبد التواب

عبد التواب ابن خالتي شخصية عجيبة، وله نوادر تشبه نوادر جحا. فهو حاصل علي ليسانس من كلية الحقوق، ويعمل موظفا في الحكومة، ولكنه في أغلب الأحيان يركب عربات الكارو التي يجرها حصان، ويجلس في الأمام بجوار العربجي. وبما أنه طويل وساقه طويلة فإن هيئته تبدو للناظر شيئا عجيبا. وتسألني: لماذا يفضل ركوب العربة الكارو؟ أقول لك لأن سعر الركوب أقل بكثير من سعر الأتوبيس أو السيارة. وهو -والحمد لله- بارع في التحويش، إذ لا يصرف من مرتبه إلا أقل القليل ولذلك تراه عندما يشتري أي شيء لا تقع عينه إلا علي أرخص البضائع المعروضة، وإذا حدث واشترى شيئا له قيمة مثل الجاكيت أو البنطلون أو البلوفر فإنه يضعه مباشرة في الدولاب ولا يستخرجه أبداً، ويظل ببنطلونه القديم رائحا غاديا لدرجة أنك تحس أن البنطلون، من كثرة الاستعمال، قد حال لونه وصار قماشا غريبا لا يكاد يمت للبنطلون الذي كانه بصلة. وإذا كلمته في ذلك نظر إليك شذرا وألقي علي مسمعك حكمة من حكمه الكثيرة التي يحفظها عن ظهر قلب.

وكان عبد التواب هو الأخ الثاني من أولاد خالتي التي توفيت في سن الخامسة والأربعين تقريبا، وله أخت تصغره بسنوات هي التي يرتاح إليها ويعيش معها في بيت واحد اشترته من ميراثها. لم توفق في الزواج، ولذلك اعتبرت عبد التواب أخاها وزوجها في آن. وكان عبد التواب باراً بها حريصا عليها، وكان بينهما اتفاق علي أن أخاهما الأكبر الذي يعمل مزارعا يطمع فيهما ويحس بالحنق تجاههما لأنهما لا يساعدانه في تربية أولاده الكثيرين الذين يحتاجون إلي رعاية وتعليم ومتابعة.

ومن نوادر عبد التواب ابن خالتي أنك إذا دعوته علي الغداء مثلا،

وكان لديه دعوة أخرى في نفس الوقت، تراه يرفع رأسه لأعلي ويفكر قليلا ثم يفاجئك بمقولة تراثية سمعها في الراديو أو من أحد المشايخ تفيد بأن عدم قبول الدعوة قلة ذوق. ولأنه لا يريد أن يكون قليل الذوق فقد قبل الدعوة علي أن يكون الموعد في وقت آخر، ويا حبذا لو كانت لديه زيارة في هذا الوقت فإنه يسارع بإخبارك بأنه سوف يلبي الدعوة علي أن يحضر معه هذا الزائر الغريب. والبركة في اللمة -كما يقال- لاسيما وأن الإسلام قد حث علي إكرام الضيف. ولا مانع من أن يلقي علي سمعك الآية القرآنية الكريمة التي تقول : «ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة». وتنظر إلي نفسك فتجد أنك قد تورطت في عزومة موسعة لا تدري هل ستوافق عليها الوالدة أم لا؟. وبالفعل ففي إحدى المرات أنبتني الوالدة – التي هي خالة عبد التواب – تأنيبا شديدا وقالت لي: ألم أحذرك من قبل من دعوة عبد التواب علي أي طعام؟ وماذا سأفعل لكم إذا أصبحت في ذلك اليوم مشغولة في الحقل مع الأنفار من أول النهار لآخره؟. في هذه اللحظة أحس بأني ورطت نفسي وورطت الوالدة في ورطة كبيرة، ولكن ماذا أقول لعبد التواب وقد عزمته، ثم وافقت علي أن يحضر معه الزائر الغريب. ثم إن عبد التواب كان في بعض الأحيان يطلب العزومة بنفسه بعد أن يحكي لك قصصا وحكايات تدل علي أن إكرام الضيف واجب. ولا أدرى لماذا لم أقل له يوما: لماذا لا تعزمني أنت؟ فهل ذلك لأني كنت أعرف أنه يعيش مثل الضيف عند أخته؟ أم لأنه كان من السهل أن يرد عليك بأقوال من محفوظاته تقنعك بأن الأسر الأكثر استقراراً هي الأولي بعمل العزائم والختامي أي قراءة القرآن علي الموتى من بعد صلاة العصر إلي آذان المغرب وما يعقب ذلك من أكلة دسمة شهية يقدم فيها الأرز المعمر المدسوس في الفرن، واللحوم الطازة المشتراة في نفس اليوم من الجزار، والفتّ، والكسكسى أو المسرودة، والسلطة، والمرق، وكل ما لذ وطاب.

ومن نوادر عبد التواب ابن خالتي أنه عندما يزورك في البندر مثلا يحس بأن عليه واجبا وهو أن يدخل عليك بشيء في يده، ولكن نفسه لا تطاوعه أبدا في عمل هذا الواجب. ذهب إلي أخي الأصغر المقيم أثناء الدراسة في المطرية وكان قد عمل حسابه أن يتناول الغداء معه. دخل عليه وقال بعد أن سلم مباشرة: لقد مررت علي بائع البطيخ وقلت في نفسي آخذ بطيخة لابن خالتي سمعان ولكني خفت أن يكون لديكم بطيخ. ولما كان سمعان يجهز طعام الغداء : أرز مطبوخ وملوخية بدون أرانب بالطبع قال له عبد التواب: "أنت تطبخ وأنا أرقص لك شوية".و بالفعل صعد عبد التواب علي السرير المتهالك وأخذ يتحرك ذات اليمين وذات الشمال. وفي هذه اللحظة ظهر طوله كما لم يظهر من قبل. فقد كان طويل القامة، ممدود الساعدين، رأسه مدورة ووجهه يميل إلي الطول، قصير الشعر، كبير المنخار، واسع الحنك، ولهذا عندما رآه إيهاب الزفتاوي لأول مرة أطلق عليه لقب «الحنَّاك»، وهي صيغة مبالغة من الصيغ الخمس التي درسناها في علم الصرف. قال له سمعان بلغته الصادمة ولسانه المنفلت علي الرغم من الفارق الكبير في السن بينهما: يا روح أمك بطل رقص وتعال اطبخ معي. وكان سمعان يعنى ما يقول، فالطبخ فى ذلك الوقت لم يكن مسألة سهلة: فوابور الجاز محتاج دائما إلى معالجة وبالتالى لابد أن تكون معك إبرة معدة خصيصا لتسليكه عندما تضطرب شعلته، والمياه ليست متاحة في مطبخ نظيف مجهز، وإنما هي حنفية واحدة يعتمد عليها في كل شيء، والملوخية تحتاج إلي مهارة في طبخها لاسيما إذا لم يكن معها مرق، والثوم محتاج إلي تقشير، والبصل له هو الآخر طريقة، والأرز يمكن أن يشيط أثناء الطبخ أو يتحول إلي عجين. أما استحضار الأكل من الخارج فهذه مسألة من سابع المستحيلات: فلا عبد التواب يهون عليه أن يدفع مليما واحداً، ولا سمعان بفلوسه القليلة يقدر

علي ذلك. ولذلك بدا سمعان وكأنه يقول لعبد التواب: دعك من الرقص فلسنا في حاجة إليه وتعال معي لتشترك في تجهيز الأكل.

وذات يوم مال عبدالتواب علي سمعي وقال لي هامسا: سوف أبوح لك بسر لم أبح به لأحد قبلك، وأرجو أن تكتم هذا السر الآن. وكنت أعرف أن هذه هي طريقته مع كل أصحابه وأقاربه، إذ يتحدث مع الجميع تقريبا عن هذا السر لكنه يشدد في القول بأن هذا السر لك وحدك وعليك ألا تبوح به لأي شخص آخر، لأن السر -حسب رأيه - إذا تجاوز اثنين لم يعد سرا. وأحيانا كان يقول لمن يريد أن يبثه سره الدفين: هل فيك من يكتم السر؟ فترد عليه: نعم ولن أنقله إلي أي شخص آخر، مع أنك تعرف أنه هو نفسه نقله للجميع. قال لي عبدالتواب: لقد قررت أن أخطب. فقلت له: ومن هي صاحبة هذا الاختيار الموفق؟ قال: أمينة بنت علي الدباغ. كانت الصدمة قاسية بالنسبة لي: كيف يختار عبدالتواب ابن خالتي هذه الفتاة بالذات لتكون شريكة حياته؟ ومعروف أن أباها كان قتال قتلة، وهو خارج من السجن منذ شهور قليلة بعد أن قضي سنوات سجينا في قضية تزوير عملة. أي أن عمليات القتل الكثيرة التي ارتكبها لم يثبت عليه منها شيء، وخرج منها كما تخرج الشعرة من العجين، لكن قضية تزوير العملة ثبتت عليه مع شخص آخر من أقربائه ومن ثم قضيا خلف القضبان عدة سنوات. وها هو علي الدباغ يخرج من السجن وقد ضعف بصره، ووهنت قوته، وصار سيرة من الماضي لكنه مازال حديث الجيل الذي شهد عنفوانه وسطوته وإجرامه. وكان والدي يحكي لي عنه أن الناس كانوا يؤجرونه لتصفية خصومهم، وكانت لديه قدرة فائقة في القنص، فهو يصوب فوهة بندقيته تجاه الضحية ليصيبه في مقتل من مسافة بعيدة جدا، ثم يهرب من مكان الحادث، ولم تستطع الحكومة في أي مرة أن تثبت عليه التهمة. هذا إذن هو الرجل المحترم الذي يريد أن يناسبه عبد التواب ابن خالتي!!. ومن العجيب أني

عندما نقلت إليه هذا الرأي وجدته يندفع في الدفاع عن حبيبة القلب أمينة بنت علي الدباغ قائلا إنه يوافقني الرأي تماما في أن والدها كان قتال قتلة، وأنه خارج منذ فترة قليلة من السجن، وأن الأسرة بعامة يمكن أن تكون قد حملت من الوالد بعض النوازع الشريرة، ولكنه يختلف معي قليلا فيما يتعلق بأمينة. فهو قد خبر أخلاقها طوال الفترة الماضية، وتأكد من أنها ملاك. صحيح أنها نشأت في بيت مملوء بالشر، لكنها بعيدة تماما عن هذا الجو. واندفع عبد التواب في تدعيم كلامه بأقوال تراثية من أمثال: «يخرج من ظهر الجاهل عالم» فضلا عن الآية القرآنية الكريمة التي تقول: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، والآية الأخرى: «كل امرئ بما كسب رهين». والحق أنه كان بارعا في استدعاء الأقوال والآيات والأحاديث التي تدعم موقفه. فقد كان معجبا بعدد من المشايخ علي رأسهم الإمام الأكبر محمود شلتوت الذي كان يحفظ كثيرا من أقواله عن ظهر قلب.

سافرت إلي القاهرة، ولم أكن مقتنعا بالحجج التي ساقها عبد التواب ابن خالتي ولذلك وجدتني أندفع وأكتب إليه الرسالة القصيرة التالية:

أخي العزيز / عبد التواب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وبعد

لم أقتنع بالحجج التي ذكرتها حول تفكيرك في خطبة أمينة بنت علي الدباغ، لأني أعتقد يا عزيزي أنك ذاهب إلي المهالك برجليك. فكيف تقدم علي خطبة فتاة نشأت في أسرة مثل أسرة علي الدباغ؟ ولا تقل لي إنها ملاك، فالحكمة تقول: كل إناء ينضح ما فيه. فحاول أن تبتعد عن هذه الأسرة، والقرية مليئة بكثير من الفتيات المتعلمات ومنهن حائزات علي شهادة الليسانس أو البكالوريوس. فتخير واحدة منهن وابتعد عن هذه الفتاة ذات المنبت السوء، والحاصلة علي دبلوم، وأنت أجدر بأن تناسب الأسر الراقية المستقرة والبنت الحاصلة علي أعلي الشهادات.

وفقك الله لما فيه خيرك وعلو شأنك

والسلام

ابن خالتك / حماد منصور

لم يدُر في ذهني أبدا وأنا أكتب هذه الرسالة أن عبد التواب سوف يريها للأخ الأكبر لأمينة الدباغ، وأن هذا الأخ سوف يأخذها منه ويذهب بها إلي أبي ويقول له: يا عم الحاج منصور، أنت رجل طيب، والناس كلها تعرف عنك ذلك وتقدرك، ولكن انظر ما يريد أن يفعله ابنك بنا. ومما لاشك فيه أن أبي استاء كثيرا من هذه الرسالة، وتأسف للأخ ووعده أن هذا لن يحدث مرة أخري. وعندما نزلتُ أنَّبني كثيراً قائلا لي: هل تريد أن تذهب ضحية لابن خالتك المهووس عبد التواب الشاطر؟!

مضي عبد التواب في التجهيز للفرح، ولم يسمع لكلام أي معترض لأنه كان مقتنعا أن العروس ملاك، ثم إن قلبه هام بها حبا، ولم يستطع أي مخلوق في الكون أن يمنعه من السير في هذا الطريق. وجاء يوم الفرح. صحا عبد التواب من نومه مبكرا، وطلب منا نحن الأهل والإخوان والعشيرة أن نكون إلي جواره في هذا اليوم الذي لا يتكرر أبدا طوال عمر الإنسان. ذهبنا إلي بيت أخته فوجدناه في انتظارنا وقد استحضر عدداً من الكراسي نجلس عليها نحن والضيوف، ثم صعد بنا إلي المقعد وهو الدور الثاني من المنزل الريفي -هكذا كان يسمي - وكان عبارة عن حجرة واحدة امتلأت بالسرير المعد للدخلة، وترابيزة ومرآة في أحد الجوانب، واثنين من الكراسي لزوم القاعدة، ومرتبة عليها ملاءة وبطانية، وكان السرير من ذلك النوع النحاسي الذي يلف أعلاه من كل الجوانب بستارة شفافة تمنع البعوض وتسمي الناموسية. باركنا له ما فعل وامتدحنا الجهاز الذي أرانا بقيته في غرفة صغيرة جدا ملحقة بالغرفة الأصلية، وكان عبارة عن بعض الأواني النحاس، وعدد من الأطباق، والأجهزة البدائية المطلوبة. أما الصالون الذي

كان مكونا من كنبة وكرسيين فكان من الواضح أنه من النوع الرخيص جدا المصنوع في القرية في وقت لم يكون هناك صناع مهرة لهذه الأشياء، وقد وضعه في مدخل البيت بالدور الأرضي علي يمين الداخل. وهذا هو كل العفش الذي اشتراه عبد التواب. ولاشك فى أنه كان معتمدا علي أخته في الأشياء الأخرى.

استأذن منا عبد التواب لشراء لحمة الفرح. وفي هذه اللحظة مال علي أذني أحد الأقرباء وقال لي: هل تعرف من أين سيشتري عبد التواب اللحمة ؟ قلت له: لا أدري. قال: بالأمس مرضت جاموسة كبيرة في بيت عبد المجيد الشاطر، وقد لحقوها بالذبح قبل أن تنفق، ولما كان عبد التواب يعرف أن لحوم هذه الذبائح توزع ولا يدفع ثمنها إلا حين ميسرة فسوف يشتري ٢ كيلو أو ثلاثة، وبذلك يرفع عن كاهله عناء التكلفة التي تسببها له وليمة دعوتنا إلي الطعام. عاد عبدالتواب وفي يده لفة اللحم المعروفة، حيث كان الجزارون يلفونه في ورق سميك. وضع اللفة أمام أخته وطلب منها بلغته الاحتفالية المبالغ فيها أن تصنع وليمة عرس لم تحدث في البلد من قبل. حاول كل منا أن يستأذن للذهاب إلي البيت والعودة في آخر النهار لاسيما وأن الفرح ليس فيه حفلة بالصورة المعهودة: مزيكة حسب الله التي تأتي من البندر، وجمال أو عربات كارو تحمل العفش، وحصان يركب عليه العريس، وهودج تركب فيه العروس وأمها أو وصيفتها، ولف في شوارع القرية، وإنما هي دخلة اقتصادية جداً لا تزيد علي أكلة يتناولها المدعوون من الأهل والأقارب والأصدقاء. ولما كنا نعلم أن اللحمة مضروبة فقد فضلنا أن نتناول الغداء في بيوتنا ثم نعود. لكن عبد التواب أصر علي أن نبقي إلي جواره، وأن نتناول الغداء معه، ولم نجد مناصا من النزول علي رغبته.

انتظرنا الطعام طويلا، وبما أن اللحمة كندوز كبير فقد ظلت تغلي لفترة طويلة تعدت الساعتين. وأخيرا فرشت الأرض، ومد الطبق الألمونيوم

الواسع، ووضعت عليه أطباق اللحم والأرز والطبيخ الذي كانوا يسمونه بالدمعة (بتشديد الدال وكسرها)، وهي قطع صغيرة من اللحم مطبوخة في صلصة ومعها صوابع من الكفتة. وكان هذا من الأطباق المفضلة عندي، لكنني - للأسف الشديد- لم أحس بطعمه، ولم أحس بطعم الأرز الذي كان مطبوخا مع أنه من الأولي في بيت ريفي أن يكون معمراً. أما اللحمة فيبدو أن الساعتين أو أكثر لم يجعلاها قابلة للمضغ، لأنها مازالت تحتاج إلي تسوية أكثر، وبالطبع مهما فعلوا معها فلن تكون أفضل مما هي عليه. لم آكل شيئا، ويبدو أن الآخرين كانوا مثلي. لكن ماذا نفعل وقد ورطنا عبد التواب في هذه الوليمة التي لا يمكن أن تسمي وليمة، ولا يمكن أن نعتبر أنفسنا في فرح ودخلة وزفاف. وهكذا فقد اضطررنا أن نستسلم لقدرنا وأن نظل مع عبد التواب إلي أن تأزف ساعة الدخلة.

قال عبد التواب إنه ذاهب لاصطحاب العروس. لم يتحمس أحد منا للذهاب معه مع أن بيتهم كان قريبا جدا. ولم نلبث أن رأينا العروس قادمة في موكب مصغر مضاء بالشموع ولمبات الجاز، ولم تكن الكهرباء قد دخلت القرية بعد، وبجوارها عبد التواب الذي كان طويلا جدا بالنسبة لها. فهي دقيقة الحجم، متوسطة الطول، مستديرة الوجه، شقراء، ينسدل شعرها علي كتفيها، وتضع تاجا للزينة فوق رأسها. أما عبد التواب فقد ارتدى حلة رمادية جديدة لا أدري كيف طاوعته نفسه أن ينتزعها من الدولاب، وقد ربط ياقة قميصه برابطة عنق شكلها رخيص الثمن، لكنها علي أية حال جعلت شكله مهيبا مهندما. وكان عبد التواب يفتح شدقيه علي الآخر ضاحكا من الأغنيات التي ينطق بها النسوة، لاسيما الأغنية التي تقول: يا عوازل فلفلوا"، والأغنية الأخرى : " خدناها من عين أبوها". وما أجمل أصوات النسوة عندما يطلقن الزغاريد مجلجلة في هذا الوقت المتقدم من الليل، بعد صلاة العشاء مباشرة. تدافعت الأطفال لرؤية موكب العروس الذي وصل

إلي بيت عبد التواب. ولما كانت أمه متوفاة تقدمت إحدى خالاته ووقفت علي عتبة الدار كي تمرق العروس من تحت رجليها. فهذه هي العادة التي صارت عرفاً متبعا. مرقت العروس وصعدت مباشرة إلي المقعد حيث الحجرة التي جهزت لاستقبالها.

جلس معنا عبد التواب قليلا، ثم طلب منه أحد الجالسين أن يصعد إلي عروسه لفض غشاء البكارة، وسأله إذا كان مضطربا يمكن استقدام القابلة للقيام بهذه المهمة. ولكن عبد التواب رفض ذلك رفضا قاطعا وقال: لا يصح لإنسان متعلم أن تدخل معه القابلة لمهمة كهذه. عندئذ قال له أحد الجالسين: خلاص، قم يا سبع ولا تتأخر علينا، لأننا سوف نظل هنا لحين الانتهاء من فض الغشاء. قام عبد التواب وصعد الدرج ودخل الحجرة، ونحن نتوقع أن ينزل إلينا بسرعة. ولكن الوقت طال، وعبد التواب لا يوجد له أثر، ونحن مللنا الانتظار لاسيما وأننا هنا منذ بداية النهار. وأخيرا ظهر عبد التواب ينحدر إلينا بخطي متثاقلة. قلنا له: هيا أرنا القميص، فرد في صوت منكسر مهزوم: لم أستطع أن أفعل شيئا. ثم أردف: يبدو أن أحد السحرة قد ربطني. قال له عبد البصير: إذن ليس هناك إلا حل واحد هو استقدام السيد الشاطر لفك هذا الرباط الجهنمي. وافق عبد التواب فأرسلنا رسولا إلي السيد الشاطر وهو من نفس العائلة وبيته قريب منا. كان السيد الشاطر مشهورا بمهارته في كتابة الأحجبة، وفك عمليات السحر، وتخليص المربوط مما ألم به، لكن بعض الناس كانوا ينسبون إليه أفعالا مدمرة تؤدى إلي الطلاق، أو الربط، أو الجنون أو غير ذلك من أعمال السحر، وقالوا إن لديه قدرة عجيبة علي تسخير الجان. وكل هذا اكتسبه من كتب السحر الصفراء التي يحتفظ بها في مخزن عتيق ويستخرجها عند الحاجة مثلما يلجأ المحامي إلي كتب القانون ويلجأ الطبيب النطاسي إلي كتب الطب. و أذاعوا عنه أيضا أنه لا يلجأ إلي الوسائل القذرة التي يستخدمها بعض

السحرة مثل الوضوء باللبن الحليب، أو تسخير الجان في مهمات يأنفون منها. وقد أشاروا تحديدا إلي شخص كان يفعل ذلك فانتقم الجان منه في أولاده الذين صار معظمهم معوقين وتُوفوا في سن مبكرة.

دخل السيد الشاطر ومعه أدواته التي سوف يستخدمها في فك الربط وتخليص عبد التواب من هذه الحالة الرهيبة التي جعلته غير قادر علي فض غشاء البكارة في أول ليلة يدخل فيها علي زوجته. طلب السعيد الشاطر طشتا من طشوت الاستحمام، وصخرة صغيرة في حجم البرتقالة، وأخرج من سيالته حُقا (بضم الحاء) به محلول مذاب ومكون من أنواع مختلفة من الوصفات التي تستخدم في فك الربط. وضع الطشت في وسط الصالة، وصب فيه قليلا من الماء ثم خلط الماء بجزء من المحلول، وبدأ يحرك الصخرة وسط هذا السائل وكأنه يذيبه أكثر مما هو مذاب، وانتحي بعبد التواب جانبا وأعطاه قارورة صغيرة وضع فيها جزءاً من هذا السائل، وقال له: اصعد الآن وتوكل علي الله واقرأ الفاتحة ثم ضع علي ذكرك نقطة من السائل وابدأ مهمتك. صعد عبد التواب وفعل ما أمر به السيد الشاطر، وانتظر بفارغ الصبر أن ينتصب القضيب، ولكن القضيب لم يتحرك قيد أنملة. حاول محاولات مستميتة وطالت المدة لكن الفشل كان من نصيبه علي الدوام. قرر العودة إلي السيد الشاطر فنزل من علي السطح أشد انكسارا من ذي قبل، وكانت الهزيمة بادية علي وجهه بصورة تثير الشفقة. قال له السيد الشاطر: اجلس وسوف نحاول مرة أخري ، وصعد عبد التواب وفشل أيضا. استمرت المحاولات لخمس مرات متوالية، وأخيرا قال السيد الشاطر: من الواضح أنك لن تستطيع الليلة أن تفعل شيئا. قم لتنام الآن والصباح رباح، وسوف أحاول براحتي وعلي مهل أن أفك هذا الربط بأية طريقة، لأنه ليس بالأمر السهل، فالساحر الذي عمله لاشك فى أنه نفذه بطريقة معقدة جدا ويحتاج إلي صّبر طويل في فكه.

غادرنا البيت في ساعة متأخرة من الليل وتركنا عبد التواب يواجه مصيره وحده. قال عبد البصير ونحن نسير في العتمة: سمعت أن أصحاب الظهور الطويلة لديهم ضعف جنسي. فرد عليه مصطفي البشبيشي: ربما يكون عبد التواب قد صعب عليه أن يتخلي عن قرمطته حتى في الجنس!!. وقال عبد الستار الذي كان يثق في السحر ثقة مطلقة: إن السيد الشاطر بمهارته المعروفة سوف يفك عقدة عبد التواب.

نسينا عبد التواب وزوجته ومضت بنا الحياة في مسارات شتي. ولم يمر إلا أسبوعان فقط حتى سمعنا أن أمينة علي الدباغ طلبت من إخوتها أثناء وجود عبد التواب في الشغل أن ينقلوا عفشها بالكامل إلي دارهم وأن يأخذوها معهم. ومنذ ذلك اليوم بدأت ملحمة جديدة بين عبد التواب ابن خالتي وزوجته أمينة الدباغ: هم يأخذون العفش وهو يأخذ حكما من المحكمة بإعادته إلي بيته، وهم يطلبون الطلاق وهو يستخدم معرفته بالقانون لتأجيل الحكم، حتى جاءت فترة قرر فيها أن ينقل عفشه إلي بيوت بعض الأقارب والأصدقاء في قري أخرى، لكن أسرة أمينة الدباغ لم تكن تستسلم فتمضي إلي كل القرى المجاورة بحثا عن العفش حتى تعثر عليه وتعيده إلي بيتهم. وعبد التواب لا يكل ولا يمل ولا يستسلم، إلي أن جاءته إعارة للخارج وكان قد حصل علي حكم محكمة بالاستيلاء علي العفش ونقله إلي قرية بعيدة جدا ثم سافر. ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك، المهم أنها كانت ملحمة نتابع فصولها بشغف واهتمام حتى تباعد الزمن، وذهب كل واحد إلي حياته لاسيما وأن الجميع كانوا علي موعد للسفر إلي الخارج وترك هذا البلد للصوص والنهابين وقطاع الطرق.

القرش الصاغ المبروك

قرش صاغ واحد .. هل يمكن أن تكون له أهمية فائقة في حياة فرد ما، وأن تظل صورته مطبوعة في الذهن وكأنه شخص من لحم ودم؟ هذا ما حدث للقرش الواحد الذي حافظت عليه طوال عشرة أيام كاملة. أحمله في جيبي، وأتنقل به، وأعود به إلي غرفتي في مدينة البعوث الإسلامية، فأضعه بحرص شديد في درج المكتب ولا أستخرجه إلا عندما أقرر الخروج في اليوم التالي متوجها إلي الجامعة في الدراسة أو إلي العتبة للذهاب إلي المركز الثقافي الإسباني في شارع عدلي، ممر كوداك. وتسألني: إذا كان هذا القرش يلازمني مثل الصاحب الوفي فكيف كنت أعيش طوال تلك الفترة؟ وأجيبك بأننا في مدينة البعوث الإسلامية كن نتناول وجبتين في اليوم: وجبة الإفطار ووجبة الغداء. كانتا وجبتين جيدتين: فول وطعمية وجبنة وخبز ومربي في الإفطار، ولحوم حمراء أو بيضاء أو سمك وأرز وطبق خضار وخبز في الغداء. ولم تكن الوجبات مسممة أو مضروبة كما يحدث في المدن الجامعية الآن. فالتدهور والانهيار وسقوط الأخلاق الذي أصاب كل شيء في المجتمع بعد ثلاثين عاما من الفساد المتواصل طوال حكم المخلوع وعصابته وصل إلي المدن الجامعية. ولهذا كنت أكتفي بهاتين الوجبتين وأنام قرير العين، وأصحو في الصباح الباكر أجهز أدواتي الدراسية وأضع القرش الوحيد في جيبي وأخرج.

في أول يوم ترددت كثيرا: هل أذهب إلي الجامعة ماشيا والمسافة طويلة أم أركب الأتوبيس وأنزل عندما يقترب مني الكمسرى؟ تقع مدينة البعوث الإسلامية في حي العباسية، والمسافة بينها وبين منطقة الدراسة تأخذ نصف ساعة تقريبا سيراً علي القدمين، لكنني عند العودة أحتاج إلي نصف ساعة أخرى، والجو يمكن أن يكون حراً، وقبل المغرب أحتاج إلي النزول

مرة أخرى للذهاب إلي المركز الثقافي الإسباني. قلبت الموضوع علي كل وجوهه، ولم أجد مفرا من ركوب الأتوبيس. وكانت الأتوبيسات في ذلك الوقت مزحومة دائما، والحق أني لم أتمن أن يكون الأتوبيس مزدحماً علي الآخر إلا في تلك الفترة. تخيرت المكان المعاكس لوجود الكمسرى، وكنت أراقبه مراقبة فاحصة بحيث أنه عندما يقترب مني أكون قد أسرعت بالنزول. والحمد لله أننا لم نكن قد عرفنا بعد أن يكون للكمسرى كرسى ثابت يجلس عليه، أو لم تكن هذه التجربة قد عممت بعد، فكنت تراها فى أحد الأتوبيسات ولا تراها في أتوبيس آخر. وبالتالي فإني كنت أتجنب ركوب الأتوبيس الذي به مكان محدد للكمسرى.

في أول يوم من اختباري لهذه الفكرة نزلت في مكان قريب من الجامعة. وبعد انتهاء اليوم الدراسي نزلت أمام مدينة البعوث مباشرة، لأن الأتوبيس الذي ركبته من ميدان الإمام الحسين كان شديد الزحام، ولهذا استمتعت بالركوب حتى آخر لحظة. وفي المساء وصلت إلي مشارف حي العتبة، وقطعت مسافة قصيرة حتى وصلت إلي بداية شارع عدلي، مرورا بالأوبرا ومبني البريد وتمثال إبراهيم باشا، والمحلات العامرة بالزبائن، وهي محلات لم نكن نشغل أنفسنا بالنظر في فتارينها المزدانة بالأنوار الساطعة. وصلت إلي المركز قبل بداية الحصة التي سوف يدرس لنا فيها الأستاذ خوسيه ماريا كالبو مدير المركز. سلمت علي الطلاب والطالبات وهم أخلاط من البشر، بعضهم طلاب مثلنا في كلية الألسن، والغالبية من نساء وفتيات الطبقة الراقية اللاتي التحقن بالكورسات الدراسية لتعلم لغة جديدة إضافة إلي ما يعرفن من لغات أخرى. وبعضهن كن يتجاذبن أطراف الحديث باللغة الفرنسية التي يجدنها إجادة كاملة بفضل تخرجهن من مدارس اللغات، وبعضهن الآخر يتحادثن باللغة الانجليزية. وكنت في كثير من الأحيان أحس بأن هذا الجو غريب علي أمثالي. فأنا فلاح قح نشأ في الريف، وقضي

ردحا طويلا من حياته في أروقة الأزهر. صحيح أني درست اللغة الفرنسية وأستطيع أن أرطن بها، ولكني لا أجيدها مثلما يجيدها هؤلاء النسوة، ثم إني لا أملك في جيبي إلا قرش صاغ واحد، أخاف عليه مثلما يخاف الأعرابي علي شاة يأخذ منها حليبه اليومي. وماذا لو فاجأني الكمسري ذات مرة وانتزع مني هذا القرش قبل أن أهرب به. عندئذ لن أجرؤ علي المجئ إلي هذا المكان مرة أخرى.

بحثت عن كوثر، وهي طالبة في السنة الثانية بكلية الألسن، تدرس معنا هذا الكورس، وكنت أسبقها بعام واحد. وعندما وجدتها جلست إلي جوارها. ذهب الأستاذ خوسيه ماريا لبعض الشأن داخل المركز فاستخرجت من حقيبتي كراسة الأشعار التي كانت قد أعطتها لي لقراءتها. أخبرتها أني سعدت بقراءة هذه الأشعار. وكانت قد قرأت بعض قصائدي وأثنت عليها. ولا أدري لماذا غزاني في هذه اللحظة إحساس قوي بأني يمكن أن أرتبط بهذه الفتاة المتعلمة المثقفة. كانت كوثر قمحية اللون وإن كانت تميل إلي السمرة، وشعرها الأسود ينسدل علي كتفيها. ملامحها دقيقة، متوسطة الطول، معتدلة القوام، تميل إلي النحافة، فيها رزانة وبساطة وجمال آسر وإن كان لا يصل إلي درجة الفتنة، سوداء العينين، واسعتهما، طويلة الأهداب، تري في عينيها لمعانا يدل علي الفطنة والذكاء. خرجنا بعد انتهاء الدرس نطوف ببعض الشوارع، وإن كنت لم أجرؤ أبداً علي أن أدعوها للجلوس في جروبي أو أي مقهى من المقاهي الكثيرة المنتشرة في هذه المنطقة. لكني وجدت الجرأة لكي أسألها: هل لديها مانع لحدوث ارتباط فيما بيننا بحيث نتزوج عندما يحصل كل منا علي الليسانس، لاسيما وأنها متفوقة وأنا متفوق ويمكن أن نسافر معا في بعثة إلي الخارج؟. ردت علي بأنه لسوء الحظ لا يمكن أن يجمع الدهر بيننا. وسكتت ولم تزد علي ذلك، وأنا لم أطلب منها أي توضيح.

علمت فيما بعد أنها مخطوبة لشخص متخرج أيضا في كلية الألسن ويعمل في إحدى السفارات ولديه سيارة بيجو، وهو يكبرها في السن لكنه قادر علي وقته لأنه يصرف راتبه بالدولار الأمريكي. قلت في نفسي: ها هي قصة سميرة الصواف تتكرر!!. وتعجبت من صروف الزمان التي تحول بين المحبين وبين الارتباط. مرت الأيام وتزوجت كوثر، وبدلا من أن تجد الراحة والاستقرار عانت من المتاعب الشديدة من أول يوم، فقد كان زوجها مصابا بمجموعة من العقد النفسية التي لا حلول لها، لدرجة أنه أقام حاجزا داخل الشقة بينه وبين كوثر، وعاش كل منهما غريبا عن الآخر داخل بيت واحد. صحيح أنهما رزقا بالولد، لكن الحياة الزوجية المستقرة الهانئة لم تستمر إلا لفترة قصيرة جدا، وبدأ هو يبحث عن متعته خارج منزل الزوجية أما هي فقد منعتها تربيتها وأخلاقها من ذلك ولهذا هاجمتها الأمراض النفسية ثم الجسدية من كل جانب.

ودعت كوثر ثم توجهت إلي ميدان العتبة. مررت أولا بسور الأزبكية أنظر إلي الكتب المعروضة علي أرفف المكتبات وأمامها. بالطبع لن أشتري هذه الليلة شيئا لكن يكفي أن أتصفح بعض الكتب. وكانت الكتب في تلك الفترة متنوعة جدا وتشمل كل صنوف المعرفة. فهناك كتب الكتاب والشعراء والمثقفين المصريين الكبار من أمثال مصطفي صادق الرافعي، وعباس محمود العقاد، ونجيب محفوظ، ومحمد مندور، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وزكي نجيب محمود، ولويس عوض وسواهم. والكتب المترجمة من لغات أجنبية لاسيما في مجال الرواية، وكتب العلم، والثقافة، والدين، والأخلاق، والفلسفة وغيرها .وكان جيلنا مشغولا بهذه الأشياء، والطلاب يقبلون علي شراء الكتب من كل التخصصات، والناس مقبلة علي الثقافة. كان كل منا يعد نفسه لكي يكون علامة بارزة في مجال الثقافة. لم نتصور أبدا أن مصر سوف يحكمها مجموعة من الجهلاء العاطلين عن كل فكر، المفرغين مما

يشغل الذهن، المشغولين بالتفاهات وسفاسف الأمور، وأن هذه الفترة سوف تمتد لعقود طويلة تصل خلالها البلاد إلي حالة من الانهيار التام، والفقر المدقع، وتدني الأخلاق، وانقلاب المعايير، وسقوط القيم.

ركبت الأتوبيس رقم ٦٣ المتوجه إلي العباسية مرورا بالأزهر، ومدينة البعوث الإسلامية. حمدت الله أنه كان مزدحما، وعندما اقترب مني الكمسرى وكنا قد وصلنا إلي منطقة الدراسة نزلت، لأنتظر الأتوبيس القادم بعده. عاينت موقع الكمسرى فوجدته في آخر الأتوبيس فركبت هذه المرة من الأمام، وعندما اقترب مني كنا قد اقتربنا من مدينة البعوث، فنزلت وأخذت المسافة الباقية سيرا علي القدمين، وأنا بالطبع في غاية السعادة. فالقرش مازال في جيبي، وكما يقال: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود». وصلت إلي المدينة فوضعت القرش في مكانه، ثم توجهت إلي المسجد. وفي الطرقة قابلت الصديق اليمني عبدالرحمن الحجي، وكان يسكن في نفس الدور، وهو نحيف الجسم، دقيق الملامح، يرتدي الزى اليمني الذي يشبه لبس الحجاج، ويضع علي عينيه نظارة سميكة. وكان من عادته أن ينادي صديقنا الأثيوبي قائلا: يا أثيوبيا، وهكذا أخذناها عنه فكنا نقول له دائما: يا أثيوبيا.

وجدت في المسجد صديقنا الفلسطيني الغزاوى إسماعيل الذي كنا نناديه دائما بكلمة الشيخ، وذلك لأنه في ذلك الوقت الذي لم تكن قد انتشرت فيه اللحي كان يطلق لحيته التي يسويها بطريقة مهذبة، ويضع علي رأسه طاقية مستطيلة، ويتحدث في غالب الأحيان بلغة عربية فصحي، ويحفظ أبياتا من الشعر ينشدها في وقتها ، مثل ذلك البيت الذي كان يردده كثيرا

رأي الجماعة لا تشقي البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

قال لي الشيخ إسماعيل، وكان معروفا بكرمه: ما رأيك في أن تأتي معي ننزل إلي العباسية ونتناول هناك بعض سندوتشات الفول والطعمية؟ لم

أتردد في قبول هذه الدعوة لاسيما وأنها جاءت في وقت كنت أحس فيه بالجوع. غادرنا المسجد وأخذنا الطريق النازل الذي يمر بالعمارة التي يسكن بها الطلاب الماليزيون. وصلنا إلي مطعم الفول والطعمية وأكل كل منا سندوتش فول وآخر طعمية، ثم قال الشيخ إسماعيل: هل تحب أن نشرب عصير قصب أو نشرب شايا؟. قلت: العصير أفضل. شربنا العصير ثم عدنا إلي المدينة وأنا لا أدري هل عرف الشيخ إسماعيل أني لا أملك إلا قرش صاغ واحد؟ وهل هذا الرجل مكشوف عنه الحجاب؟ أم أن المسألة مجرد مصادفة؟ علي أية حال فإن الشيخ إسماعيل رجل طيب بادى الصلاح، وكل أقواله وأفعاله تشي بذلك.

في اليوم التالي أخذت الأتوبيس بنفس الطريقة إلي الجامعة، وهناك التقيت ببعض الإخوة الذين يصرفون مثلي مكافأة التفوق، وكانت خمسة عشر جنيها في الشهر لمن هو من أوائل الثانوية حتى ولو كان تقديره جيد جدا أما الآخرون فحسب التقدير: الممتاز خمسة عشر جنيها وجيد جدا نصف هذا المبلغ. قال لي عبده زيدان: لقد تأخرت المكافآت كثيرا، لكنني سمعت أنها سوف تصرف بعد عشرة أيام. قلت له: ربنا يسمع منك. وكنا قد اتفقنا علي أن الطلاب من أوائل الثانوية الذين لم يحالفهم الحظ في الحصول علي تقدير امتياز أو جيد جدا ومن ثم انقطعت مكافآتهم لابد وأن نجمع جنيهين من كل صاحب مكافأة ونوزع المبلغ المتحصل علي هؤلاء الزملاء. وهذا ما حدث طوال فترة الدراسة. قلت لعبده زيدان: هل تعرف أني لا أملك هذه الأيام إلا قرش صاغ واحد؟ ضحك ملء شدقيه، لكنه لم يقل لي: " أعطيك مبلغا إذا أردت"، لأني أعتقد أنه في تلك اللحظة ربما لم يكن يمتلك مليما واحداً.

رمان البيه حسنين

قامت ثورة يوليه ١٩٥٢وأخذت الأوضاع تتغير بسرعة علي أرض مصر. فالقرى التي كانت مهملة تماما بدأت تدب فيها الحركة بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي. ويجعل التعليم الابتدائي إلزاميا انتشرت المدارس في كثير من القرى وسارع الفلاحون إلي تعليم أبنائهم، إضافة إلي المعاهد الأزهرية التي كانت مكونة من مرحلتين: ابتدائي وثانوي، حيث الابتدائي أربع سنوات والثانوي خمس، وكان الابتدائي يعادل المرحلة الإعدادية في وزارة التربية والتعليم حتى صدر قانون الأزهر رقم ٣ لعام ١٩٦١ فسمي التعليم الابتدائي في الأزهر بالمرحلة الإعدادية التي ظلت أيضا مكونة من أربع سنوات. أما قانون الإصلاح الزراعي فقد أدي إلي توزيع الأراضي المستولي عليها من كبار الملاك علي صغار المزارعين، ثم تكونت الجمعيات الزراعية التي أمدت المزارعين بالأسمدة والتقاوي وغير ذلك، والتي مازالت موجودة إلي الآن. وكل هذا أحدث نقلات نوعية في حياة الفلاحين.

وكنا نحن الجيل الذي ولد مع الثورة تقريبا أو قبلها بقليل، وبدأنا ننتفع بالتحولات الجديدة والقوانين وظروف الحياة المختلفة التي فرضها ثوار يوليو علي المجتمع انخرط كثير من أبناء الجيل في التعليم الابتدائي التابع لوزارة التربية والتعليم، وبعضنا اكتفي بالكتّاب، ثم التحق بالأزهر مباشرة، وجميعنا صرنا نتنفس هواء جديدا، ونعيش حياة مختلفة تماما عن حياة الأجيال السابقة، نقضي أوقاتا طويلة في الوحدة المجمعة، حتى ولو لم نكن من تلاميذ مدرستها الابتدائية، نمارس أنواع الرياضة المختلفة لاسيما كرة القدم التي أنشئ لها ملعب خاص، وتكونت فرقة كانت تدخل في منافسات ومباريات مع فرق القرى الأخرى، ونتردد علي الوحدة الصحية للعلاج من مرض البلهارسيا الذي كان يهاجمنا بقوة، ونجتمع في النادي أو الأماكن

الأخرى المعدة لهذا الغرض، وندخل في علاقات بريئة مع بنات القرية اللاتي انخرطن في التعليم مثلنا. ولما كان التعليم يمثل أملا لخروج الأسر الريفية من حالة الفقر الشديدة التي كانت تعاني منها أغلب الأسر فقد حدث نوع من التنافس في هذا المجال لدرجة أن والدي الحاج منصور -علي الرغم من فقره الشديد- كان يفخر بأنه سوف يعلم أولاده جميعا ذكورا وإناثا. وهذا ما حدث فعلا. ولم ينته عقد الستينيات حتى كان كثيرون من أبناء القرية طلابا في الجامعة. ولم يكن في مصر آنذاك إلا أربع جامعات فقط هي: جامعة القاهرة، وجامعة الاسكندرية، وجامعة الأزهر بالقاهرة فقط، وجامعة أسيوط. وهكذا توزعنا، لكننا كنا نلتقي في الأجازات وخاصة الأجازة الصيفية التي تمتد لأشهر متواصلة.

قال لي عبد الستار الفالح الذي صار طالبا في معهد تكنولوجيا: ما رأيك في أن نتجمع الليلة ونسطو علي شجرة الرمان في حديقة فيلا البيه حسنين؟ قلت له: لا بأس، خاصة أننا لم نأكل الرمان من قبل ولم نعرف طعمه. نقلنا الفكرة إلي عادل زاهر، وأحمد متولي، وسعيد عبادة، وكامل العقدة، وأشرف سرحان، وعبد الفتاح أبو زينة، فوافقوا جميعا علي الفكرة. لكن حالة من الخوف انتابتنا لأن أحمد متولي ذكر لنا أن الفيلا والجنينة في حراسة كلب شرس مدرب جدا علي حمايتها من أي شخص يفكر في الدخول إليها، فما بالك ونحن نريد «تقشيط» شجرة الرمان!!. هل سيعطينا الكلب فرصة؟ ثم إنه قد يعض أحدنا عضة لن يسلم منها أبدا. تدخل سعيد عبادة وهو مكفوف البصر يدرس في إحدى كليات جامعة الأزهر: أنا أكفيكم شر هذا الكلب. لم نسأله كيف ستتمكن من ذلك، لأننا نعرف أن لديه إمكانيات تفوق إمكانياتنا نحن المبصرين، فهو يمشي وحده في الشارع ويتحسس الطريق بمهارة فائقة، ويركب الحمار ويطير به طيرانا، وأحيانا يركب بالعكس أي مديرا وجهه نحو مؤخرة الحمار ويجري به أيضا وكأنه

يتحدى المبصرين، وعندما نريد أن نأكل التوت يتسلق هو الشجرة في خفة وبراعة ويمطرنا نحن الواقفين تحت بثمار التوت الشهية التي تنجذب يده إليها وكأنه يراها رأي العين.

كانت قريتنا تضم ثلاث فلل تعود إلي فترة ما قبل الثورة واستمرت بعدها لما يقرب من خمسة وعشرين عاما، وأصحابها الثلاثة من أسرة حسنين التي تحمل لقب البكوية، ويبدو أنها كانت معدة للإقامة لفترات قصيرة يتابع خلالها البك أملاكه ومصالحه في المنطقة ثم يغادر إلي مسكنه الأساسي في البندر. وكان البك يحضر في سيارة فولكس واجن، أحيانا بصحبة أسرته التي ترتدي الملابس الإفرنجية، فيدلف إلي الفيلا التي تقع في أطراف القرية دون أن يختلط بأحد من الفلاحين فيما عدا الشخص المسئول عن إدارة أطيانه وأملاكه الزراعية، وهؤلاء كان لهم وضعية خاصة في مجتمع ما قبل الثورة، وكانوا يتمتعون ببعض الثراء، فضلا عن الامتيازات التي يحصلون عليها من قربهم من طبقة الإقطاعيين.

اتفقنا علي موعد الصفر، وقررنا أن يكون لقاؤنا بعد صلاة العشاء أمام ماكينة الطحين. حضر الجميع في الموعد المقرر، فأخذنا الطريق شبه المرصوف المؤدي إلي الطريق الزراعي (طريق طنطا - كفر الشيخ)، وكانت الفيلا قريبة منه. قال كامل العقدة: ماذا نفعل لو وجدنا الغفير مرابطا أمام الفيلا؟ رد عليه عبد الفتاح أبو زينة: إن الغفير في العادة لا يكون موجودا في الليل، لأنه يذهب إلي بيته لينام مبكرا كعادة أهل القرية جميعا، ويترك المهمة للكلب الشرس المدرب، الذي يعمل اللصوص ألف حساب له، وبما أننا لسنا لصوصاً وكل ما نريده هو أن نتذوق طعم الرمان فإن الشيخ عبادة قد وعدنا بأنه سوف يكفينا شر الكلب. سأل عادل زاهر الشيخ عبادة: ماذا ستفعل مع الكلب؟ فرد عليه: قلت لكم اتركوا هذه المهمة لي، وسوف ترون أني لن أخذلكم.

وصلنا إلي أطراف الفيلا؛ وبدأ الكلب ينبح نباحا مخيفا. تحققنا من أن الغفير ليس موجودا، فتوكلنا علي الله واقتربنا كثيرا من الفيلا. زاد نباح الكلب بصورة مفزعة لدرجة أننا خفنا من أن يهجم علينا، ولكن الشيخ عبادة أخذ يبث الطمأنينة في نفوسنا قائلا: تقدموا ولا تخشوا شيئا. تقدمنا حتى صرنا تقريبا في محاذاة السور. كان الظلام دامسا فيما حولنا باستثناء فانوس واحد صغير يصدر إضاءة خافتة في وسط الفيلا. كنا في الصيف حيث الطبيعة هادئة ليلا، والجو لطيف، والنسيم عليل، وكل شيء ساكن سكون أهل القرية في مساكنهم وقد أسلموا أنفسهم لنوم عميق، وكانت الأشجار في الحقول تتمايل مع هبات النسيم الصيفية، والسكون يلف الفضاء فيما عدا نقيق الضفادع الذي كان يسمع من بعيد. وبما أننا كنا في طفولتنا نسمع قصصا كثيرة عن الذئاب والثعالب فقد تخيلت ذئبا يعوى حولنا أو يستعد لمهاجمتنا، أو ثعلبا يمرق بين الأشجار بحثا عن فريسة لاسيما وأن صورته في أذهاننا ارتبطت بالمكر والدهاء والمراوغة. نقلت بعض هذه المخاوف لعبد الستار الفالح فنظر إلي بوجه يبتسم في الظلام مبديا اللوم وموجها إلي الاتهام بأني خوّافٌ.

تقدمنا الشيخ عبادة الذي وجدناه يمد يده في سيالته ويستخرج بعض الطعام المكون معظمه من الخبز الناشف ويقدمه إلي الكلب الشرس الذي استسلم تماما ومضي يلتهم الخبز بعد أن كف عن النباح، وكأنما كان ثمة عهد بينه وبين الشيخ عبادة بأن يأكل هو الخبز ويتركنا نقطف ثمار الرمان. صعد اثنان منا علي كتفي وأسرعا في اقتطاف الثمار التي جمعناها في سلة كانت معنا. قال الشيخ عبادة: هل انتهيتم؟ رد عليه أحمد متولي: علي خير وجه. تركنا الفيلا وانطلقنا وسط الحقول حتى وصلنا إلي الطريق شبه الزراعي. جلسنا أمام أرض مزروعة خضراوات: طماطم، وخيار، وعجور، وفاصوليا، وباذنجان وغير ذلك. قسمنا ثمار الرمان، وحصل كل منا علي

خمس رمانات كاملة. انهمكنا في التقشير والأكل حتى ارتوينا. وكان من حسن الحظ أن الثمار التي قطفناها كانت ناضجة. ولا أدري هل هي بركات الشيخ عبادة أم أن الشخصين اللذين صعدا علي الأكتاف كانا ماهرين إلي حد أنهما لم يقطفا إلا الثمار الناضجة المستوية؟ لم نقل للشيخ عبادة كيف تعاملت مع الكلب لأن هذه مسألة مفروغ منها، وإنما سألناه: كيف ضحكت علي الكلب؟ قهقه الشيخ عبادة عاليا وقال: هذا سر لا يمكن أن أمنحكم إياه.

كان الشيخ عبادة مشهورا بالعفرتة، ويبدو أنه أتقنها نتيجة مجاورته لمكفوف آخر من عمر والده اشتهر بالشيطنة علي الرغم من حفظه للقرآن الكريم وترأسه للختامي والعتايق. والعتاقة مختلفة كثيرا عن الخاتمة، لأنها متخصصة في قراءة سورة الإخلاص فئ نفس الوقت المخصص للخاتمة أي من بعد صلاة العصر إلي آذان المغرب. بعدها يأتي الأكل المطبوخ في الفرن البلدي المكون من الأرز المعمر، واللحمة الطازجة وغير ذلك من الأكلات المشهية. وكان الشيخ بصارة - وهذا اسمه - يجيد فنونا كثيرة ويمشي في الشارع بمفرده كي يستحضر الأشياء التي يحتاج إليها في الصنعة التي اشتهر بها وهي صنعة السلال والمقاطف التي تحتاج أولا إلي ضفائر.

وكانت ضفيرته تفوق ضفيرة المبصرين دقة وإتقانا. لكن علي الرغم من مهارته في الصنائع فإنه كان حاد الطبع. ينادي -مثلا- علي زوجته أم زغلول فإذا لم تجبه بسرعة يقوم من مكانه عندما تصل ويشكمها شكمة قوية لا يدري في أي مكان وقعت من جسدها، لكني أعتقد - وقد شاهدته ذات مرة مصادفة - أنه يلشن علي وجهها بحيث يكون لشكمته تأثير واضح. ومن العجيب أن أم زغلول لا تنفعل ولا تغضب بل تحاول جاهدة أن تعتذر عن التأخير. لم يأخذ الشيخ عبادة من الشيخ بصارة حدته، ومن

الواضح أن التعليم كان له تأثير في ذلك. لكنه أخذ عنه أشياء كثيرة أخرى، من بينها هذه العفرتة الواضحة في تصرفاته.

بعد أنْ انتهينا من أكل الرمان، وشبعنا شبعاً لا مزيد عليه قال لي عادل زاهر: لماذا لا نقوم الليلة بتمريننا الأسبوعي بدلا من ليلة الغد؟ قلت له: والله فكرة سليمة. كان هذا التمرين عبارة عن مشوار طويل في حدود ثماني كيلومترات نقطعه جريا من قريتنا إلي قرية سبرباي بالطريق الزراعي المرصوف. كانت السيارات أيامها قليلة جدا لدرجة أننا لم نكن نحس بها. ودعنا جماعة الرمان وانطلقنا مرة أخري نحو الطريق الزراعي. وصلنا إلي مصرف المجاري المكشوف فهاجمتنا رائحته القذرة المقززة لكننا كنا متعودين عليه، بل إن بعض الناس الذين عملوا في الخليج بعد ذلك عندما عادوا بنوا علي شاطئيه بيوتا أسمنتية تطل من ناحية عليه مباشرة، وقد سمعتهم يقولون إنهم يعيشون في منطقة الكورنيش. وهكذا تحول مصرف المجاري في عرف بعض الناس إلي كورنيش!!. بدأنا مشوار الجري، المصرف علي يسارنا ونحن علي الطريق المرصوف. وصلنا إلي سبرباي ثم عدنا بعد أن صار المصرف علي يميننا. وعندما صرنا عند مدخل القرية مررنا علي فيلا حسنين بك فقال لي عادل زاهر: ألا تريد أن نقطف مرة أخرى بعض ثمار الرمان؟ قلت له هذا مستحيل طالما أن الشيخ عبادة ليس معنا. عندئذ فاجأني عادل زاهر بمعلومة جديدة قائلا: هل تعرف أن الشيخ عبادة فيه كثير من الشخصية العالمية المشهورة «دون جوان»؟ قلت له : كيف ذلك وهو مكفوف البصر؟ قال: إن النساء ترتاح له كثيرا لاسيما الفتيات الجامعيات، ولذلك تراه في كل ليلة في ضيافة أسرة، يسهر، ويلقي النكات والقفشات، والأسر لا تشك فيه لأنه مكفوف. سألته: وهل تشك أنت فيه؟ قال: نعم، إن هناك بنات متعلقات به، وهو يختلق كل الأسباب الوهمية للمرور عليهن والتواصل معهن، لدرجة أنه اقترب كثيرا من امرأة متزوجة،

وكان يتعمد المرور علي بيتها ويلقي السلام وإذا رآها أو أدرك أنها وحدها جاذبها أطراف الحديث. ولأن زوجها غيور جدا وسريع الانفعال تصادف أن كان جالسا أمام البيت، ومر الشيخ عبادة بصحبة شخص آخر وألقي السلام كعادته فقام زوجها من مكانه واشتبك معه في معركة حامية، وحذره من المرور مرة أخرى من هنا وإلا حدث له ما لا يحمد عقباه.

سلمت علي عادل زاهر ومضي كل منا إلي بيته. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. وجدت الأسرة تغط في نوم عميق لكني واثق من أن والدتي سوف تصحو لتفتح لي. كان الجميع نائمين في المندرة وهي المكان المفضل للمبيت في فصل الصيف. تذكرت أن والدي سوف يصحو بعد قليل، ربما في الواحدة والنصف أو الثانية كي يذهب إلي الجامع انتظارا لصلاة الفجر. ولا أدريٰ لماذا لا يصحو قبل الأذان بقليل؟ أم أن الحكايات التي يرويها لنا تعجبه ويري فيها نفسه؟. حكي لنا أنه ذهب إلي المسجد ذات مرة قبل الفجر بساعتين أو أكثر، وقد تردد هل يعود مرة أخرى إلي البيت أم يقضي الوقت في المسجد لحين قدوم المصلين؟ وحسم الأمر لصالح الخيار الثاني، وقد شاهد في تلك الليلة ما لم يشاهده في حياته. فالليل من حوله حالك السواد، وليس في المسجد إلا لمبة جاز صغيرة جدا تسمي «سهراية» لا تكاد تستهلك وقودا، وقد صلي تحية المسجد وبعض الصلوات الأخرى «التهجد» ثم جلس بجوار السهراية، لكن العفاريت لم تتركه في حاله، حيث أخذ الخبط والصراخ يتصاعد من دورة المياه، وكأن هناك أطباقا وأواني من النحاس تستخدم في الضرب والفرقعة. كذلك تصاعدت أصوات النحيب وكأن العفاريت تودع شخصا عزيزا عليها. خاف الحج منصور من أن تترك العفاريت دورة المياه وتنتقل إليه حيث يجلس فانكمش علي نفسه وانهمك في قراءة القرآن الكريم، ولم يتنفس الصعداء إلا عندما توافد المصلون مع اقتراب موعد صلاة الفجر.

مرة أخرى، وكانت ليلة عيد الأضحى، صحا الوالد مبكرا أيضا وتوجه إلي المسجد. لكنه أثناء الطريق اكتشف أن الفجر باق عليه وقت طويل، ويبدو أنه خاف أن يحدث له مثلما حدث في المرة السابقة فقرر أن يمر علي ابن أخته الأصغر علي النشار يقضي بقية الوقت عنده إلي أن يحين موعد أذان الفجر. لم يفكر الحاج منصور أن ابن أخته متزوج، وأن ليلة العيد ليلة مبروكة تحلو فيها العشرة الزوجية، وينام فيها الأطفال في وقت متقدم من الليل كي يصحوا مبكرين للذهاب إلي ساحة العيد. طرق الحاج منصور الباب ففتح له علي النشار قائلا: خير، اللهم اجعله خير. رد الحاج منصور جئت فقط أقضي معكم الوقت لحين طلوع الفجر. قال علي النشار بلغة منكسرة فيها كثير من الاستغراب: ادخل يا خال، أمرنا لله في هذه الليلة الهباب. لم يسمع الحاج منصور هذه البرطمة وإلا لشكمه. فالخال في عرف القرويين يعتبر والدا ويمكنه أن يفعل ما يشاء. لكن علي النشار الذي كان يتلمظ للارتماء في أحضان زوجته نعيمة كان بين الحين والآخر يقول لخاله: وأنت يا خال أليس عندك ليلة عيد؟ فيتجنّب الخال الإجابة، مع أن الإجابة واضحة: فلو أن المسألة تهمه ما خرج أبدا في هذه الساعة المتقدمة من الليل تحت دعوي أنه ذاهب لصلاة الفجر!!. أي فجر والوقت مازال طويلا!!. بل إن علي النشار تجرأ في مرة وقال لخاله: أعتقد أن الفجر علي وشك الطلوع والآن سوف تري معظم المصلين وصلوا إلي المسجد. لكن خاله - علي أية حال - لم يتركهم إلا بعد أن أحس بأن ساعة الفجر قد اقتربت. غادر المكان وانهمك علي النشار في شئونه الزوجية. صحيح أنه وجد الزوجة تغط في نوم عميق لكنه صمم علي إيقاظها قائلا لنفسه: منك لله يا خال، أضعت علينا هذه الليلة الجميلة!!.

في السنوات الأخيرة من حياة الحاج منصور لم يتخل أبدا عن عادة الاستيقاظ قبل الفجر بمدة طويلة.أما أنا فلم أخف عليه من عملة مثل التي

عملها مع ابن أخته، ولكنى خفت من أن تتجرأ عليه العفاريت في ليلة ما، أو تستاء منه وتضربه في مقتل، لكن هذا لم يحدث أبداً ولعل العفاريت فضلت أن تناغشه بدلا من أن تضره، أو لعلها وجدت فيه مسامراً وأنيسا لا يمكن أن يجود الزمان بمثله، فقررت أن تحافظ عليه، وتمنحه بعضا من بركاتها التي تظهر في شئون كثيرة، من بينها أن أحواله تسير إلي الأمام وليست متوقفة، وأنه مصمم علي تعليم أولاده جميعا مهما عاني من الضنك والتقتير، وأنه محبوب من الجميع، وهذه كلها أمور لا تجتمع في شخص واحد إلا نادراً.

جولة مع فرانثيسكو

في اليوم السابق علي ليلة رأس السنة الميلادية قال فرانثيسكو لزميلنا عبد المنعم بكري: أين ستقضي رأس السنة يا عبد المنعم؟ فرد عبد المنعم بلغة فيها سخرية لدرجة أنه مط شفتيه، وعوج بوزه، وحرك رأسه: «أقضيها فين يعني .. في الترب!». كان عبد المنعم يسكن في بيت مبني داخل مقابر الغفير المقابلة لمنطقة الدراسة، ويبدو أن هيأته الجسدية، وحالته النفسية قد تأثرتا بهذه البيئة بحيث أنك تنظر إليه فتشعر بأنك أمام شخص حدث تحول كبير في شخصيته، فلم يعد هو ذلك الإنسان الفلاح القادم من الأرياف بل صار واحدا من الموتي/ الأحياء سكان المقابر. كان يقضي الفترة الصباحية في الكلية مثلنا، ثم يذهب إلي سكنه ماشيا لأنه قريب، وفي المساء ينتقل إلي منطقة الدراسة للمرور علي تلاميذه في المرحلة الإعدادية الذين يعطيهم دروسا خصوصية في اللغة الانجليزية. وكنت أتعجب من جرأته علي تدريس الانجليزي لأني أعرف أنه غير ملم باللغة الانجليزية، فقد كان مثلي درس اللغة الفرنسية في الإعدادي والثانوي ولم يدرس شيئا في الانجليزي، وهو الآن يدرس اللغة الإسبانية. سألته ذات مرة: كيف تدرس الانجليزية للطلاب وأنت لا تعرف فيها شيئا؟ فرد علي ببوزه المعووج وشفته المطوطة: «كله عك!». سألته: لكن الأولاد ألا يكتشفون أنك لا تعرف المادة التي تدرسها لهم؟ فأجاب: «وكيف يعرفون؟! إنهم جهلاء أولاد كلب». قلت: وأهلوهم ألم يشعروا بأنك تضحك عليهم؟ قال: إنهم شديدو البخل، لا يدفعون إلا قروشا قليلة، وبالتالي فأنا بالنسبة لهم لقطة. فمدرس اللغة الانجليزية المؤهل يطلب منهم مبالغ كبيرة لا يقدرون علي دفعها. ثم إني أحاول الآن من خلال كتاب «الانجليزية من غير معلم» أن أعرف بعض أساسيات هذه اللغة. ثم أردف عبد المنعم بلغته الساخرة: كله عك يا حبيبي!، ثم استدعي الجملة التي

نسمعها دائما من موظف الجامعة الذي يدرس لنا إحدى المواد: Asi es la vida أي «هذه هي الحياة».

قال لي فرانثيسكو ذات يوم بعد انقضاء الدرس، ولم يكن عبد المنعم حاضرا: هيا بنا نفاجئ عبد المنعم في المقابر. خرجنا من حرم الجامعة، وتوجهنا يمينا صاعدين نحو منطقة المقابر. كان فرانثيسكو ينظر إلي الناس ويتأمل في هيئاتهم، وكان لديه اعتقاد غريب هو أن كل من يراه في هيأة حسنة فهو إما يعمل في المخابرات أو تابع لجهاز من أجهزة الدولة البوليسية. والحمد لله أن معظم من قابلناهم كان شكلهم يدل علي الفقر وتدني مستويات المعيشة، وإلا لتصور فرانثيسكو أن كل الناس يعملون في المخابرات. مررنا علي محل عصير قصب فشرب كل منا قدحا. وكان فرانثيسكو يحب محلات العصير ويقول إن هذه المحلات ليست موجودة عندنا. بل إنه كان شديد الاهتمام بتحديد الملامح الفرعونية التي تميز الشعب المصري، ويبدو أنه درس هذه الأشياء في الكتب الكثيرة المنتشرة في الغرب، لاسيما في فرنسا، عن الفراعنة، ومعروف أن معظم الكتب التي تصدر في أي بلد أوربي تترجم إلي اللغات الأوربية الأخرى.

أشرفنا علي الطريق الذي يقطع منطقة المقابر، فوجدناه مزدحما بالناس، مما يدل علي أن عدداً كبيرا من المصريين يسكن في الأحواش نفسها أو في المناطق العشوائية التي أقيمت في الفضاءات التي تفصل بين مجمعات الدفن المختلفة. كانت المقابر بما تحوي من أحواش تمتد في مساحات واسعة ذات اليمين وذات الشمال. وعندما اقتربنا من المنطقة السكنية العشوائية وجدنا عبد المنعم جالسا علي مقبرة يستذكر دروسه. رآنا فحف إلينا بقامته المتوسطة، ورأسه المدورة التي يلبس فوقها طاقية مزركشة مليئة بالزخارف ذات الألوان الفاقعة. وهذه الطاقية كان يخفي بها رأسه الذي غادره الشعر مبكرا. أما قميصه وبنطلونه فهما اللذان شاهدناه

بهما في معظم الأوقات. حيا عبد المنعم الأستاذ فرانثيسكو وحياني باعتبار أني كنت شبه رفيق لفرانثيسكو ولم أكن مجرد تلميذ، وطلب منا أن نتبعه ذاهبين إلي مسكنه. قطعنا حارة ضيقة جدا الطريق فيها صاعد هابط، ولم تكن مليئة بالبشر فقط من الرجال والنساء والصبيان والفتيات بل كان ثمة دواب معظمها من الحمير تجر عربات صغيرة، ولا أدري كيف كانوا يستطيعون الصعود والهبوط، لكنها براعة الإنسان المصري في التأقلم مع أي ظروف يجد نفسه مضطرا للتعامل معها.

وجدنا علي باب البيت الذي يسكن فيه عبد المنعم نساء جالسات كلا منهن تزن ما يزيد علي مائة وخمسين كيلوجراما. والمرء في الحقيقة يندهش كيف يتكون عندهن هذا اللحم الزائد على الحد وهن يعشن في هذا الجو الملوث، الفقير، غير الآدمي؟!. دخلنا البيت فمال بنا عبد المنعم ناحية اليسار حيث الحجرة التي يسكن فيها. كانت الحجرة صغيرة، أرضيتها مبلطة بأسمنت عادي ومعمولة بطريقة سيئة أدت إلي ظهور نتوءات في الوسط والجوانب. أما فرش الحجرة فكان عبارة عن حصيرة عليها مخدة أكل الدهر عليها وشرب، وثلاثة أدراج موضوعة في أحد الأركان فيما يشبه المكتب يحفظ فيها عبد المنعم أدواته، وشماعة معلقة في الحائط وضعت عليها الملابس. أشعل عبد المنعم وابور الجاز كي يصنع لنا شايا. شربنا الشاي ثم غادرنا المنزل عائدين إلي الدراسة، وقام عبد المنعم بتوصيلنا حتى خرجنا من منطقة المقابر. لم تبد علي وجه فرانثيسكو الدهشة طوال هذه الرحلة، ويظهر أنه كان مقتنعا بأن هذه هي الحياة العادية لدي الكثيرين من أبناء الشعب المصري. فعدد كبير جدا من الناس يعيشون في المقابر أو حولها، وعدد كبير آخر يعيشون في المناطق الشعبية العشوائية، والغالبية العظمي من المصريين تكسب قوتها اليومي بشق الأنفس.

كان فرانثيسكو مختلفا جدا عن الأجانب، فهو يبدو ابن بلد حقيقي، حتى

في مظهره الذي كان قريبا جدا من ملامحنا الشرقية. فهو متوسط القامة، مدور الرأس، وافر الهامة لاسيما بعد انحسار الشعر عن جزء كبير من رأسه، سحنته قريبة من سحنة المصريين، أسود العينين، وإن كان فيهما بريق من نوع خاص، خفيف اللحية، كبير العارضين، ممتلئ العضل، حاد البصر، توحي نظرته بالشك فيما حوله، فهو يتوجس من أي شخص ويسرع إلي اتهامه بأنه يعمل في المخابرات، مع أنه عندما يثق فيك يبثك كل ما يعن له من أفكار وآراء. ويبدو أنه ارتاح لي جداً فقربني منه، وأفضي إلي بذات نفسه، واتخذني صاحبا ورفيقا. بل إنه طلب مني أن أذهب إليه في سكنه بمنطقة جسر السويس القريبة من المحكمة في مصر الجديدة كي أساعده في ترجمة كتاب عن الفن الإسلامي كان يمثل مرجعا أساسيا له في رسالته عن الماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة. وكنت في أيام الأجازات أذهب إليه ونظل نترجم من الساعة الثامنة صباحا حتى الثانية ظهراً. وللأسف فإن فرانثيسكو لم يكمل رسالته للماجستير لأن حياة العزوبية التي كان يعيشها أثرت عليه كثيرا في أواخر أيامه، فتحولت الشقة عنده إلي كيان فوضوي خال تماما من لمسات الأنثى وترتيباتها الجميلة.مع أن فرانثيسكو لم يتوقف أبدا عن القول بأنه يبحث عن عروس، وأنه قريبا سوف يرتبط بامرأة جميلة متعلمة مثقفة من أسرة مسيحية، لكن هذه اللحظة لم تأت أبدا.

وفي أحد الأيام قرر الزميل رشاد مِهنًّا أن يعزمنا علي الشاي في مسكنه. قبل الدعوة عبد العاطى ساطور، وأحمد فرغلي، وأنا، والأستاذ فرانثيسكو. كان عبد العاطى من أعجب الشخصيات في الدفعة، ولا يمكن أن تصدق أنه يمكن أن يصبح عارفا باي لغة أجنبية، لكنه كان ينجح بطرقه الغريبة في الغش. فهو في أيام الامتحانات التي تأتي في عز الحر يرتدى زاكته طويلة واسعة مملوءة بالجيوب، حتى يمكنه توزيع المقرر كاملا في كل

ركن من أركانها. وهو قد جهز نفسه تماما لأي إجابة، حيث يستخرج الورقة أو الأوراق من المكان المخبأة فيه بخفة ومهارة. ومرة ضبطه أحد المراقبين العموم، وكان مدرسا في قسم اللغة الفرنسية فقال له بلغة تشبه لغة المشايخ: ألا تحفظ الحديث النبوي الذي يقول: «من غشنا فليس منا». فرد عليه عبد العاطى بخفة وتلقائية غير متخوف ولا هياب قائلا: «والنبي أيضا يقول: من نفَّث عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّث الله عنه كربة من كرب يوم القيامة،والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه». ضحك المدرس وتركه ومضي، ويبدو أنه أعجب بسرعة بديهته. كان عبد العاطى متوسط القامة، قليل الهندام، واسع الشدقين، كبير الأنف، وافر الهامة، يعوض ضعفه الدراسي بخفة الظل وحلاوة اللسان، ويتقرب من الأساتذة لدرجة أنهم كانوا يتعاطفون معه، ويساعدونه ما أمكنهم ذلك.

أما أحمد فرغلي فكان قصير القامة، نحيف الجسم، دقيق الملامح، ترتسم علي وجهه أمارات الطيبة والاستسلام، وتظهر في نظراته قوة التصميم علي الخروج من دائرة الفقر التي تحاصره من كل الجوانب. أمَّا رشاد مهنا فكان يبدو لي دائما مثل مهرجي السيرك القومي. فهو طويل القامة، نحيف البدن، يرتدي ملابس تحس للوهلة الأولي عندما تراها أنها مشتراة من سوق الكانتو. وإذا كانت ملابس سوق الكانتو غير ذلك فكيف تكون؟!. أما حركاته، وسكناته فتنطوي علي نوع من الهبل، لكنها، مع ذلك، لم تكن مملة ولا مضجرة، بل هي محببة وتعطيك الانطباع بصفاء النفس، وطيبة القلب، وعدم الانشغال بالهموم.

مشي أمامنا رشاد مهنا فانطلقنا نازلين بموازاة الجامع الأزهر، مرورا بالحلات المنتشرة علي يسارنا ومن بينها محل تابع للقطاع العام ، حتى وصلنا إلي شارع بورسعيد، ومن هنا دخلنا في حارة جانبية ضيقة. سرنا فيها ردحا من الزمن حتى انعطفنا نحو حارة أخرى أصغر من السابقة.

كانت المساكن علي جانبي الحارة متهالكة أو شبه متهالكة. قال فرانثيسكو لرشاد مهنا: يبدو أنك تسكن في مغارة!!. وصلنا إلي البيت. كان مدخله ضيقا جدا، والبيت نفسه قليل المساحة ومع ذلك مقسم إلي قسمين كل قسم عبارة عن حجرة واحدة، ومطبخ صغير، ودورة مياه. أما حجرة رشاد فكانت في الدور الأرضي علي يمين الداخل. دخلنا إلي الحجرة، وجلسنا علي الحصير المفروش علي الأرض وكانت المفاجأة أننا وجدنا شقا كبيرا في الحائط. خاف فرانثيسكو من أن يسقط علينا البيت أثناء جلوسنا فقال لرشاد مهنا: هيا بنا نخرج وأنا أعزمكم علي المقهى الموجود علي ناصية الشارع. سارعنا جميعا إلي الخروج، وقال عبد العاطى ساطور بلسانه الطويل لرشاد: " ولد يا رشاد، كيف تعيش هنا؟ ألا تخشي من أن يقع عليك البيت؟. رد رشاد: أنا أسكن هنا منذ أن حضرت إلي القاهرة ولم يحدث أبداً أن وقع البيت. والناس هنا مقيمة منذ فترة طويلة أسراً كاملة ولم يتحدث أحد عن الخوف. علّق فرانثيسكو: هذا الشعب غريب في تحمل الظروف، ثم مال عليّ وسألني: هل قرأت" عودة الروح" لتوفيق الحكيم؟ قلت له نعم، وتوقفت كثيرا عند مشهد الفلاح المصري الذي ينام مع جاموسته في قاعة صغيرة.

بسيونى أبو زرعة

قال لي أخي سمعان مشيرا إلي حذاء موجود أمامه: هذا الحذاء يفهم اكثر مما يفهم بسيونى أبو زرعة. وكان بسيونى من أبناء قريتنا لكنه عندما نجح بتفوق في كلية العلوم وعين معيدا باع الأرض التي ورثها من أبيه في القرية واشتري قطعة أرض صغيرة في المطرية، وبني عليها بيتا من ثلاثة ادوار، كل دور شقة واحدة، سكن هو وأسرته في الشقة الأخيرة وأجر الدور الأرضي ، والدور الأول. الدور الأرضي سكنته أسرة يعمل عائلها سائق تاكسي، وهو فاحم السواد لكنه متزوج من فتاة بيضاء مربربة من بنات القرية. وكان الناس في قريتنا يسارعون إلي تزويج بناتهم الجميلات من أي شخص يعيش في البندر حتى ولو كان من بلاد السودانيين أو من اقاصي الصعيد. أما شقة الدور الأول فعلي الرغم من صغرها فقد عمد بسيونى أبو زرعة إلي تقسيمها قسمين: القسم الكبير أجره لأسرة من القرية أيضا يعمل الزوج عاملا في أحد المصانع وزوجته ربة بيت من أسرة كبيرة في قريتنا. أما القسم الأصغر فقد أجره لأخي سمعان الذي كان يدرس في معهد التكنولوجيا في المطرية. كان بسيونى يعتبر هذا القسم شقة كاملة المرافق، لأنها كانت تضم حجرة بها سرير" كل شئ كان" ، وباحة صغيرة ودورة مياه مستطيلة جهزها خصيصا لهذا القسم، حيث وضع لها قاعدة من النوع البلدي، وحنفية واحدة كانت تستخدم في كل شيء . وبذلك يكون بسيونى قد عرف ?علي طريقته ?كيف يستفيد من البيت. أما الشقة الأخيرة فقد جهزها لنفسه ولأسرته. والحق أنها كانت الشقة الوحيدة المعقولة جدا ، فمساحتها أكبر، وجهازها أنظف، وإضاءتها جيدة، علي العكس من الشقق الأخرى، حيث أن شقة الدور الأرضي كان من المستحيل أن تري يدك فيها إلا إذا كانت الكهرباء مضاءة.

كان بسيونى أبو زرعة هو الولد الوحيد لأمه التي مات زوجها مبكراً، وكانت من أسرة عريقة، وأهلها أغنياء، لكن كل شخص في بلادنا مشغول بنفسه، ولهذا تكفلت الأم بتربية ابنها وصممت علي أن يتعلم مثل أولاد أخواله الذين كانوا متفوقين وشغلوا مواقع مهمة فيما بعد. لكن الأم مثل غالبية أهل الريف في ذلك الوقت لم تكن تعرف الطب والدواء، فكانت إذا مرض ابنها وارتفعت درجة حرارته لجأت إلي أي أسرة لديها حمارة مرضعة وأحضرت كمية لا بأس بها من لبنها وسقته لابنها حتى يبرأ من مرضه. ولهذا عندما كنت أزور أخي سمعان في المطرية، وأنا من ساكني مدينة البعوث الإسلامية، يحذرني من بسيونى قائلا: «خد بالك من بسيونى لا تدخل معه في حوار أو نقاش يثير حفيظته لأنه شارب لبن حمارة». وقد تحققت من ذلك فعلا يوم فرح صديقي أحمد متولي الذي خطب فتاة من أسرة والدة بسيونى، وكان بسيونى بالتحديد خالها، وأقيم الفرح في فيلا الشيخ سيد النجار زميل والدي القديم، وعهد إلي بسيونى بتوزيع المشروبات، وكانت في ذلك الوقت من الشربات المختلف الألوان المذاب في السكر. تكأكأ الناس بصورة رهيبة علي بسيونى ومن يساعدونه، واندفعوا نحو الشربات يتخاطفونه، فثارت ثائرة بسيونى وكأن لبن الحمارة قد صعد إلي مخه فجأة، وعلا صوته، ولم يلبث أن عمد إلي الأكواب فرماها علي الأرض بعنف، فتكسرت، والجميع يفرون خوفا من أن يصيبهم أذي الزجاج المتطاير. وقال أحد الفلاحين معلقا: «لقد صار بسيونى مثل الحمار من كثرة شربه لبن الحمارة في طفولته!».

لكن بسيونى - علي الرغم من ذلك - كان ينطوى على شخص طيب جدا لاسيما عندما يكون هادئا. طلب مني يوماً أن نذهب إلي وسط القاهرة لشراء بعض اللوازم. ذهبنا إلي موقف «المسلة»، وانتظرنا الأتوبيس لأكثر من ساعة، وعندما وصل كان عدد الركاب لا حصر له، فتدافع الجميع

للركوب، رجالا ونساء وشبابا وأطفالا. ركبت أنا في الأمام وركب بسيونى في الخلف، لأنه اندفع إلي الأتوبيس بقوة كعادته فعثر علي مكان في الكرسي الخلفي الذي يتسع لخمسة أفراد، أما أنا فوقفت بين كرسيين تجنبا للزحام الشديد. عندما وصلنا إلي ميدان رمسيس، وكان الزحام قد خف قليلا، وجدت بسيونى ينادي علي بصوت عال قائلا: ولد يا حماد يا ... وقال كلمة خارجة لا يمكن أن تقال بين جمهور من الناس. أدركت حينئذ أن لبن الحمارة صعد إلي مخ بسيونى فحاولت أن أرد عليه وأعرفه أني سوف أنزل فى المكان المتفق عليه. عاود بسيونى نداءه لي وجاء بكلمة أخرى أكثر خروجا، وهنا قلت فى نفسى : ماذا أفعل مع هذا الحمار، دعه ينادى، وأوهمت نفسى أمام الناس أنى لست المقصود بالنداء.

قضى بسيونى سنوات طويلة في كلية العلوم يعد رسالة الماجستير، ومن الواضح أنه كان دارسا فاشلا. فقد شغل نفسه بأشياء كثيرة لا تمت إلي الدراسة بصلة، منها هذا البيت الذي يتفنن في إعداده وتأجيره، مما يزيد من دخله، وانشغاله بسفاسف الأمور. كنا في يوم راكبين مترو المطرية الذي ينطلق من الميدان، ويمر بمنطقة الحلمية ، ثم جسر السويس ويدخل بعد ذلك في مصر الجديدة. دارت مناقشة حامية بين الركاب حول الأهلي والزمالك، وفجأة وجدت بسيونى ينفعل بشدة، ويغلو في تشجيعه لنادي الزمالك، وينهر الجلوس بلغة صادمة كادت تصل إلي حد الفحش.ويبدو أن الناس أدركوا أنه غير طبيعي، ولم يعرفوا طبعا أنه شارب لبن حمارة في طفولته، فتجنبوه وسكتوا حتى يهدأ ويسكت. كان بسيونى أيضا مشغولا بشراء قطعة أرض هنا أو هناك، يمسكها لفترة ثم يبيعها بسعر أعلي. ولم تكن الأسعار تزيد كثيرا مثلما هو الحال في هذه الأيام، لكنها علي كل حال كانت تدر بعض الربح. ومع ذلك وبالرغم من هذه السنوات الطويلة التي قضاها في الدراسة فإنه حصل علي الدكتوراه في سن الخمسين تقريبا، ويومها علمت أنه

اشترى خروفا من القرية أهداه للمشرف علي رسالته. ولا أدري هل كان هذا الكلام صحيحا أم لا، لكنه قيل وتناقلته ألسنة المقربين من بسيونى، ربما لأنهم كانوا يرون أنه من المستحيل أن يحصل علي رسالة الدكتوراه، وربما لأسباب أخرى لا يصرح بها الناس في العادة.

ومع أني كنت أعرف أن المشي خلف بسيونى يمكن أن يقود إلي ورطة فإني ذات مرة فعلت عكس ما أتصور. كنت قد تخرجت فى الكلية وعينت معيدا، وانتقلت من مدينة البعوث لأقيم مع أخي سمعان. ومرّ بعض الوقت وكأن كل يوم يمر يحمل معه بعض المشاكل ليضعها علي رأسي. توفي الوالد وأصبحت العائل الوحيد للأسرة. لم تعد الحياة بالطريقة التي كانت سائرة عليها تصلح معي الآن أو مع الأسرة. فكرت ماذا أفعل. طلبت من بسيونى أن يفكر معي. حضر بعد صلاة المغرب، وجلسنا: بسيونى وسمعان وأنا. عرضت عليهما الفكرة التي ألحت عليّ في الفترة الأخيرة، وهي أن نبيع نصف الفدان الذي ورثناه عن والدي، ونشتري بجزء من ثمنه سيارة تاكسي مستعملة، ونأتي بسائق مثل ساكن الدور الأرضي يشتغل عليها. وافقني بسيونى وسمعان علي هذه الفكرة التي وجداها مخرجا من حالة الفقر التي نعيش فيها. سافرت إلي القرية وبعت نصف الفدان بحوالي ألف وستمائة جنيه، وبدأنا نفكر في شراء التاكسي.

كان من الواضح أننا لم نناقش المسائل جيدا قبل الإقدام علي بيع الأرض. فالأمور في بلادنا ليست سهلة، حيث الروتين القاسي الذي يستطيع أن يُفشل أي شئ ويحطم أي فكرة، ولذلك وجدنا صعوبة في كل شيء: في شراء التاكسي، وتسجيله في إدارة المرور، وتشغيله. لم نجد مخرجا وحيدا نستطيع أن ننفذ منه. والأيام تمضي، والفلوس تتناقص بسرعة فائقة، فقد تغيرت الأحوال، ولم يعد قرش الصاغ يصلح للعيش به لعدد من الأيام، والتطلعات زادت، وبدأت أفكر في البحث عن فتاة تتحمل معي صعوبة

العيش، أو علي الأقل تفكر معي وتشاركني الهموم. علم بسيونى أن فلوس الأرض سوف تضيع فقال لي: ما رأيك في أن تشتري قطعة أرض للبناء في عزبة النخل، وأنا سوف أشتري قطعة أرض أخرى. قلت له: عين الحكمة. اشتري هو قطعة أرض مساحتها مائة وعشرون مترا، واشترينا نحن قطعة مساحتها اثنان وثمانون مترا. دفعت فيها جزءا من المبلغ واحتفظت بجزء قليل للخطوبة والصرف علي احتياجات الأسرة التي زادت عن ذي قبل.

في كلية الألسن التي كان مقرها وقتئذ في حي الزيتون تعرفت علي معيدة، واتصل الحبل بيننا لعدة أشهر ثم قررنا أن أتقدم لخطبتها. طلبت من بسيونى أبو زرعة وأخي سمعان أن يصحباني في ليلة التعرف علي الأسرة. ارتدي بسيونى حلة أنيقة فبدا شكله جميلا، لاسيما وأنه كان متوسط القامة، أبيض البشرة، ممتلئ الجسم في غير ترهل، كثيف الحاجب، ملون العينين، مع أنف مدبب ووجه مستدير، ووجنة تميل إلي الاحمرار. ولاشك فى أني عندما كنت أتأمل في منظر بسيونى أقول في نفسي: لو أن هذا الشخص لم يشرب من لبن الحمارة لكان له شأن آخر. كان قريبا من أخواله في مظهره وهيأته، لكنه لم يأخذ منهم حصافة الرأي، ورجاحة العقل، وإنما ورث منهم صفة كانت مشهورة عنهم وهي سرعة الغضب، ولهذا لقبهم الناس في القرية بالهبابين، ثم زاد علي ذلك شربه من لبن الحمارة. أما أخي سمعان فقد لبس قميصا زاهيا نصف كم، وبنطلونا لا بأس به، وكان سمعان هو أكثرنا شبها بالوالد ولا يختلف عنه إلا في شيء واحد هو أن الوالد كان طويل القامة وسمعان متوسطها، لكنه أخذ منه كل شيء بعد ذلك: شقرة الوجه التي تصل أحيانا إلي حد الاحمرار، وشقرة الشعر، وجمال الطلعة، ودقة الملامح. أما أنا فكنت قريبا من أسرة والدتي: قمحي اللون، أسود الشعر، متوسط القامة، خفيف العارضين، أميل إلي النحافة بسبب الأمراض التي أصبت بها في طفولتي، وإن كنت عريض

الكتفين، مع راحة يد عريضة قوية، وخفة في الحركة، وانسياب في العضلات. لبست أنا أيضا قميصا نصف كم وبنطلونا يليقان بمعيد في كلية متوجه إلي بيت فتاة يريد أن يخطبها. لم تكن الفتاة جميلة، لكنها كانت مقبولة، خفيفة الدم، وينتظرها مستقبل واعد.

ركبنا الأتوبيس من ميدان المسلة ونزلنا في التحرير فأخذنا الأتوبيس الذاهب إلي الدقي. قال لي بسيونى بهبله الذي يظهر بين الفينة والأخرى: خذ بالك يا ولد يا حماد، كن حذرا من أن يضحكوا عليك. دخلنا من باب العمارة، وهي عمارة فخمة في منطقة راقية، فسألنا البواب: إلي أين أنتم ذاهبون؟ قلنا: إلي شقة الأستاذة هبة صبري ..فتح لنا المصعد قائلا: شقة ١٢ في الدور السادس. ضربنا جرس الشقة فخرجت هبة تستقبلنا وقادتنا إلي حجرة الصالون، وبعد قليل حضرت والدتها، لأن والدها كان يعمل في إحدى دول الخليج. رحبت بنا الوالدة، وكان من الواضح أنها تعيش حياة مرفهة. فمدخل الشقة مملوء بأصص الورد والشجيرات الخضراء علي الجانبين، والصالون جديد لامع، ولبسها من النوع الغالي، وكل ما حولك يشي بأن الأسرة تنسب للطبقة المتوسطة المرتاحة. بعد أن شربنا الشاي وأكلنا طبق الحلوى المقدم لنا في أطباق غالية نظيفة سألت الوالدة عن ظروفي. فقلت لها: إن والدي توفي منذ شهور قليلة، ولذا فنحن الآن أسرة مكونة من أم تعمل مزارعة في القرية، وأنا كبير الإخوة، وهذا أخي الأصغر سمعان، ولي أخ لأم يعمل مدرسا للغة العربية في إحدى مدارس طنطا، وأخت شقيقة مازالت في الإعدادية. ردت الأم: وماذا تنو ى أن تفعل بعد الزواج من هبة؟ قلت لها: سوف نعيش كلنا في مكان واحد، إلا إذا حصلنا علي بعثة للخارج فسوف أسافر أنا وهبة. ردت الأم بطريقة فيها جفاف وتعال: ألم تقل لك هبة بأنني لا أقبل أن تعيش ابنتي مع حماتها؟ قلت لها

!

في نبرة تحدى: «إن أمي سوف تعيش معي فإذا أعجبكم هذا فبها ونعمت وإلا فكل منا يعرف طريقه».

انتهي اللقاء، وأحسست أن الأم لم يعجبها كلامي، وأن الموضوع انتهي عند هذا الحد. وفي الطريق قال بسيونى: لماذا كنت حاداً في ردك. كان يمكن أن تجيب إجابة ترضيها وعند الزواج تفعل ما تريد. قلت له إن امرأة كهذه لن تتركك تفعل ما تشاء، فمن الأفضل أن يحسم الأمر منذ البداية. لم يعلق بسيونى علي كلامي، لكنه أخذنا إلي أقرب محل عصائر وسقانا عصير قصب. نظرت إليه ممتنا وأنا أعرف أنه فعل ذلك كي يعمل علي تهدأتي.

استمرت الصلة قائمة بيننا وبين بسيونى أبو زرعة حتى بعدما انطلقنا في أرجاء الله الواسعة باحثين عن حياة أفضل أو عن الرزق. وظل بسيونى في المطرية يمارس حياته كالمعتاد، لم يتغير ولم يتبدل، ولم يحاول الخروج من أسر التفكير الفلاحي الذي كان مسيطرا علي عقله. فهو من الأشخاص الذين لا يتغيرون حتى ولو أتيحت لهم ظروف حياة مختلفة. ولا أدري هل كان هذا بسبب شربه للبن الحمارة في طفولته؟ أم بسبب جموده وتخلفه وسذاجته التي تبلغ أحيانا حداً لا يمكن التنبؤ به؟ أم لأنه من النوع الذي يستسلم لحياة الدعة والهدوء ولا يرغب في الخروج منها مهما كانت المغريات؟

وبعد رجوعي من البعثة زرته في البيت نفسه فوجدته كما هو، لم يتغير عليه شيء اللهم فيما عدا سيارة قديمة اشتراها فكان يذهب بها إلي القرية يمكث يوما أو يومين في بيتهم القديم ثم يعود محملا ببعض الأطعمة البلدى.

إفطار فى الشرابية

قال لى عبده زيدان: لماذا لا تزورنا في الشرابية، تتناول معنا طعام الإفطار وتقضى الليل معنا، نصلى التراويح في مسجد قريب منا وغدا الجمعة نمضيه معا؟ قلت له: والله فكرة تجعلنى أخرج من إسار الروتين اليومى فى مدينة البعوث الإسلامية. انطلقنا معا بعد انتهاء المحاضرات ومررنا على سور الأزهر نتأمل الكتب القديمة المعروضة فى الأكشاك المخصصة لذلك. ولا أدرى لماذا كنا حريصين علي تصفح الكتب وشراء بعضها بالقروش القليلة التى كانت معنا؟ هل لأن الظروف أيامها كانت تمنح المثقف قيمة عالية فينظر إليه الناس على أنه رائد فى مجالى الفكر والأدب، وواحد من الأعمدة الراسخة في المجتمع؟ أم لأن الإعلام كان يولي اهتماما كبيرا للثقافة والمثقفين؟ أم أننا نشأنا في جو صحي فيه اهتمام بالتعليم وبالمعلم وفيه تشجيع علي تحصيل العلم والإبداع فيه؟ لم نتصور أبداً أيامها أن الثقافة سوف تنحدر انحداراً شديدا، وأن الطبقة الحاكمة الجاهلة المتخلفة سوف تتوجس من الكُتّاب والمثقفين وتخشي منهم علي مواقعها وتحاربهم حربا لا هوادة فيها.

ركبنا الأتوبيس الذاهب إلي رمسيس من أمام مشيخة الأزهر بعد أن انتظرناه ما يقرب من ساعة. كان الأتوبيس مزدحما كالعادة لكننا تعودنا علي ذلك فكنا نحمد الله علي أننا وجدنا مكانا داخل الأتوبيس. وتذكرت فى هذه اللحظة ليلة أن ركبت مع عبدالتواب ابن خالتى المترو المنطلق من الدراسة إلى المطرية، وكانت آخر رحلة له فى ذلك اليوم، فامتلأت العربات عن آخرها، ولم يعد أمامنا إلا أن نتشعبط علي السلم، أنا بقامتي المتوسطة النحيفة، وهو بقامته الطويلة الفارعة، ولم ينس عبدالتواب فى تلك اللحظة المتأزمة جدا أن يطلق بعض تعبيراته الفلاحى الساخرة التى كان يختزنها

لمثل هذه الأوقات الحرجة، مثل قوله: «حوش يا حواش»، أو قوله: «إلي يحب النبي يزق»، وبالفعل فقد كان الوضع يحتاج إلي مداومة الزق حتى نستطيع تجنب الوقوع علي الأرض أثناء سير المترو. لكن ماذا نفعل؟ هل نستطيع أخذ تاكسي من الدراسة إلي المطرية؟ وهب أن عبد التواب يستطيع بوصفه موظفا حكوميا محترما فهل يهون عليه أن يدفع؟.

نزلنا في ميدان رمسيس. كان الميدان مليئا بالباعة الجائلين، بعضهم يبيع بضاعة من البضائع العادية الموجودة في كل الأسواق، وبعضهم -وإن كانوا قليلين- يحاولون اصطياد رواد الميدان السذج القادمين من الأرياف أو بعض المدن الإقليمية وليس لديهم وعي بحالات النصب والاحتيال التي يمكن أن يتعرض لها أي قادم غريب. فهؤلاء تعرض عليهم البضاعة المغشوشة بأسعار زهيدة مع أن شكلها قيِّم، ولا تكاد تفرق بينها وبين البضاعة الأصلية السليمة، ولكنك بمجرد أن تشتريها ويتوه البائع بين الزحام تحس أنك وقعت في كمين. أما عن الفوضى التي هي أساس الميدان فحدث ولا حرج. فالزحام شديد، والمشاة في حالة تدافع مستمرة مع السيارات والعربات الآتية من كل اتجاه، والناس أشكال وألوان، منهم من هو حسن الهندام، يضيق ذرعا بالفوضى الهائلة، ومنهم من يتسببون في صنع هذه الفوضى، ومنهم الفقراء المطحونون الذين لا تقل حياتهم فوضى وعشوائية واضطراب من ميدان رمسيس نفسه، ومنهم من تشغله همومه وأوجاعه عن نفسه. وهكذا تنظر إلي ما يجري في ميدان رمسيس فتحس أنه صورة مصغرة لما يجرى في مصر كلها من جنوب الوادي إلي شماله، وصورة للامبالاة والجحود والتسيب وتغليب المصالح الشخصية لدى الطبقات الحاكمة وصورة للمجتمع القائم في أسسه وأركانه وأعمدته علي الفوضى والعشوائية.

فضل عبده زيدان أن نقطع المسافة من ميدان رمسيس إلي منطقة

الشرابية مشيا، واختصاراً للمسافة رأي أنه من الأفضل أن نقطع طريق السكة الحديد. تخطينا القضبان حتى وصلنا إلي المنطقة السكنية، ومن هناك انطلقنا في الشوارع الجانبية حتى وصلنا إلي الشرابية. المساكن كلها شعبية منذ أن غادرنا القضبان، وهي مساكن تصرف فيها الناس بما يتفق مع حاجاتهم، وبما يحقق مصالحهم في مسكن يستطيع أن يتحمل أسرة كاملة من أب وأم وأولاد وربما أجداد وجدات. ولذلك تري بعضهم تفننوا في زيادة شرفة مدوا لها أعمدة حديدية، بل أحيانا تجد حجرة كاملة انطلقت في أجواز الفضاء، بطريقة تثير الاشمئزاز. لكن ماذا يفعل الناس وهذه هي ظروفهم ودخولهم المحدودة التي تضطرهم إلي فعل ذلك. أما الشوارع فمليئة بالقمامة. وإذا كانت الشوارع ضيقة جدا قد لا تزيد علي مترين أو ثلاثة فماذا يكون وضع القمامة. بل إن التفكير العشوائي لدي الحكومات الموقرة ترك الناس تفعل ما تشاء، لدرجة أن عرض الشارع يتحدد حسب المزاج، ومن هنا يتفاوت العرض بصورة صارخة فيكون مترين أو ثلاثة أو أربعة. وبعض البيوت ذات الأدوار العالية لا تترك أمامها مساحات أكثر من ذلك. وهذا هو حال المناطق الشعبية في كل أنحاء البلاد، ولذلك عندما سكن إيهاب الزفتاوي في منطقة بشتيل المحطة بالجيزة كان يقول لي، وهو ساكن في الدور السادس، إننا نتبادل أكواب الشاي مع السكان المواجهين لنا في العمارة المقابلة.

اخترقنا الشوارع الضيقة، ومررنا علي الباعة الجائلين، ومحلات الفول والطعمية، والطرشي، والكشري وغيرها من المحلات الكثيرة التي تلبي حاجات المناطق الشعبية من كل السلع والبضائع والفواكه والمأكولات. ولا تعدم كذلك أن تجد قطعانا من الخراف والماعز معروضة للبيع، وهناك مجازر متخصصة في ذبحها وسلخها وتجهيزها للمشتري، ولهذا تجد

المخلفات منتشرة في كل مكان. أما الزحام فهو شيء طبيعي جدا في هذه المناطق التي غفلت عنها الحكومة وتركت أهلها يديرون شئونهم بأنفسهم.

وصلنا إلي البيت فوجدنا محمد المعتصم زميل عبده في الكلية وبلدياته في انتظارنا. كان مدخل البيت ضيقا، بدون إضاءة، ولهذا أخذت أتحسس الطريق إلي الدرج، وهو درج مهترئ وغير نظيف كأنه لم يكنس منذ* أكثر من عام. أما الشقة فعبارة عن حجرة واحدة وإن كانت واسعة نسبيا، ملحق بها دورة مياه صغيرة ومطبخ أصغر منها. والفرش كان يبدو وكأنه مجلوب من منطقة بيع العفش المستعمل. قال عبده زيدان بلسانه الطويل ولغته المنفلتة: ماذا عندك ناكله أيها المتعوس الملقب بالمعتصم ولا أنت معتصم ولا يحزنون. رد المعتصم: ليس لدينا أي شيء علي الإطلاق. رد الآخر: ماذا سنفطر ونحن في رمضان ومعنا متعوس أخر دعوته للإفطار معنا؟. قال المعتصم: علي أية حال مازال أمامنا ساعة ونصف الساعة ويمكن أن نتصرف. بحث المعتصم في جيبه عن نقود فلم يجد، وبحث عبده زيدان فلم يجد وتذكر أن أخر قرش كان معه صرفه في المواصلات. وبحثت في جيبي فلم أجد إلا قرشا واحداً لابد أن أحافظ عليه للعودة إلي سكني. قال عبده زيدان: إذن لم يعد أمامنا إلا حل واحد هو أن نبيع الحذاء لتاجر الروبابيكيا الذي يمكن أن يمر الآن. فهو يأتي عادة في هذا الوقت والناس كلها في البيوت انتظارا لانطلاق مدفع الإفطار. وبالفعل وصل تاجر الروبابيكيا، وسمعنا صوته يلعلع من بعيد فتجهز محمد المعتصم ولبس جلابية الخروج وانتعل شبشبه وأطلق ساقية للريح حتى لا يفوته تاجر الروبابيكيا فنظل بدون إفطار. عرض المعتصم الحذاء على البائع فثمَّنه بقرشين، لكنه ظل يساومه حتى باعه له بثلاثة قروش. ردت الروح إليه عندما وجد فى يده القروش الثلاثة فأسرع إلي المحلات المنتشرة في المنطقة واشترى فولا

وطعمية وجرجيرا وطماطم وخبزا وعاد إلينا مثل السبع الذى استطاع أن يقع علي فريسة مشهية.

انطلق مدفع الإفطار، فجلسنا حول المائدة المثيرة للعاب. أكلنا وشبعنا، وكان الأكل له طعم خاص لم أر مثله فى حياتى. كنت ألتهم الفول والطعمية والجرجير وكأنني آكل لحم خروف لبني موضوع في إناء من الفخار ومطبوخ في الفرن البلدي. تذكرت موائد مولد النبي والمواسم الدينية في القرية وكيف كانت الوالدة تتفنن في طبخ اللحم بالسمن البلدي، ومعه الأرز المعمر، والبطاطس المحمرة في الفرن أيضا، والكسكسي، والمسرودة. يا إلهي! هل طبق الفول يستحق كل هذا؟! وهل الطعمية برائحتها النفاذة تجعلني أستدعي أكلات الفرن البلدي؟!. صحوت من أفكاري الشاردة علي صوت عبده زيدان وهو يقول: " لولا الحذاء ما أفطرتم الليلة فاحمدوا الله علي الفقر والعنطزة".

بعد الإفطار حكي لنا عبده زيدان أن الحال ضاق به يوما فذهب إلي الشيخ محمد الغزالي في عمارته بالدقي، وحكي له عن حالة الفقر الشديدة التي تكاد تمنعه من مواصلة دراسته في الكلية. استمع إليه الشيخ الغزالي بأذن صاغية وتعاطف شديد، ثم قال له: اسمع يا بني، هذه هي حالة معظم المصريين في شبابهم. أنت تراني الآن أسكن في الدقي في عمارة فاخرة أمتلكها. سوف أحكي لك موقفا واحداً مما حدث معي وأنا طالب مثلك في الجامعة. في أيام الامتحانات كنت أجيب علي الأسئلة بسرعة وأخرج قبل الطلاب جميعا، لا بسبب أني كنت متفوقا عليهم، ولكن لأني كنت ألاحظ وجود بعض فتافيت الخبز حول شنط الطلاب فكنت أجمعها قبل أن يخرجوا وأتقوت بها. وأنا أعتقد أن حالك الآن أفضل من حالي بكثير. ألا تذكر أبيات صالح الشرنوبي التي جاء فيها قوله:

ويا صاح أتي الشهر الذي أعرفه وحدي
فعمري كلــه رمضان حرمان بلا حد

ثم أضاف الشيخ الغزالي: أنت علي الأقل تسكن في شقة في الشرابية. صالح الشرنوبى لم يكن يجد إلا مغارة فى جبل المقطم ينام فيها.

بعد أن انتهينا من صلاة التراويح عدنا إلى البيت، فأخذت أتصفح الكتب الموجودة عند عبده زيدان ومحمد المعتصم. عثرت لأول مرة على كتابين مهمين للدكتور محمد النويهى عن شعر الحداثة فقررت أن أشتريهما، وفعلا وجدتهما بعد ذلك على سور الأزبكية. وعندما جاء وقت السحور تسحرنا بالفول والخبز اللذين احتفظنا بهما لهذه اللحظة. لم تكن موائد الرحمن قد عرفت بعد، ولهذا كنا مضطرين إلى تدبير أمورنا بأنفسنا. وعلى الرغم من هذا الفقر الشديد قضينا السهرة كلها نضحك وننكت ونتبادل القفشات وكأننا فى ليلة سمر. بل إننا كتبنا قصيدة بالتبادل أو الإجازة نهجو فيها أحد أساتذة الكلية ممن يستحقون الهجاء. وكان عبده زيدان فى هجائه سوقيا فاحشا يتخير أسوأ المعانى وأقذع الكلمات، وكان الجميع يخشون من لسانه الطويل وعياره المنفلت على الرغم من طيبته وحبه للناس.

انتهت

فهـــرس

فهـــرس

القسم الثالث

فقــراء المثــل الأعلى

هذه الرواية توضح أن حالات الفقر الشديد يمكن الخروج منها بالعمل والإرادة والجهد والإنتاج، وأن الشخص الذى نشأ فى بيئة فقيرة ليس محكوماً عليه أن يظل فقيراً طول عمره.

وكذلك الشعوب يمكنها الخروج منا حالات الفقر والتخلف والعوز إذا صدقت النيات، واجتهدنا فى الانطلاق نحو آفاق جديدة وأفكار قوية فعالة ومؤثرة.

مؤلف الرواية هو الدكتور حامد حامد أبو أحمد صاحب المؤلفات الكثيرة فى مجال النقد الأدبى سواء فى الأدب العربى أم أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية، فضلاً عن ترجماته العديدة فى الأدب والثقافة.